الطبعة الثالثة

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

@ketab_n
Follow Me
26.2.2016

حسن مُطلَك

# دابادا

روايـة

# دابادا

## روايـــة

حسن مُطلَك

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ردمك: 7-278-29-9953

الطبعة الثالثة

1427 هـ - 2006 م

الطبعة الأولى - بيروت 1988

الطبعة الثانية - القاهرة 2001

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1 - 961)
ص. ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1 - 961) - البريد الإلكتروني: asp@asp. com. lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. asp. com. lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

Twitter: @ketab_n

... بحلـــول الخـــريف حيث تُجاهد الأشجار للتخلص من أوراقها الميتة، قامت هاجر ثم اتجهت إلى المطبخ المنفرِد لكي تُوقد ما تبقى من أحطابها وتُعد أصباغاً من عروق الشوك لقِربة اللبن. قامت هاجر، يقول شاهين وهي أمه.

في كـــل خريف تتجدد ذكرى ضياع الأب في البراري بسبب أرنـــب مبَقَّع. بعد ذلك تجيء الصباحات وراء الأقفال لتُذكّر الابن بوقفـــة ما، حفيف رداء، عشيّة عزيزة، خسارة، بكل شيء تقريباً باســـتثناء عواد واختباراته في فن الرسم على اعتبار أن كل حقيقي جديـــر بالنســـيان حتماً.. وأخيراً أيضاً، انتهت القَناعات مع زوال الفصول وأصبح رضاه نادراً فبدأ بنقر الغلاف مثل فرخ في بيضة.

ومـــرة بعد أخرى يعيد إلى وجهه المُضاء بالحزن، النشيد المتقَن الحفـــظ، نشـــيد حـــياته الخالية من شرط العاطفة لأنه لم يتجاوز الطفولـــة بعد سبعة وعشرين عاماً، ميلاده الناقص في الوزن. يتعلم ســـريعاً كـــيف ينســـى الكلام حين امتلأت أواني الطبخ بأجنحة الفراشـــات ونبتـــت الأعشـــاب ذات الاخضرار الفاقع في شقوق أرضـــيات الغُرف وهو يسمع جملة واحدة مذ كانت الأشجار أكبر مـــن حجمها الحالي: انزل يا بني على مهل.. دَرَجَة درَجَة. تراقِب تنفّســـه المرتفع وهو ماض في الاستيلاء على نفسه عابراً غرفته بين شـــقوق الـــباب مـــن الرفّ إلى الرفّ المقابل فيتملكها القلق على صـــحته وهزاله اليومي ويهزها الخوف: إنه يذبل.. هذا الولَد. بينما تلـــتمع عيناه مجتازة حضور المساءات، وتنفجر فجأة حين ترى بأنها



Twitter: @ketab_n

عاجـــزة عن إيقاف حركات البندول لأنه لا يعرفها تقريباً، ولأنهما لم يـــتحدثا عـــن هموم بعضهما اللهم إلا نداء الفطور: ألا تفطِر؟ صـــرخة نهاية الظلمة قبل الصعود أو بعده عندما يكتشف أنها تنظر إلـــيه وقد عقَدَت ذراعيها على صدرها خلال الهواء المهتز بينهما. ولابـــد أنها تنتظر خلف الباب أحياناً ثم تذهب لتُهمل جسدها بأية صورة وتحاصر رأسها بذراعيها لكي لا تسمع وقع خطواته المتوافق ودقات الساعة، خطوات منتظمة في الثقل والتوقيت لا تتوقف حتى ارتفـــاع الشـــمس، وهو لا يتحدث على الإطلاق لأنه لا يعرف كـــيف يقول لها: صباح الخير، مرحباً، كيف الحال.. ولا متى يقول ذلك؟.

كانـــت تتحرك بيسر كأنها غير مرئية، انحناءً ونهوضاً مستمرين، تـــرفع القـــدر عن مكانه ثم تعيده بعد قليل، ولكنها حركة متشابهة كحـــركة الأمـــس أو الغد مع أنها تقول وتكرر: لقد خَطَبني الموت. وعيـــناها تـــتحركان أيضـــاً في بركة رمادية من الدمع الدائم. آثار ابتســـامة محـــنَّطَة، ابتسامة قديمة مُلتَقَطة من لحظة فرح قديم. ويعلو صـــوتها كلما نبتت لها شَعرَة بيضاء جديدة، إذ يأتيه الصراخ صاعداً عـــلى شكل قوس من الشُباك الأسفل إلى الشُباك الأعلى فيفتح عينيه ويجـــد كل شيء كما تركه قبل النوم: غبار الرفوف، غبار السرير، غـــبار شعيرات الأنف. وهم يتحدثون عن مستجدات حلاّب كأنما يـــتحدثون عـــن كل ما يعنيه، مع ذلك، لا ضَير. يقول. لا ضَير في الـــبدء لو يتركون فقط مرفقيه على قاعدة الشُباك، فقط لو يتركون فقـــط مرفقيه على قاعدة الشُباك، فقط لو يتركون.... وبدون: انزل يـــا بـــني على مهل، دَرَجَة درَجَة، تمسَّك يا ولدي. طوال نهار الغبار بعـــد التعب على المائدة لأنهم يسرقونه من متعة اكتشاف إحديداب


Twitter: @ketab_n

سطوح البيوت المائلة مع انحدار التل، ينصت دون تفكير إلى خرير ماء الصابون عند صخور البئر المُحَزَّزَة بالحبل مقطوعاً عن التواصل بنهيق أو بجُمل عابرة: " أنتَ واحد منا. زوجتي مطلّقة إن لم تشرب الشاي. تمسَّك بها. أربط البقرة.. إلخ ".

كان هجوم الصباحات على النافذة في لحظات قصيرة بحفة تمنحه البدائل عن كل أمنية إذ أنه اعتاد النهوض قبل الشمس ليرى الطيور وهي تمزق بأصواتها سماء الفجر الفضيّة رابطة الغيوم بخط أسود بَليل ومتقطع، على اعتبار أن فتح النافذة، بل مجرد فتحها كان يُقرّب إليه سماء زقورات الآثار: هاهي، قريبة. ويدخل غرفته فجر الحقول. يرتد: منشفته. ساعة الحائط. رفوف القواقع. ملابس الطفولة.. ويداه في الظل مفتوحتان للإمساك بشيء ما. عندها يبدأ الشك بجدية الوقائع السابقة، واقفاً حتى ساعات الظُهر، ضائعاً يهتدي بأصداء مبعثرة، بنعوت عميقة ثم احتمالات غضب تحولت تدريجياً إلى هواية باردة بنسيان وجع الساقين بعد الوقوف المستمر و... نادراً ما يصل إلى الإغماء. وانتهت القَناعات مع زوال الفصول فأصبح رضاه نادراً، عند ذاك بدأ ينقر الغلاف مثل فرخ في بيضة.

فمنذ أبعد اللحظات، تَدحرَج: " أنا الغزالة الصغرى ". على حفرة غائط وتبقَّعَت ثيابه فساقوه بالتصفيق حتى مدخَل "الحِصار"، هكذا يسمون البيت ربما وفق طريقة خاصة في البناء، فكان يلمس الحيطان: باب يؤدي إلى باب ثم نوافذ صغير قوسيَّة والغُرف مظلمة ما عدا غرفته لأنها مرتفعة، مكان دائم رغم تبدل الفصول، مكان خاص للنوم والطعام والعُري يحتل بقعة فيحميها من الأمطار


Twitter: @ketab_n

وحرائق الشمس وبرد آخر الليل. والبيت هنا، ذابل في مركز العالم وبعـيد عـن متـناول اللصوص. معزول لأنه حُرّ في أن يسقط أو يستمر، ولكنه مُقيَّد بمتانة الزوايا حتى خمسين سنة أخرى تقريباً.

كـان يعرف أنه يستحق حين ساقوه إلى مَدخل " الحصار " وهـو الغـزالة الصـغرى فوق حفرة الغائط بدليل أن الخجَل يأتيه فيكسِـر نظـره إلى الأرض كلما تفحص الأفق، كيف الأشجار، وكـيف أنهـا تُبعثر استقامة الخط فيحسب أن سماء الجيران خاصة بـالجيران تُقرّب اللهَ ببراءة اليقين بإمكانية الاستجابة لأماني الفراش. والجـيران هـم العائلة نفسها بالوراثة أو بتبادل أواني حَساء الخُبّاز كفرصـة متاحة لاستفزاز الذاهب خلف أرنب مُبقَّع، إذا ما استثنى الحـلاوة في عُلب خشبية مدوَّرة، وللناقص قطعة خبز وعليه كف الأب كطابوقـة إذا رفض الخُبّاز فقد كفر بالنعمة. يندس تحت وبر الغطاء برفق لكي لا ينكأ حجامة ساقيّ الجَدة السمينة آكلة البيض الفاسـد. الجَدة المُقعَدة، علامة احتجاج الأسلاف ضد الجِيل، وهي تُحـذّر وتحِن: " كان يا ما كان عن الأميرة بدر الزمان..". ثم تنام عـند عتبة باب السُلطان ويمتد منقارها، وهو يعني أنف اللقلق على الحـائط، فيحوّل الفانوس لأجل الحصول على مزيد من الاستطالة حـتى صدْع الزاوية أو يرسم بسبابته على تراب القشّة ـــ وإن شيئاً ما ينتصب تحته دافئاً كالبول ـــ عشرات الدوائر بلمسات حذِرة " دوائـر الـنُعمان " الفائقة في الذوق. ذلك الانفراج غير المقصود، العطـاس أمام الوسادة: مخاط أخضر، بمثابة جذع للثمار الدائرية. كان يحن إليه لأنه هوس النطق بالأفعال عبر لذة الماء الفاتر. أحضان وعجـول الظـلمة تُقرِّب ما مضى، خرساء سوية في التحوّل لأنها خرسـاء ممتدة حتى قعر طفولة الجَدة: مجرد جذع مُحاصَر بشريطيّ



Twitter: @ketab_n

قماش، في الماء أيضاً حيث تستحم العجول..

حين اتجهت هاجر إلى المطبخ المنفرد عن البيت لتوقد أحطابها المتبقية، صعَد إلى شُباكه وألصَق مرفقيه بالقاعدة فشاهدهم في ضوء النافذة الصريح، أربعة رجال وامرأتين، يضحكون بعيون دامعة بين رِفعَة الأثاث. رؤوس وأكتاف تبيّن له ترف الحياة التي تعلو مقابل شُباكه، وأن الذي يفصلهم عنه، فقط، فراغ ما بين البيوت بحيث يتشجع رجل مسلول على القفز نحو سطوح الحارَة الأخرى. ليس ثمة علامة في حائط الجُص باستثناء فَضَلات الحمام على الحافة السفلى للشُباك المقابل، الحافة التي تَبَح صورتهم من المنتصف، ثم أنبوب تصريف مياه المطر يمتد حتى الأساس.

مربع الضوء المُحدَّد بمربع ظلام الهاوية ذي الأفقين المليئين بالمتعة، حافة الحوض أو المائدة أو أي شيء يجلب الثقة بلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهديّة مفاجئة: ضوء. ضوء! يعكس وجه شاهين على الزجاج فيتلمسه عندما يتذكر ذواء الخريف، عميقاً مظللاً على الجُص.

خرج النمل المُجنَّح صوب الحبوب الراسية في حافات السيول منذ طوفان أكياس قمح المخازن بعد المطر الأخير ولم يستطع أن يراهم. كان يعرف أنهم هناك يجربون السباحة في بركة الضوء غير أنهم مفصولون عنه بنسيج مُخَطَّط وهم يضحكون يومياً بين سجاداتهم المُزيَّنة بصُوَر طواويس وأعراف هداهد وقرون وعول تمتص صدى قهقهاتهم وكلامهم السطحي الدافئ، يهمسون في لحظات الهدوء بعد العاصفة، حركة واحدة كصلاة إلى الأسفل بحيث يمتلئ الهواء بأماكنهم. ينحنون جميعاً ناطحين حافة الظلام



Twitter: @ketab_n

فتنبـــثق جُملـــة واحـــدة كُتِبَت بفحمة أو بقلم مستعار من الليل: "ذكـــرى المُعَـــذَّب صابر يوم الأربعاء بعد المطر "، لذلك، وليس لأجـــل ذلـــك، يَســـقط في فرق التناقض بين العذاب والضحك، المُعَذَّب والضاحك، بينما يجمعون استحقاقهم من قتل بعضهم بعضاً أثـــر التخديش والاهتزاز كصورة عتاب الأحباب. لن يحتّما الخيانة أكثر لأنه لا يريد بلوغ النهاية، فيرتدّ باتجاه رفوف الغبار والقواقع، لكن المربع المضيء يقفز حيثما يُحوّل عينيه فيهرب إلى تخيّل صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل، قائماً على دعامات رفيعة في أوراق المشـــاريع، ولكنها صورة قابلة للتحوير ما عدا الشُرفة المُطلّة على الـــبراري حيث يشرب القهوة بالحليب ويتحدث عن إمكانية القيام بجولة خلف التلال قبل أن يمر بعواد، نظراً لحاجته إلى إشارة خاصة يحبها فيه، ويمر ببيوت عديدة تقتسم قباب الأرض لذا سيحتاج إلى تحـــيات الجـــيران أولاً. بـــيوت تحد بيوت، وبيوت تهب سطوحها كأفنية لبيوت أعلى. أما البيوت الأخيرة فإنها مَصَدّات لرياح شباط ومـــلاذات للأبقـــار خلف أبواب الصفيح المُسندة بألواح مسمارية مُســـتَخرَجة مـــن منحدر التل الأسود حيث ينمو الفطر في أكواب الآشـــوريين بعدما تمر عليها الدواب وقد عادت من التلال الجرداء بيـــنما تحـــتفل الضفادع استعداداً لهجر السُبات ويتهيأ الزيزان بعد ثلاثـــة شـــهور للغناء في هشيم الحصاد، ثم عيدان الشقائق الميتة ـــ شقائق الكلاب التي تترك نُدباً بعدما يلمسها الرعاة.

نظرَت هاجر إلى الباب يَفتح نفسه بصرير بطيء فأوقفته وهي بكـــامل أناقـــة الحـــداد، أوقفته. دخلت رائحة الأغنام إلى المنزل، وقفـــت. كانت مرتجفة لأنها مرتبكة لأمر عزَمَت عليه فنسيته حالاً، أما النازل فقد لمح ظل امرأة في الباب فناداه: هاجر..



Twitter: @ketab_n

كان الظل ساكناً يتابع تسلق الدرب على المنحدر بينما كانت الأشجار السوداء أسفل الهاوية تحُك نفسها لكي تنتزع بعض أوراقها الميتة. ومنذ أن وضعَت الباب وراء ظهرها، تبيّنَت له رغبتها في الجلوس على هيئة السقوط عند النار بجلسة قديمة ورَثَتها عن شبيهاتها، وبرجاء لا يوازي نشاط الشُهب وقرقعة الأحطاب. رأسها متجه نحو أفق القمر، وذراعاها معقودتان، وقد كشف رقص اللهب عمق الغضون حيث يُعبّر كل خط عن وقفة وداع أخيرة لأعزاء، وقفة راسخة، أبدية لصورتهم وهم يختفون بين الأصابع لحظة رفع الكف. اضمحلت طيات الثوب بشيء من الإهمال. الثوب رمادي مصموغ في الخلف حتى ظل الوتد على أعشاش العصافير، متميز عن حائط الجص مثل مغارة، وتقول: أراقب كل يوم طول ساقيك، متى ستنطح حدّ الباب، تتخلى عن عادات وتكتسب أخرى؟. ومضت على خط اطمئنان بسيط لأنه استجاب فزعاً لكلماتها وتذكّر وهو ينظر إلى اتساع حضنها كيف مدت دجاجة جناحيها فوق كتاكيتها حين أبصرت في الأرض ظل الباشق. لكن الغريب الذي مرّ وسمع الهمس، قال: إن شاهيناً لا يشبه أباه، فذاك رجل مليء بالغناء. غالباً ما ينسى أي امرئ كيف كانت صورة رجل معيّن في طفولته، ولكنه لن يقدر على نسيان محمود حتى أبعد يوم في الخَرَف لأنه وُلد من مزنة بعد جفاف سنين، فأخذته جدته إلى النهر ملفوفاً بمسحوق الشوك، فكان يبتسم لمشهد الامتزاج العجيب بين الماء والضوء عندما تجيء الأمواج، تذهب الأمواج، وتجيء ثم تذهب لاطمة زعانف الأسماك الميتة. وكان النهار الأول في حياته يحمل أنباء سارة فوق ظهور حمير القرى البعيدة... وطَلَعت العجائز من الوديان لمشاهدة الطفل



Twitter: @ketab_n

المعجـــزة بعينـــيه الداكنتين وشَعره الذهبي المُمَشّط وهو يمص إبهامه ويبتســـم لدائرة الوجوه المُجَعَّدة ويجزّ خصل الشيب. لم يكن يحب الغناء فحسب، إنما يخترع ألعاباً عجيبة. رجاءً. يعتذر الغريب. كان يركض خلف الأرانب منذ أن تعلّم الركض بعد خطواته الأولى...

رآهـــا في حضـــور دائم بعد خمود النار حركة إثر حركة ولا يعـــرف كـــيف يقول: أمي. وهي تجهل عنه الكثير لأنه لا يعرف كيف يقول: أمي. ولا ترى إخلاصه المُشِع كإخلاص الأبناء عندما يســـألون عن طبخة اليوم، بل على العكس، ترى الجحود المُشِع في مـــرور الســـنوات التي يقضيها محبوساً وهي عنده سواء في النشاط والمـــرض.. ويخمـــد الجمر فتغيب عنه كذكرى وفاة، بلا أحاديث لأنهمـــا يعـــرفان حياة بعضهما البعض كما ينسيان بعضهما لحظة الصـــفاء الـــباردة، نتاج الصداقة، الإبريّة، ما أن تحضر حتى تغيب مطموســـة في الليل باتجاه أفق القمر بعدما لبست صفة القسوة كما تفعل أحياناً عبر صيحة برمة. سمع اصطفاق قماش فخمّن أنها واقفة لكـــي تـــنفُض الـــرماد لكنه لم يبصرها حتى سدت ضوء الباب ثم دخلت.

سمع صوتها الحزين، أنيناً كصوتين مختلفين عبر مانع الذباب.

أولاً: وضَـــعت حـــذاء المطاط تحت إبطها لكنها استدركت فلبســـته ثم انتبهـــت، ثانياً، إلى ثقوب المسامير في الحائط. مربعات مُغـــبرة، أماكن مربعات لصور مخلوعة. صورة محمود في الوسط إلى جانـــب وجـــوه ممثلين حازوا على جائزة الفتنة السينمائية. عادت كمـــا في ذلـــك اليوم باكية محيّرة، وقد تمنى أن تكون هادئة وهو يتـــبعها كـــلما استدارت بسبب الحائط، ثم اختضّت فجأة بعدما


Twitter: @ketab_n

أخفت ذراعيها خلفها. دقيقة صمت. بل دقيقة وقوف لأن الصمت مستمر و: اتبعني.. لكنه انزلق صاعداً السلم حيث شُباك الضحك بعد الهوّة. صَفعَة. صفعَة أخرى و: البَس واتبعني..

مرت خطواتهما بمحاذاة أحطاب التين فتلمسها فاهتزّت بحركة تدل على النوم. تُثار الروائح لحظة لمس التين. روائح التين ــ يا للألم. عجائز. أشجار تعاصر التحولات، تنفُض وتكتسي. عجائز بين الأغصان، رائحة الصُرر والريش المنقوع والحساء وأبخرة القيعان تصعد أحياناً بمستوى التل حيث مكان وقفة الأنوف في الأفنية المحروقة تكشف عن علاقة نحسة، تهتز.. نادراً ما تهتز بفعل الهواء فيجبرهما الانحدار على الركض حتى منتصف طريق الحصى المرصوف بشجيرات الكُبَّر التي تهتز بفضل الحفيف. كان النهيق وحده، ثم النهيق والخوار، النباح والخوار، أصوات أخرى لكنه اكتفى بالإنصات إلى حفيف عباءة هاجر كشيء شبيه بإحساس النهاية. العناصر الفِطرية التي تعلو على الانفعال الأول لرؤية زغب الشارب.

يمد الطريق نفسه إلى هدف سريّ في الهاوية، لأن الهاوية في كل مكان، أحياناً تكون خلف الباذنجان حيث الموضوع الخاص بمجاعة السود ثم يرتفع الطريق مُجبَراً على ظهر تل فلا يحب الالتفات لكنه يتذكر منظر أضواء القرية عند بعد، لاسيما بيت حلاّب على أعلى تل، بنوافذه التي مسح ضوءها شجر دائم الخضرة في الحوش. لحظة اهتزاز التين، يسمع مضخّة الماء تغذي تفرعات السواقي فينداح ماؤها في زغب الحقول وحُطام مزارع القطن.

بحركة تدل على النوم ــ لا يزال هناك، نوافذ قوسيّة والغرف



Twitter: @ketab_n

مظلمة ما عدا غرفته لأنها مرتفعة كمكان دائم رغم تَبدّل الفصول. البيـــت. ذابل في مركز العالم وبعيد عن متناول اللصوص، معزول لأنـــه حُـــرّ في أن يسقط أو يستمر ولكنه مُقيّد بمتانة الزوايا، لحظة اهتزاز التين، يسمع الكلاب المحيطة بمستطيل جلسة الضيوف تنتظر عَظمَـــاً مقذوفاً من فوق كتف، أما القطط فتموء في زنابيل الغلال مُغازلـــة أذنـــاب بعضها، قرقعة قِدور بفعل نساء غاضبات لكثرة ما طَهيّنَ من حواصِل دجاج لم يسمح الوقت بتنظيفها...

سمـــع. أجل، عادت كما في ذلك اليوم. هاجر. باكية محيّرة، غير أنه موحل بمكان ورأي، ليس لأنه يكرهها.. بل لأنه لا يعرف كـــيف يقول: أمي. ويكذب ثم يَظهر لها قاسياً ويعرف أنها تنتظره عـــلى بعد خطوتين فيحس بالارتفاع والهدوء الشبيه باللهب وحَذَر الأراضـــي المفـــتوحة. أبـــداً، لم يحبها بحسم كما تَوَقّعت، وهو.. شـــاهين، يفهـــم وينصرف بينما تخاطبه برجاء: اهض. فلا ينوي الامتناع لكنه لا يُقاوم فحدثَته عن مذكرات ثور خَدَم القرية، وهي القـــادرة: اهض. ثم تحدثَت عن وزّة ـــ المرأة ذات الخوارق. كان ثوراً قهوائياً. ما معنى القهوائي؟.

يسمع الطُرفة الأولى: الثور القهوائي شبيه بالقهوة بحيث يحتاج إلى كـــوخ خاص به لأنه كبير. هل كنت مرتاحاً حقاً؟. وبسرعة: نعـــم كنـــت مرتاحاً حقاً. الثور القهوائي شبيه بالقهوة، بالأحرى شـــبيه بلـــون القهوة التي نضعها في الفنجان ونشربها ولا يمكن أن نضـــع الـــثور في الفنجان ونشربه لأنه كبير جداً. بحيث يحتاج إلى كـــوخ خاص به. واغرورقت عيناها بدمع لم يترل ولم يجف: كنت أتعـــذب طوال هذه المُدّة.. وأنتَ؟ فيقول: أنا؟. كانت قرناه: أنت


Twitter: @ketab_n

لم تـــر قرنـــيه وهو يُقَطّع الحبال في محاولة غاضبة لمناطحة حيطان الكـــوخ. أنا أيضاً. ولكنه لم يفكر بمحادثتها الآن. لماذا؟. ووقَفت فجـــأة أمامه: أريدك.. محتاجة إليك. كان صامتاً وليس حزيناً وإنما يـــريد أن يـــبكي. لا يـــدري أحد لماذا كان يكره منظر الرجال.. فعـــندما مـــرضَ ذات ليلة وتمدد على التبن.. وما أن رأى البيطري الـــذي لـــبس ثوب امرأة حتى انتفض وهاج قافزاً حيطان الزرائب باحـــثاً عـــن بقرة مستعدة للولادة ثم اختفى. اختفى!!. تقول: نعم اخـــتفى. وتقول: أريدكَ محتاجة إليك أريدك.. ولكنها لا تفهمه: ومـــن يســـتطيع فهمك؟. فشعر بالبرد حيث لم يكن الكلام مهماً. اخـــتفى الشبيه بالقهوة فاحتار مُعجبوه بذكاء السارقين، وكيف لم يَـــنطحهم وهـــو الذي ينطح أي شيء ويدس قرنه، هكذا يحب أن يـــدس قـــرنه في أي شـــيء لأنه لم يكن مُلك شخص معين، مُلك القـــرية كـــلها، فقد اشتركت المنازل في شرائه قبل أن يذهب إلى حقـــول الحلفـــاء العالية ودغل جُزُر النهر. حكاية يعرفها شاهين. واستطاعت وزّة أن تتنبأ وتكشف عن المستور. حوّل رأسه، تغوص القـــرية خلـــف خـــيط التلال ويبقى مترل حلاّب يدفع الضوء من نوافذه إلى مَديات الطريق القصيّة.

كان النباح يصعد مع الأرجاء. النقيق في البرك.. وحين عوت الذئاب ابتدأت يقظة الحشرات عندما قال شيخ: إن الشر فكرة وإن الحـــب طبـــيعة. كانـــت وزّة في غرفـــتها تمارس طقوس الانعتاق والتملص.

أحـــس شـــاهين ببرد في الرأس عكس المتفق عليه من أن البرد يـــبدأ بـــالأقدام لحظـــة طلوع قمر المستنقع أمام تلك الساحة التي


Twitter: @ketab_n

يســـمونها مترلاً خاصاً بالغائبة، وثمة غرفة واحدة مرمية في الطرف، وقـــد فوجـــئ حين دفع الباب كيف لم يلتق بهذه الوجوه من قبل: كـــيف لم ألتقِ بهذه الوجوه؟ الحياة مُكرَّسَة في مقهى صغير. يمكن ذلـــك. وجوه حادة التعابير، لواحد وجه الثعلب في قراءة الأطفال. الثعلـــب الشـــاطر ــ الثعلـــب الماكر. مستعارون من صور كتاب القـــراءة. مرضـــى وأقوياء تفوح منهم رائحة الخشب المنقوع لحظة اهـــتزاز شـــجر التين. واحد يجلس في الزاوية ويُدخن دون أن يرفع بصـــره عن دوائر سوداء رسمتها قواعد صحون الشاي. يُدخن دائماً ولا يُدخن أحياناً. ثمة ذباب ونساء، ذباب الخريف، رجال ونساء. رجـــال فَكِهون وذباب طَنّان يقتات على البصاق وبلورات السُكّر الضـــائعة كذكـــرى عجوز تغسل وجهها بالعصير لإزالة التجاعيد وفـــق مقولة ما. شيوخ يحسبون خَرَز المسبحات أو يكرزون بذور عباد الشمس تحت لافتة: البول للحمير.

تدخـــل الوجـــوه القاسية تباعاً بصحبة غبار الطريق في وجود كثـــيف من دخان التبغ، تذكّر مسمار غرفة هاجر، يتدلى منه حزام الوالد الجلدي بتعاطف حُر مع عصا التأديب، ومسمار عام في مترل وزّة يدخـــل رأســـه في تفاصيل المعاطف والعباءات محتفظاً بذكرى روائـــح مختـــلفة: البقول والنيكوتين. وتمتد أمامه أصابع راجفة إلى أصـــابع أخـــرى محـــروقة لتزيل عنها قشور الشفاء ولا تكف عن الحركة والبحث لعلها تعثر بشيء يغطي البقع.

أســـند رأســـه إلى الحـــائط البارد فسمع عبر الملاط زحوف الذكـــريات وأصوات النجدة والدعوة إلى الشاي في اللبن المختبئ.. دبيـــباً أو شـــبيهاً بالاستنساخ، فلجأ إلى تفحص ثور بشري تبرز


Twitter: @ketab_n

خصيتاه بوضوح دافعة مثلث السروال، كان يتكلم بصوت مخدوش ويهـــتز ملاطفاً الأصلع السمين، أو السمين الأصلع نفسه، ثم يأخذ لحظـــة كإجـــازة ليقرأ رد الفعل في الوجوه و.. يبتسم.. يبتسمون مـــبارِكين المـــزاح. يقول: استمر. يضرب كفه بقوة ومرونة على الصلعة: يوه ماذا فعلت؟ يقول أحدهم: استمر. ويضحكون. هناك فتحات خاصة بالضحك. للإنسان فتحات كثيرة إحداها للضحك وكلهم طيبون تحت اللافتة لأجل تمشية الوقت يصفع أحدهم الآخر ثم يضـــحكون معـــاً، وأحياناً يضحكون سويةً. فرق كبير بسبب اختلاف الفتحات.

وفي نسق أيضاً ظهورهم على الحائط يأملون بمجيء أشياء من المجهـــول. في نسق. ينقلون أبصارهم بين خشب السقف ثم يلاقونها عـــند عش سنونو خطَّطَ العمود الرئيسي بفضلاته وغادر بلاد الهند كما تصِف الأغنية.

إن أي شـــخص هنا ينتظر بفارغ الصبر والحزن انفتاح الباب ومجـــيء الصـــفات الأولى للغائبة: الظلمة والشهوة، التنبؤ والغرق، الـــزحوف والاســـتهلال والذبح المفتعل، رمز الذبح تقريباً. كلهم يفكـــرون بالباب ويقتربون من بعضهم بعضاً ويحبون بعضهم، غير أنهـــا لم تَخرج إليهم بعد لأنها تبدل في ضوء الكبريت وجهها. لربما ســـيأتي الحـــظ في هيـــئة شحاذ: صدفة. أو عودة غائب من وراء الأقفال في نفق: السلام عليكم. لكن ثَمّ قلق وراء كل جدار يتوقع الجالس بعد الخروج أن يُباغَت بكلب زاوية ليلية: عـــو.

كـــان الزمن ضائعاً في فراغ المكان، كافياً لكي يستعرض كل منـــتظر أسمـــاء الوجوه العميقة المطعَّمَة بيباب الحصاد. هناك آثار



Twitter: @ketab_n

كلمات ذاوية على الشفاه السفلى المتدلية.. حتى المسافة بين الناظر والعمـــود ـــ إلى عش السنونو ترسم تاريخ شخص على عجل فهو رائع، قوي، متماثل للشفاء بعد سنة أخرى يكتشف، إذن، مجموعة افتراضـــات مخبوءة في حلم. أن يُولَد عارياً فيتطبَّع ثم يُتقِن حدّ الدقة كـــيف يُوضِح ويعتذر كأنما يعبِّر عن أسفه لهذا المجيء. في الحقيقة، إن هي إلا استجابات أولية متتالية كلعبة مضمونة الخسارة وليست أبـــداً مشـــكلة بداية ولا نهاية، ولكن فيما بينهما. كيف أستطيع؟ يقول شاهين. أسئلة تعُود لسؤال واحد أصلاً.

أطلقَ عينيه بمحاذاة الحائط إذ ينتهي البيت الطويل بآخِر زاوية، فأبصـــرَهم ينحنون أمام الضوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة ويتفحصون بعجب رقة جناح حشرة عندما تتلامس رؤوسهم على شكل زَهرة ســـوداء تمـــد فروعها في ظلال سيقانهم المطوية على الحائط. يعد أعمـــدة الســـقف: واحد، اثنان، ثلاثة ـــ صَدعٌ في العمود الرابع، والآخ (...)، هذا الأخ بالذات يبدو مقلوباً بالنسبة للسقف، رأسه إلى الأســـفل حيث يرقص ظِل النار ويزيد الرماد عتمة عينيه. صغار في مـــرحلة الزَغَب يذهبون إلى الزاوية واحداً بعد آخر وينظرون إلى الحـــائط عـــن قـــرب شديد. يَحكّ الطويل ظهره بوتد حبل باب الخشب. يعودون. يذهب أحدهم إلى الزاوية. الطويل يتكلم، ليس الطويـــل بالضـــبط، إنما أطولهم يتكلم وهم يُنصتون. ينحنون أمام الضـــوء المجزء لنافذة غرفة الغائبة وتتلامس رؤوسهم من جديد على شكل زَهرة سوداء.

اســـتفاق شاهين، وهو يستفيق مبكراً أحياناً ـــ نوم الكلاب الحـــذِر. كانـــت يداه مهملَتين على صدره فانتبه لهما: نعم. اسمها


Twitter: @ketab_n

هاجر. تجيد السؤال العادي: كم الساعة؟ بعد خمس دقائق من: كم الساعة؟ السابق. تسأله فينهض: هواء. يقصد أوكسجين، على جذع مبتور أمام الباب يسمع السكون كمِخرَز يدخل الأذن فتسمح له بعينيها.

وشيش كمِخرَز يقطعه هواء بعيد أو نهيق بعيد أو دبيب قوائم قطيع مُتأخرِ العَودة.

خرج أطول الصغار وقَعَد على الجذع يحك عود كبريت فينير المكان. يحك عوداً آخر. يحك آخر فتنبع النار من مكان بعيد، زمان بعيد كبُعد اللجوء والارتواء لأن الطفل يغوص بين الحائط والجذع فلا يلحَظ منه سوى عينيه الطائرتين في فراغ بعد الغروب. تنفس بطيء خائف كلما نزَل أكثر بين الجذع والحائط. تنفس بطيء بطيء.. بط.. يء، يكاد أن ينقطع. بينهما مسافة تكفي لتمييز عمق الظلام ــ حتى وُعورة الهند مع خط مُنعكِس إلى غابات أفريقيا. عمق الظلام في الجمجمة. عيون الزنوج عبر الليل الماطر، ليل خط الاستواء. الرجل الخائف، الرجل صاحب الطبل. المرأة الخائفة ذات القلائد. الضوء البعيد في عينيه. عينا طفل بوذيّ بموازاة خط إلى عينيّ طفل من مجتمع سموا.....

..... سموا..... سموا.....

لا تقتصر النار في عُلب الكبريت بل تُختزَن أحياناً في عيون صفراء لنمور تمشي بين الأكواخ. يقول إنه بحاجة إلى الحُب. هكذا يقول: إنني بحاجة إلى الحُب. وهو يعني أنه بحاجة إلى عينيّ نمر لكي يرى مذلّته في شكل سُداسي، كامنة ــ وهو يقصد: خامدة. في هجران الحميميّة العائلية كحفيف عباءة هاجر. أصناف أخرى



Twitter: @ketab_n

يمكنها الإنبات في هواء البرك. تلك هي البرك. هواء من هذا النوع تقريباً، حقيقة كل ما يثير رائحة الإنسان... حتى احتكاك العُود الأخير. العيون السداسية الصفراء للفهود السوداء، النمور الجميلة الجائعة. ضوء يخرج من ثقبيّ الجمجمة. كان محتاجاً إلى هذا الإحصاء لأنه محتاج إلى قسوة الضائع في البراري بسبب أرنب مُبَقّع. وكان يلجأ إلى النوم تقريباً حين قَرَعَ خُفيّه على سطح الكرة الأرضية. وتبقى هاجر بجوار الباب مستعدة لفتحه في أية لحظة بعد أن تفرُش الجلباب على المخدة وتلبَس قلادة سِن الذئب وتضع القدر في الحمّام وتغرز عود بخور في شق الحائط. كان يلجأ إلى النوم لكي يسمع صوت شفط الخَد حتى غرفته العالية ثم صوت خشب البندقية مع سؤال حول المستوى الدراسي. يسمعه منهاراً على المخدة بسبب تعب الصيد متحدثاً عن أوكار الأرانب، وهاجر تقول:

" أنتَ تحب الباذنجان، شرائح أم دوا..." فلا يدعها تكمل لأنه يصعّد كلمة " دوائر " على شكل غناء: دوائر النعمان الفائقة في الذوق.

وهي تعرف أنه لا يصيد لأجل شيّ اللحم وإنما لمجرد متعة الصيد. مَلول وحَساس. صبور في البراري. سريع العَطَب في البيت..

أصوات مختلفة لأشياء مسحوبة أو مرميّة، وكلمات ضائعة بين الأصوات هابطة عن قُدرَة السماع لأنها همسات، باستثناء تلك التي يصرخها فتهز الرفوف وتفلت إلى الطقس عبر الشبابيك القوسيّة فيسمعها المارون عجباً أو اغتباطاً أو شتيمة لا تعني


Twitter: @ketab_n

الـــتجريح... ويظـــل يـــتحدث حتى منتصف الليل ويخفت صوته تدريجـــياً في أذن الموشـــك على النوم، يخفت ويخفت، ثم ينتبه من جديد:" هنا لندن، نحييكُم ونُقدم لكم أغنية حُبك نار...".

بعد أن ذاب الصبيّ بين الجذع والحائط انقطَع الاهتزاز والحك فهجَمَت الظلمة. تلَمَّس المكان: هُوّة. بمحاذاة الجذع. هُوّة بلا قرار فأين الحائط؟. بمجرد إشاعة مقنعة حول إحساس الامتداد. بمجرد: أين الصـــبيّ؟.. عيناه، أين؟ عيناه الطائرتان في ثقب منطبق على الطريق القـــديم لقوافـــل الـــتوابل والحرير والورق الصيني. عيناه، ثقب في الضوء... أين؟.

دخـــل القاعة بعد الذوبان. القاعة. المنزل. المقهى، أي شيء تقريـــباً ـــ بيت الغائبة وقد حضرت. مفاجأة، ممتلئة بيضاء موشُومَة الذقـــن موشُومَة الأصابع، وموشُومَة في كل جزء ظاهر وكل جزء فخـــي تحـــت الثياب، لأن سلسلة الخطوط الزرقاء لن تكون مريحة للـــناظر لو انتهت عند حد الثوب الأسفل، بل تدب كحيوان أزرق بعشـــرات الأرجل إلى بقعة لقاء حميم في منتصف الجسم. أنهار من الـــرموز تنـــبع مـــن سر الحياة في منتصف الأنثى. منتصف الجسم تقريباً. عينان غائبتان كعيني القادم بعد تجربة الموت. وهي قوية لأنها تحمـــل ثقـــل الحصى المُثَقَّب بمثابة قلادة تتصافق مع حركة الساقين باتجاه الشيخ القائل أن الشَر فكرة وأن...

الشـــوك نبتَ في ذقنها بدل الشَعر. وانفلت اللولب. ففي كل مـــرة يحاول الإمساك بلفظة تختصر الحياة، كلمة يقولها فلا يبقى سر بعد ذلك، ولكنها تقفز إلى مكان آخر كلما حاول جمعها.

لقـــد كَســـرَهَا الأيام المليئة ببكتريا الزيف البشري وهي هذا



Twitter: @ketab_n

الـــنقاء الملوَّث طوال الساعات المصروفة في النظر إلى نبض الأشياء الميـــتة وتقول: لم أنسَ، ولكنني كنت غير قادرة على المجيء أو على إيفـــاء ديونكـــم، مكسورة أيضاً بلذة اعترافها الأخير بعدم القدرة على إيفاء الدَين كله، ولا حتى نصفه. وهي ترى الرجال يصعدون عـــلى ســـلم عمودي نحو الهواء وترى النساء يصفقن لهم، وبذلك اكتسبَت تجربة في قراءة النوايا بما يفوق رصيد قرن من الخيبة. على أي حال، يبدو في بواطن اعترافها بأنها ليست مهزومة تقريباً، وإنما مُتعَـــبَة تقريباً. ليست خائنة بل مسكونة بمرض الحواس أحياناً، مع ذلـــك فالأمور لا تبدو كما هي عليه لأنها تُرى بأعيُن متباينة الحِدّة. لا تســـتطيع لفظ بعض الحروف، بعض حروف العلة وليس بعض الحـــروف الصـــحيحة أبـــداً أبـــداً، متحدثة عن قدرتها في إيقاف السيارات على عجلاتها الخلفية ورؤية رداء الجد بإشارة واحدة من عصـــاها. تُـــوزع الحلوى على المارين وتُبعثِر زبائن سوق الهرَج في المدينة. ومر زمن طويل ــ طويل تقريباً، مأخوذة بأحاديث مُبهَمَة، لم يُـــدرك الحاضـــرون معنى لوجودهم هناك ممن يحمل منهم شرف الالتصـــاق، أو قدرة الالتصاق عبر غفوة تمتد من مراهقة امرأة حتى ســـن اليأس. زمن كافٍ لإدراك أن ما فعلوه وما كانوا يفعلونه بلا معنى، وأن حضورهم شبيه بغسل الأحجار قبل رميها في النهر.

وبقَـــدر مـــا كـــان الأمر بعيداً عن شاهين فإنه مُلزَم بتصعيد حـــركة التنفس مخافة الضرب واللعن حد الإغماء إذا ما تجرأ بطلب المزيد من الأوكسجين.

في الحقـــيقة، إن مـــا يُعَـــد شخصياً قد يعني الآخرين أحياناً بالفضـــول أو بغـــير الفضول، لذلك لم يتمكن أحد من منع رغبة



Twitter: @ketab_n

الارتجـــاف كاســـتحالة مـــنع رغبة الثرثرة، باستثناء شاهين. هو. شاهين. وليس سواه أبداً أبداً. والحال مع هاجر معادٍ لمفاهيم البيت المعـــروف وقد انتصبت بموازاة العمود المُخطَّط بفضلات السنونو، وحـــيدة مـــأخوذة بـــنداء، تفـــك جدائـــلها عُقدَة عُقدة وتُغيّب الحاضـــرين... بينما انسحب إلى الجذع مُخفياً وجهه بين كفيه ـــ إلى الظـــلام. دامغـــاً بمهل الرموز التي تعلو على التجربة. تتجاوزه. تلـــك الهابطة من الأسلاف الطيبين الصحروايين الزُهاد المعصومين عن الخطأ. فلو كان الحادث مجرد صدفة، لأمكنه أن يتخيل ورأسه بين يديه وهو يسمع حفيف السيارات وليس حفيف الأشجار كما هـــو الحال لدى الغائبة التي حَضرَت، ضوء الكبريت وليس الضوء الكبريتي. إنها الفوضى أحياناً. يتخيل ورأسه بين يديه كما هو الحال بالنســـبة له: تحوّل الحجر إلى كعك، إذا رغب الحجر. إنها الفوضى دائماً. فوضى داخل فوضى متبوعة بفوضى، وأنه لابد من تبرير لهذا الضغط المُسنَّن على سطح الرأس، هواية العالم الأزلية. تبرير حركة الأشياء.

دفـــع ذراعـــه إلى الخارج، كل شيء خارج، الحائط والظلام والجـــذع وعيدان تنظيف الأسنان، كل شيء خارج. محاولة لرمي الأحـــداث في مخزن التأجيل. هي رغبة، أن يقبل بما يرى، إنها رغبة نقـــل القدمين.. كنت تخصه، هو شاهين وليس غيره أبداً لأنها تمر خارجـــة مـــن بدنـــه. حتماً سيعرف شيئاً، سيحبّ شيئاً. يقول: سأعرف شيئاً وأحبه.

يقـــين مبدأ الملاحظة الذي لا يكذب حين يراقب: أنا شاهين، أراقب نفسي تطول وتغيّر عاداتها.



Twitter: @ketab_n

نســـي أنـــه سيُفاجَأ بارتفاع الأرض عندما صعَّدَت الضواري عواءها، وشَعر في نفس الوقت بحاجة لتحريك القدمين بلا انقطاع، مصـــغياً إلى الـــبُقَع المعتمة في سطح القمر وشَمشَمة الحيوانات في أخـــاديد ما بين التلال. الحفيف السري، مرة أخرى، حفيف ثياب النســـاء. نساء بلا شَك، يعبُرنَ أفنية المنازل فوق أحجار مرصوفة، يَعبُرنَ بحذر أحياناً حتى لا يطأن الأرض فتنكسر أصابعهن.

الـــتماعات فوريّة، كل ما يخص رغبته في رفس عُلبَة مُجَعَّدَة. يبحـــث عـــن الـــتماعات العُلَب في ضوء القمر. التماعات تقاطع قضـــبان الشبابيك على سفوح التلال حيث بعض مربعات الضوء المُـــبَقَّعَة بظـــلال أواني الشاي. المساحة أقل بناعم الهواء. ظِل فوق ظِـــل. جُزُر ومزهريات ومسامير وأنوف في الظِل. ربما نسي القلب واجـــبه مـــبهوراً أمام الحياكة المُتقَنَة، القمر ومساقط الظلال. ضوء وظِـــل، بينما تذبل البيوت في مركز الكرة الأرضية فتذهَب الصور ويـــأتي الجـــوع أحياناً. تأتي قَنازع القَش فيُبصِر بيت حلاّب على أعـــلى الـــتل ويسمَع مضخة الماء تُغذي تفرعات السواقي المُنعطِفة بفضـــل المـــنحدرات لكي يَنداح ماؤها في زغب حطام الحقول... عواء.

سمـــعَ صراخاً في أقصى القرية فخَفَّت قدماه، ثم تباطَأتا. هذان القدمان بالتحديد، تجران شخصاً إلى جهة الصوت. ثمة أقدام أخرى تجُر ظِلال أشخاص إلى جهة الصراخ.

الـــذي في أقصـــى القرية. جلبَة. ضَجَّة، حياة الآخرين. جاء رجـــل مسرعاً وتوقف بالقرب منه على أمل أن يسأله شاهين: ما الـــذي يحدث هناك؟. فلم يجبه. ضجّة. جلبة. لا مناص. أناس يفور


Twitter: @ketab_n

فـــيهم الدم، وهو أيضاً يبحث عن الصراخ لكن الأمر لا يعنيه لأنه مليء بالغبار، مليء وملفوف. الليل في جانب العالم. وحده في هذا العالم، مع ذلك فهو وحيد تقريباً. غير متأكد بأنه سمع صراخاً وأن رجـــلاً ما، ظِل رجل، سأله: ما الذي يحدث هناك؟. يأتيه الصراخ فيشـــعر بالأحشاء، مجرد أحشاء من ألياف دافئة. لحم شفاف ودم أحمـــر، يضع كفه على جبينه، يقول: ساخِن. تتزلق الكف فتمتلئ قبضـــته بأنف فيقول: أنفي، ربما كان أنفي. يستمر المشي ويرتفع الصـــراخ كشيء إلى الأعلى لا كصوت يزداد ويصير بعيداً جداً... هناك.

يضـــحك في داخله ثم يفتح عينه فيُفاجَأ بضوء النافذة، مبهوراً بمـــربع مـــنير عبر الزقاق. أربعة رجال وامرأتان، يضحكون بعيون دامعـــة بـــين رِفعَة الأثاث، بلا أية علامة في حائط الجص باستثناء فضلات الحمَام على حافة الشُباك السفلى، تلك التي تَذبَح صورهم من المنتصف، ثم أنبوب تصريف مياه المطر يبدأ من الأساس.

ينحـــنون بحـــركة واحـــدة كصلاة إلى الأسفل فتنبثق عِبارة واضـــحة بعدما يملأون الهواء بأماكنهم؛" ذكرى المُعَذَّب صابر يوم الأربعـــاء بعد المطر ". يضحكون في مربع الضوء المُحَدَّد بمربع ظلام الهاويـــة ذي الأفقين المليئين بالحَذَر، حافة الحوض أو المائدة أو أي شيء يجلب الثقة بلا اكتفاء ولا خسارة لأنه ينبثق كهدية مفاجأة: ضـــوء. وتقوم المرأة التي في أقصى اليمين وتدور حول نفسها ثم لا تقـــوى عـــلى الاحتمال فتُسند رأسها فوق كلمة " صابر " ناطحة الحـــائط وهـــي تهتز بحركة تدل على الذبح حتى النهاية.. وتنتهي فعـــلاً، مترلقة منهارة نحو الأرض، إذا كان ثمة أرض أصلاً، في حين



Twitter: @ketab_n

يـــبقى صدى ضحكتها صاعداً من محل السقوط نحو مكان الخفقة الأخـــيرة لقميصها المهتز ذي البقع الحمراء، وقد سحبت بأصابعها حـــروف " صـــابر " الفحمـــيّة فتبعـــثر الاسم نهائياً. وتوقفوا عن الضـــحك فجأة ناظرين إلى المرأة الثانية، وهي أصغر سناً إذا لم تخنه مسألة القرب والبعد عن مصدر الضوء، بعشر سنين أو أقل، إلا أنها أقـــل فتـــنة من الأولى المترلقة لذا فقد أصلَحت الفارق بالمساحيق وأخـــذت تفك شريطاً أحمر عن عَقصة شَعرها ثم ترتبه من جديد. انخفـــض صوتهم تدريجياً وتحوّل إلى كلام هامس فقام الرجل الأسمر الـــبدين مـــن مكانـــه، وهو بدين لأن بطنه كبيرة، وهو أيضاً أحد الـــرجال تقريباً. قعَد لصق المرأة بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشـــياء من مكان إلى مكان قريب. فأين المرأة الأخرى؟ إنه يَنقُر. أين المرأة التي انزلَقَت؟. يَنقُر فمها ثم يمسح فمه.

يَـــنقُر عـــنقها فتمسح عنقها. ينحني قليلاً فتظهر يده ماسكة بكُـــرة صغيرة حمراء. يضع الكُرة الصغيرة الحمراء في فمه، ويلوكها نافخاً خده المعاكس لجهة المرأة وهي تفعل مثله، أي إنها تضع كُرة صغيرة حمراء نافخة خدها المعاكس له...

تنبُت المرأة الأولى في منتصف النافذة وتدقق في الشُباك المقابل ــ شُـــباك شـــاهين وهو يقول: شُباكي. ثم ينسحب قليلاً مفكراً بكيفـــية ظهورهـــا، فأما أنها زحفت أو تدحرجت من أقصى حتى مقدمـــة الغرفة. لكنها لم تُطِل التحديق فقد أشار إليها أحدهم أن تقـــترب ليـــبدأ الهرج بصوت واضح هذه المرة. حديث عن غطاء الســـيارة وضـــرورة وجود مُلصَق لفتاة جميلة عند مرآة السائق. ثم تحدثوا عن عمق حفرة الأساس وأنابيب الماء ومزهرية الخشب ذات


Twitter: @ketab_n

الزهور المطاطية. وعن الدهشة المحتملة في الغد حول مسألة الحصول عـــلى ملاعق وسكاكين علامة الجَمَل. انقطع الحديث بعدما تحوّل إلى همس، وانحنوا إلى الأسفل مجدداً ثم رَفعوا أعناقهم بحركة واحدة كشرب الطيور، انفجر الضحك. عيون دامعة وحركات استنجاد، أحدهـــم يتشبث بالآخر حتى لا يسقط، أو يتمسك به. نشيد ست فتحات. ضحك ضحك حك حك. يضحكون ضحكاً. ضاحكون في الضـــحك... ويضـــحك شاهين باضطراب ولكنه ينسحب إلى الزاوية ماداً يده، بلا تفكير، إلى طرف الرداء، ودون قرار أيضاً بدأ يهتز بعذاب نادر في محاولة يائسة لتثبيت صورة ما، أو واقعة تتكون إثر فك أزرار الصدر أولاً فتقوَّس بأقصى ما يستطيع لكي لا تذهب الصـــورة، مُلصقاً خده ببرودة الجص... لكن الضحك المقابل بدّد الأوضـــاع كلها... وأخيراً أنقذه الانزلاق والوقوع فلم يحاول مرة ثانية لأنه يعرف أن لا فائدة من المحاولة.

سَـــمع في الأســـفل صرير الباب، وبقفزة واحدة اندَس تحت اللحاف وبدأ قلبه يَنقُر ـــ الآن. ينقُر بأمر من وقع خطوات السلم. الســـلم يصعَد وليس الخطوات أبداً. عضّة ارتفاع الخفقات تتلازم مـــع احتكاك الخُف النسائي في لحظة قصيرة أكيدة الوقوع عسيرة النســـيان الذي يأتي أحياناً بعد الاهتزاز كحفر في الذاكرة. مطلقة حتى وقت ارتسام الباب على الحائط بفعل ضوء الفانوس، ثم تصير الغـــرفة مضيئة مليئة بالباب. الباب هو الغرفة، والغرفة هي الباب. بـــاب من الضوء. شاهين يا ولَدي لماذا تركتني وهَرَبت؟. تقول: يا ولَـــدي. وهي تعني ابنها، ثم صرخة يعرفها: لماذا هَرَبت؟ كلّمني.. انهض أنت. تضغط عليه بالنوم فوقه قاصدة التهديد بالخنق، غير أنها


Twitter: @ketab_n

تـــدور بعـــد ذلـــك قائلة: لو لم أكن أمك لقلتُ بأنكَ لست ابن أبـــيك.. يوه اهض حبيبي.. أتدري؟ سأقول لك. تقول له: إن وزّة أخبرتني عن أبيك، قالت إنه يتنفّس لحد الآن غير أنه لن يجيء الآن، لقـــد قـــاده الأرنب المُبَقّع إلى أرض مليئة بالأرانب المُبَقَّعَة و.. غداً سنبحث عنه أنا و.. أنت. تقول هاجر: غداً، أنا وأنت. شاهين هل أنـــت نـــائم؟ حسناً، بالنسبة لي لن أستطيع النوم، هذه الليلة على الأقل....

ونَزَل الخف ببطء على السلم متوافقاً وتقلُّص الباب حتى تحوّل إلى خـــط مضيء فتلاشى. يقول شاهين: تلاشى. ويدفع الغطاء فلا يَـــرى نافذة مقابلة لكن صدى ضحكاتهم. صدى الضحكات كان يأتـــيه عبر تواريخ بعيدة: هناك كانت امرأتان وأربعة رجال. ست فـــتحات ضـــاحكة.. والآن ذهـــب الجميع إلى النوم بعدما أتعَبهم الاهتزاز...

وبقـــي الزيزان يُصَعّد غناءه في ممرات الشوك، وأصوات عواء ملـــتاع لضـــواري جائعـــة. يفكر بشيء واحد تقريباً، واقفاً حتى أطـــراف الفجـــر بعدما فشل في قراءة الساعة بسبب الظلام حيث يســـمع دقاتها كذكرى مُهمَلَة ساقطة عن ارتفاعات مُظللة اعتبرها الآخـــرون غروراً في لحظات السأم إذا ما قيست الأمور من وجهة نظـــر التنكيل بالذات لأنه لا يجد شيئاً يدفعه إلى فعل ما يفعل. لا شيء. ليس لأجل شيء أبداً وليس لأجل نفسه تقريباً. لا شيء. لن يجـــد شبيهاً له، يقول: لن أجد. ويعرف قسوة هذه الكلمة لذا فإن الغـــرور يبدأ من تلك اللحظة التي تُذكره بالأماسي الطيّبة المسبوقة بصـــباحات نديـــة أيام العَترات الثلاث في المُنحَدَر. مهنة الإنسان



Twitter: @ketab_n

الأولى من أصناف المهن الحُرّة. سحر النُعوت والنداءات المُبهَمَة المُوجّهَة إلى القُطعان بقصد التحكّم: " ترش ترش، تعني: تعالي يا نَعجة. هسّو: اذهبي عني. ترد هؤهؤهؤ: اشربي الماء. هخ هخ: لِطَرد العثرات... إلخ" لذا أيضاً فالعلاج من هذه البُقع هو الضحك وليس الكلام أبداً أبداً. الضحك دائماً. الضحك المرتفع لاستخراج زوايا الانكسار إلى الأشياء بدليل التجائه إلى مسند الشُباك بحجة الشوق للفضاء أو الصمت بحجة التفكير بموضوع خاص.. واستمر هذا الأمر حتى وقت تبدّل أحاسيسه الحالية حول الأوراق اليابسة التي تطرحها أشجار الخريف بمصاف الرعشة الآلية ــ لحظة القيام لقراءة الساعة.

نظر إلى الليل، دبيب الفضّة الشفافة على السفوح، وفي الأفق ثمة بَياض مُمَزّق، غير أنه لا يملك القوة الكافية، تقريباً، لقهر خجله من جرّاء النظر إلى الخارج باعتباره مرتفعاً عن الخريف.. وحتى لحظة إقران تلك الأوراق بتخيّل النحاس في امتداد لا حدّ له. امتداد أكيد لا حدّ له. فالعلاج من تلك البُقع هو الضحك. الضحك دائماً وأبداً. إذ لا يمكنه نسب النتائج إلى ترتيب معيّن في حياته لأنه لم يضحك ضحكة حقيقية ولو لمرة واحدة بعد خديعة الختان، مع أنه يميل إلى ذلك أحياناً فيقول: لا بأس. لا بأس. وقد تَمَثّل كثيراً بالطفولة، لأن الطفولة ضباب. فكّر ذات يوم بأنه مُختلف لأنه يحس بألم المسمار؛ المطرقة من طَرَف وصعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. أو يجب أن يختلف لأنه يحس أحياناً بألم المسمار. فلا يمكن إحضار ذكرى بعيدة بدون تغطيتها بالضباب ولفها بالمفردات المُبهَمَة.. ونداءات مستمرة حتى لحظات الفجر الأولى: تَرِد


Twitter: @ketab_n

هؤهؤهـــؤ. يســـمع صـــراخ الليل المُنسحب. خديعة الختان وهي الجديرة بالتذكُّر دائماً، يوم جاء الأب مائلاً مع السفح فاستطاع أن يميّز البهجة في عينيه رغم بعد المسافة بينهما، ولوّح لـــه بالكُوفية: "اترك عتراتك يا بُني.. تعال يا شاهين.".

وتـــردد في الـــبدء لأن وقت العودة لم يحن بعد مُقاساً بالظل تحـــت القدمين، لكن الأب كان جاداً فلن يعاقبه إذا ما عاد مبكراً هـــذه المرة. واحتضنه هذه المرة. تلك المرة البعيدة. وأَحَبه هذه المرة لأنهـــم يوزعـــون عُلباً ملونة مليئة بحلوى ملونة في بيت عبد المجيد. حيث كانت الزغاريد تَخرج من أنابيب البنادق، أما النساء فيُطلقن الرصـــاص من أفواههن. بهجة. واقفون. ألوان. روائح مُحَضَّرَة من أنـــدر الأعشاب.. وصراخ أطفال، فلن يستطيع الهرب لأنه محمول بذراعين قويين. عندها فقط، علم أن لا جدوى من الرفس ـــ لأنهم سَـــقوه بالقوة، في مرة سابقة، حليب أنثى الحمار لأجل الشفاء من السُعال الديكي، فاحتاج لرائحة السُوس. أحياناً ذلك السُوس الذي يســـتدعي البكاء... آه السُوس!. الرعي المتواصل بلا عودة. لكنهم أجلســـوه أخيراً مُنفَرِج الساقين تحت عمامة صفراء وكلمات تُركية مُـــبهَمة ومـــنخرين كثقبيّ فأر مليئتين بالدّغل فقال: " هَخ هَخ " وأفـــرجوا ساقيه أكثر، وقال التركي: " ما شاء الله ماش الله... بال عـــلى المخـــدة ". وانـــتهى كل شيء. ثم حُمِل ركضاً في الألم أو ركضـــاً في السِـــر بـــين مئات العيون التي استطالت حتى الآذان.. وهكـــذا أصـــبح بدون ذلك الشيء الذي كان بين الساقين لأنهم استبدلوه بلفافة بيضاء ثم بِكُرَة حمراء فيما بعد، ثم بشيء جديد ذي قُبعة ناعمة، لكي يرش البول مباشرة. البول يتدفق من الثقب، على



Twitter: @ketab_n

حدّ زعم الصياد.

بقي والزيزان يُصَعّد غناءه في ممرات الشوك، وأخذت الأشياء بالغياب مع القمر، أو بتهشم القمر لأن الظل انتفَخ، ولأنه سقط مع دَقّة حاسمة من دقات الساعة ثم استيقظ رأساً وفق عادة النهوض قبل الشمس ليرى الطيور تُمزق فضّة الفجر بأصواتها رابطة بعض الغيوم بخط أسود بَليل ومُتقطّع. فَتَح النافذة. على اعتبار أن فتح النافذة، بل مجرد فتحها كان يُقرِّب إليه سماء زقورات الآثار: هاهي قريبة، ها هي. ويدخل فجر الحقول في غرفته فيرتد؛ منشفة. ساعة حائط. رفوف القواقع ــ ملابس الطفولة. ويداه في الظِل مفتوحتان للإمساك بشيء ما...

ومنذ عشرين عاماً تَصعَد هاجر إليه: ألا تفطر؟.

فيترل إلى اللبَن الرائب والشاي ويسمع نشرات الأخبار الأولى: " زلازِل أمريكا اللاتينية. فيضانات الهند. انقلابات. عمليات الفدائيين العرب. مجاعات السود. محادثات نزع السلاح النووي. مخدرات. تجسس. جلسات مجلس الأمن ــ أما آخر الأخبار فكانت عن الجمعيات الخيرية للفاتيكان، وفضائح جائزة نوبل...". بعد احتباس طويل عن رؤية الفصول وانتهاء القَناعات وبعد أن صار رضاه نادراً، قرر أن ينقُر الغلاف مثل فَرخ في بيضة ويخرُج إلى الناس الذين اعتادوا غطساته الطويلة، وصاروا يعيدون جميع الرسائل إلى صندوق البريد، تلك القادمة من أصدقاء هواة التعارُف والمراسلة أيام الدراسة الابتدائية، فيقولون: شاهين محمود؟! لا نعرف هذا الاسم. ولكنه ظَل وفياً لعوّاد حتى نيسان الماضي وقت ابتداء غطسته الأخيرة. ذلك لأنهما متشابهان فقط.. بخاصية



Twitter: @ketab_n

نُـــدرة الكلام، وهي إحدى الخصائص. فيما عدا ذلك فلا يلتقيان في شـــيء غـــير تلـــك الملاحظة التي لا يعرفها أحدهما عن الآخر؛ ضخامة لوامِس الحِس.

خَـــرج بخطوات مربوطة مُترِلاً عينيه مع التَل حتى استقر بصَره بنهاية قَطِفَة الطحالب عند صخور البئر المُحَزَّزَة بالحَبل. ومن أقصى الأخـــدود لمح أيدي النساء تشير إلى شَعره المُبعثَر وعَقفته في السير: شـــاهين!! شاهين!! شاهين!!. فتوارى بسرعة خلف القُن منحدراً إلى جـــنوب القـــرية حيث وادي السِدرَة، ساحة الطفولة، مدرسة الشتائم. الأمنيات برؤية منام الشمس خلف الجبل. آثار الدعلج في الأخـــاديد. رفوف طيور الشقراق ومَهاوي القُبرات بين الأشواك، وشـــيش الغـــروب في المُـــنخفَض؛ سُرّة أنثى كبيرة مُمَدَّدَة مُنَصَّفَة بالـــنهر، والقِمـــم أثداء تُرضِع الشمس. لحظات استطالة الظِل إلى درجة الالتفاف حول التَل حتى مجيء المُزعِج. الليل هو المُزعِج. ليس مزعجاً بالضبط. طويل تقريباً، بحيث لا يمكن تخيّل الوادي في الليل، أو مجرد تذكره لأنه ضاج بحيوانات غريبة وأشباح ومسوخ لاسيما أنـــه محـــيط بتَل المقبرة من كل الجهات. كانت الأصوات مجموعة حتوف تهدد المنازل. غارات الضواري على القطعان، الثعالب على الدجـــاج والبط، الأرانب على البقول، الغرير على القبور، الأشباح على الخائفين. مع ذلك، كان بعض الشجعان والحمقى يتبارون في إمكانية اجتياز الوادي وغرز وَتَد مُؤشر في المقبرة.

وعـــند حلـــول الصـــباح يكون كل شيء قد ذهب باستثناء الروث وآثار المخالب على الطين في كل بقعة من مزارع القطن.

ثمـــة سِدرة وحيدة في قعر المكان الجدب، وقد أعطَت للوادي



Twitter: @ketab_n

شَـــرف التسمية عن جَدارَة في المكوث والتحَمُّل منذ أزمان الجوع في عهـــد الجماعـــات الأولى؛ مهـــرِّبون، صقّارون، سَحَرة، قُطاع طُـــرق، تُجار أسلحة، ثُوار.. وهي هكذا، لحد الآن تظلل المشاريع الأولى لأحلام بناء الأُسَر في أربُع الأطفال الرعاة من كلا الجنسين، لذلـــك فقـــد نظر إليها بجلال وضراعة. كان يمر بها يومياً ويحسبها بعـــيدة لأن الناظر إليها من كتف الوادي، مهما كان الناظر، يراها صـــغيرة كأشواك قُنفُذ. أيام التلازُم الأول، حاجَة الآدميّ إلى أخيه وحاجَـــته إلى عـــواد الولوع أبداً بالطين، بحيث صار يَعرف، بمرور الأيـــام عـــن طريق حاسة الشم، إن كانت الأواني ستَنفَطِر، أو أن أرجُل الحمير ستسقُط بعد جفاف الطين. الحمير الطينية وليس حمير النهـــيق حتماً. كانت السدرَة بمثابة مخزَن لتلك الاختراعات، لأنها ســـتُحَطَّم مـــن قِـــبَل الرجل التقي على اعتبار أنها أصنام، فيضطر الصغيران ـــ عواد وشاهين ـــ إلى الحلم بدخول سلك الشُرطة.

ثمـــة، أيضـــاً، تلك الدروب الرفيعة المرسومة بحوافر القطعان كحـــبال عظيمة تشد السدرة إلى جهات الوادي فتذهب محاولات السيول عبثاً في تعرية جذورها.

وفي تفاصـــيل مُفـــزعة كأعناق ملويّة يمتلئ الوادي بترسبات تفضح وهماً قديماً، كاشفة أُكذوبة الإتساع السحري في زمن غابر. هـــل كان الوادي واسعاً وعميقاً بحق؟. يسأل شاهين. ولكنه وصل ســـن الـــيأس. الوادي وليس شاهين أبداً أبداً. نقول الوادي ونعني الأنـــثى لأنهـــا منخفَض. نعني الوادي وليس الأنثى أبداً. وصل سن الـــيأس بعـــد هجـــران الضواري والأشباح، ثمة ما يُخيف: ثقوب القـــوارِض في جـــروف قديمة وقد هوت عظام الموتى بفعل السيل،



Twitter: @ketab_n

مجرد مسحوق أصفر غير مثير للبكتريا.

وكَـفّ كل كائن عن الهجوم بعد سنوات الجوع لأن المُسوخ أكلت بعضها، ورحل الضعيف الذي كان قوياً إلى ظِلال قطنية في أعـالي الجـبال. كـان آخر الضعفاء في الحلقة الضائعة من خيط السـلالة. وكلما حثه الحنين إلى القوة زار تلك الهُوّة زيارة عاجلة وأخـذ يعوي ويعوي ويعوي.. حتى إذا أجابته الجروف امتلأ بحب الـتكرار فبحث دون جدوى عن شبيه يسمونه الأنثى. عوّاد ملتاع مـثل خسـارة نهائية. لا شيء يشبه شيئاً. يقول. فأين الضواري؟ وأين الذي كان ساحراً كَرَفّة فَرَح تلقائي؟. لقد كَفّت الأرض عن تجـربة النشاط وأمست التلال والصخور والأشواك والقُبرات مجرد تـلال وصـخور وأشواك وقُبرات. وسار حيث يفتح الوادي فمه لَـيأكل حُطـام مـزارع القطن. اتساع مضطرد حتى حدود النهر بمحاذاة الجبل. حوض خصب يغري تُجار القطن لبناء شُرَف عالية تتـيح لهـم رؤية الحزام الأخضر منذ الوهلة الأولى، يستمعون إلى صـوت تَفَـتُّق الجوز عن دراهم لامعة في أماسي القمر بعد الكأس الثالـث. هناك وجد شاهين صديقه القديم فلم يعرفه للوهلة الأولى لأنـه كـان يعضّ سنونوة سوداء، فقيل له: ليست سنونوة سوداء وإنمـا شارباً أسود. آشاهين!! شاهين صديقي.. لقد جعلك النوم أصـفر أصـفر. وأنـت أصفر كالمغول. ويضحك لأنه اكتشف الضـحك النابع من مربع الشُباك المضيء و: اقعد يا صديقي، أرى أنـك لم تكن تحب الشاي إن لم تَتَبدَّل، لقد فعلتُ الكثير بغيابك، بعـض الطمـوح، رسـوم أخيرة لأوضاع شَرار في حالتيّ الجري والوثـوب لأنني لا أحب امتداد البُوز مع اليدين الأماميتين. شَرار



Twitter: @ketab_n

اســـم كلب عزيز من أصل هجين لذا فهو متهور بعض الشيء لأنه حائر بين العوامل الوراثية. يقول عواد: اسمح لي بإعطائك سيجارة. المشـــاكل الـــتي تعـــرفها مع الوالد لم تنته لكنها تخمد تحت خدعة التَجَمّع ثم الانفجار في أوقات متباعدة.

كـــان الفضـــاء مبتدئاً من الجُرف بمثابة شُرفة لاصطياد البرق الفـــني. وبالنســـبة لعواد فكل شيء محسوب بالتفاصيل تقريباً حتى ملابـــس الشـــغل المُزَيَّنة ببعض بُقع الأصباغ، انتهاءً بتفسير اللقاء الحمـــيم الـــذي لو كان بين عواد و... عواد نفسه لاعتبرَه تاريخياً قياســـاً إلى شخص مُنفَعِل يواجه حَجراً عزيزاً. وشاهين: اسم هذا الحَجَـــر. مرحباً. يقول. مرحباً مرة أخرى بمثل هذا الشوق. مرحباً دائماً.

كـــان عـــواد منشـــغلاً طوال الفترة السابقة بعلاقة غريبة مع الكلب شَرار. يقول: اسمه شرار، يحب لحم البط ولا يحب ثمر التين. رسَمَـــه في أوضاع الجري والوثوب واستبدل عينيه بزراريّ معطف مَطري.

جهـــاد متواصـــل بـــين فترات مجيء ابنة القَطّان لكي تمتدح محاولاتـــه بإعجـــاب خفي وتُحجّم عينيها حسب الموقف كطريقة للنقد الصامت وهي مهتمة بحياته لتؤكد اختلافها عن النساء وذلك بالنفور من أشغال الإبرة وجلسات نفش صوف الوسائد، حتى أدق التفاصـــيل. تعـــرف أن شراراً مولود من كلبة عارف الغَدّارَة التي تعـــضّ الأطفال كلما اقتربوا منها وقد عضَّت مؤخرة زهرة فاغتنم عـــواد فرصـــة وجودها في المغارة، إذ أغلق عليها بصخرة ثم ردمها بالـــتُراب، غير أنه رأى بعد أيام جروراً أبيض يسحب خرقة فتأكد



Twitter: @ketab_n

مـــن عـــدم خروج الكلبة وثبتَ لـــه أن ذلك الجرو كان خارج المغارة لحظة الوأد، فبدأ بتدليله مبتدئاً بتفكير طويل قبل العثور على اســـم (شَـــرار) يســـقيه ويُطعمـــه ويُدحـــرج لـــه كُرة الصوف ويصـــطحبه في رحـــلات رسم المناظر الطبيعية، ثم يراقبه في أوقات الســـأم يتســـلق الـــتلال برشاقة ويصطاد الدراج ثم يضطجع رافعاً أطـــرافه إلى الأعلى ويفتح فمه مبتسماً، وقد خَفَّفَ هذا التآلف من شعور عواد بالذَنب الواخز.

سمـــع شـــاهين فلم يقم بأي رد فعل سوى أنه هَرَشَ مؤخرة رأسه وضحك. غير أن التفاصيل الأخرى جاءته من عواد كأنما من شـــخص آخر يدير وجهه حُطام الحقول ويتحدث عن أمر خاص، أو عـــن شرار تقريباً. يقول: وقتها لم يجد عارف خبراً عن كلبته إذ اعـــتقَد أن الضـــواري مزّقَـــتها وهي تُدَرب صغارها على التَحَمُّل وخطف القُبرات في الوادي.

وعـــبر زمـــن حكاياتـــه كلها يُشعل سيجارة ثم يرميها فينتثر الجمر، بينما كان شاهين يرفس الأحجار عن كتف الوادي فتهوي مصـــفوعة بحافات أخاديد المنحدَر. يحدث أحياناً أن ينقسم الحجر إلى قســـمين، أو ثلاثة موزعاً نفسه في الجوف وكاشفاً عن خطوط بركانـــية وكبريتية تفضح قرون النمو البطيء وقد غمست عشرات المـــرات بـــبول حيوانات متعادية. يقول عواد: أبعَدَتني المشاغل عن صـــديقي شـــرار باستثناء فترات الحنين إلى اللعب. يتحدث كنائم فـــيقول إنه يجده بعد كل مرة وقد اختزَن لحماً جديداً تحت جلده. نعـــود إلى الـــوادي. مازلـــنا صـــغاراً. كـــلما استقَر حجر شَعر بالاطمئـــنان. همْس سري خاص يفوق لغة التخاطب اليومية. همس


Twitter: @ketab_n

بمستوى الاعتراف.. وبانقسامه عن خطوط تنطفئ جمرة الحرص والرغبة في يقين القلب: تلك الدقات الرتيبة الضعيفة التي توشك، بعد كل دَقّة قادمة، على الانتهاء. أجَل إنها همسات. يقول عواد ويبيّن بتلك المرارة الخاصة عبر زمن حكاياته كلها، أنه خرج ذات يوم على صوت شَمشَمة وراء الباب فوجده يلعق قدر الحساء المتروك بلا تنظيف، وحين أبصره: حين أبصرني عَوَى بطريقة سخيفة؛ عَدُووو...

اعتَقَد في البدء ــ أمام فضاء حُطام الحقول ــ أن شرار يُعبر عن شوق بعد غياب، لكنه هاجَم، هكذا تُهاجم الكلاب تقريباً، فاضطر إلى التراجع بطريقة لا يعرف كيف تَمَّت. ونَشَب العداء بين الصديقين.

كان المطر يوسع حجم قطراته فيما مضى، لأنه آخر أمطار العام، كنهر ينسكب من السماء، فخرج النمل المُجَنَّح مع طوفان أكياس القمح باتجاه الحُبوب الراسية عند حافات السيول، وقد لمح، وهو يفكر بكيفية إعادة العلاقة مع شرار، ظِل امرأة يمر في مُربع الشباك. ثوب أصفر تدفعه الريح بين الساقين، فدَخَلَت رائحة قلائدها من الشَق فارتاح وتمطى ثم أطبق كفيه بتوتر بين فخذيه. رأى عزيزة القَطّان. صاحبة الحظ الأوفر من الخبرة بسبب تجارة أبيها وتجواله في المُدُن، لكنها نظرت باحتقار ثم مضَت إلى البئر. يقول عواد أنها كانت تمضي أحياناً إلى البئر في بداية العلاقة فيخرُج بأثرها غير أنه يجد الفضاء، ويسمع كأنما من بعيد، من بعيد جداً، شراراً يعوي في الفراغ أو يموء بمستوى الأحجار. ذلك الشغوف بلَحم البَط تحوَّل إلى نَؤوم مُعرِض عن عَداوات الوراثة ضد القطط،


Twitter: @ketab_n

فـــلم يُبقِ حليب في إناء، أو لحمة في سَلّة، وقد تعددت الثقوب إلى حـــد الاعتذار بالكَسَل لمجرد القيام بمحاولة وضع حصاة أمام القطة. كـــان عواد يشرح حكاياته منذ المطر الأخير سيجارة أثر سيجارة. غريـــب غُـــربَة الأعمى عن مَقعَده. شاهين هو الغريب على كتف الـــوادي، غـــير مُصَدّق أن الجسد الذي تُدفئه الأنفاس خاص به، ولكـــنه بمـــثابة عَمـــود المُنتَصَف أمام الهول الجدب. ذراع الخشب وذراع اللحم شيْء واحد، هذه هي. مَن؟.

غُـــربَة الأعمى عن مَقعَده فيندُر أن يَحدث بينهما جريان أو احتكاك. موت. إهمال.. وإنما مُلقَيان في فَراغ الخريف. فيقول عواد أنـــه حـــين خرج بأثرها وجدَ الفضاء وسمع كأنما من بعيد شراراً يعـــوي وقـــد ذهب إلى ظِل الكوخ واختار حَجَراً للتَوَسُّد لأنه في مرتـــبة منخفضـــة من الجوع. فجاءه بقطعة خبز وضعها أمام عينيه المُطفَـــأتين دون حذر من إعادة فكرة الهجوم، فتَشَمَم الخبز وخَفَض رأســـه قليلاً وحَرَّك ذيله ثم استدار بحركة طَي القماش ومضى إلى ظِـــل الكوخ مختاراً لنفسه حجراً، داعياً ذباب الكلاب لكي يقرُص جلـــده بدل القيام بمشقة الحَك. فقال عواد: " حسناً، ستضطَر إلى اعتبار الورقة السمراء قطعة خبز ".

وظَـــل غريـــباً غُربة الأعمى يُدحرِج حجراً آخر إلى الجوف فتـــنهض حقب مديدة سائلة فيتذكر أنه أراد أن يكون فاعلاً ومتيناً ومتماســـكاً دون الحاجة للرعشة والهاجس والأُمنية. وفتح فمه على أمـــل أن يبـــتلع التضاريس ويهضمها ثم يتقيأها مُرَتَّبَة كما يَرغَب، كاملة الصَفّات ليتبادل معها الألفة، ويريد أن يقرر انفصال السدرَة عـــن مكانهـــا فيراها تنفصل، لكنه يرتد حذراً بعد مَهوى الحَجَر.



Twitter: @ketab_n

يقـــول: كـــل ذلـــك بسبب شخص مُعيَّن، بسبب مجموعة أخطاء لمجموعـــة أشـــخاص يتكرر وجودهم... ويترسب فيه خط بُركاني ليعزله عن بعضه. بسبب آخرين يشبهونه، لكن أحدهم لا يبالي ليلة سمـــاع الصراخ في أقصى القرية، فيُنَصِّف الحشد بلا فضول مُنحَدِراً نحـــو الأدغـــال لاصـــطياد الدرّاج الذهبي. في الأصل: لكل طريدة وســـيلة صـــيد. الكل يهرُب في البدء ثم يمتثل بعد التَعَب... وأخيراً يهوي إلى الجَوف برَفّات متتابعة مصفوعاً بحافات أخاديد المُنحَدَر، ويحـــدُث أحياناً أن ينقسم إلى قسمين، إلى ثلاثة... فيقول عواد أن أمـــه فهمت بسبب إعراضه عن الطعام متضامناً مع شرار بعد قيامه بفَورَة إخضاع حين صَب اللون الأصفر على حالة الركض وبقيت حالـــة الـــنوم كأنمـــا كان يركض في حقل قمح واختفى. يقول: اخـــتفى. ثم يـــتمدد على السَرير فيأخذه العطاس. أحياناً ينظر إلى شجرة الصفصاف تقرَع الشُباك بأغصانها، وهو يسمع قَرع أغصانها على الشُباك فيستنتج أن الريح الشمالية تحاول تجريب قوتها باقتلاع السقوف. وسمع في الأسفل أصواتاً مُعَقَّدة تُعطي لصفير الريح صفة الغُـــربة أو التـــنافس. ليســـت غُربة الأعمى عن مَقعَده، بل غُربة التنافس. وشَعر بمعاناة الهواء بعد الاصطدام بالتلال. وفي منخفضات سَمعيّة، ربما بعيدة وحذرة، صَعدَت كلمة (شَرار) كإبرة طويلة إلى حُـــنجَرته، بهمـــس لا يمكن احتماله، فانتبَه في البدء وأرهَف لكي يَســـمعها ثانـــية، لكـــن اشتداد قَرع الأغصان على الشُباك أقنعه باســـتحالة الإمساك بأية كلمة بَعثَرَها الهواء مع الثياب المنسية فوق الحِـــبال ونـــباتات الدرداء الخفيفة. وعند أُسُس البيوت، حين رفع عواد بصره عن اللوحة الصفراء، كان العشب الميت يهتز، ودخلَت


Twitter: @ketab_n

الحَشـــرات في الـــثقوب، وجلـــب الأطفال ملحاً لكي ينثروه في دوامـــات الـــريح لتحقـــيق رغبة الطيران، لكنهم اعتذروا للعاصفة بشـــكل تأنيب لأنها سوف لن تُترِلهم بهدوء بعد أن ترفعهم بعنف. وهـــناك أيضاً، أبصَر الاختفاء التدريجي لخطوط لُعبَة (القُرلَي) على مـــنحدرات الـــتَل حيث الشجر يشتم الريح لكي يعود إلى وضع الاســـتقامة. وكان ثمة صَفير قَصَب السقوف ورفرفة آذان الحمير، فقال: " ستمطر لآخرَ مرة " وصار مُتعَباً بعدما أعتَمَت الغرفة عتمَة صـــفراء على الشُباك. فتح قميصه وهبَط في الريح فصاحت عالية: "لا تخـــرُج يا بني.." لكنه وجد نفسه في الدروب يتسلق تَلاً مُراهناً بتثبيـــت نفسه بالقوة، ضاماً ذراعيه في وضع الصلاة، فتنغرز ذرات التراب في جبينه وتستقر إلى الأبد.

يقـــول عـــواد أنه مدّ ذراعيه.. هكذا، محاوِلاً إيقاف الريح. ويقـــول أنه كان يضحك بعدما انحدرَ إلى جهة معلومة. إلى شرار تقريـــباً. ودخَل دار عارف من الباب الخلفي حيث ترقُص درفات الـــنوافذ الخشـــبية، وهناك رأى شراراً يتوَسد صخرة باب الكوخ فاقـــتَرب مـــنه. يقـــول: " اقتربتُ منه. لمسته. أحببته أكثر من أي وقـــت، مسَّـــدتُ شَعره.." وقد هدأت الريح عندما بدأ المطر. أما عيـــناه، " آه "، كانتا أكثر حناناً من أي شيء، لكنهما تحوّلَتا إلى كُـــرتين زجاجيتين تقريباً. أنتَ لم ترَ عينيه ـــ أين أنت؟ بينما امتلأ أنفه بغبار شجر التين....

كان المطر يُسع حجم قطراته فيما مضى لأنه آخر أمطار العام كـــنهر ينسكب من السماء، فخَرَج النمل المُجَنَّح مع طوفان أكياس القمـــح باتجاه الحُبوب الراسية عند حافات السيول، وقد لمح وهو



Twitter: @ketab_n

يفكـــر بمرارة الذكرى صديقه يرفس الأحجار فتهوي إلى الجَوف، حَجـــر بعـــد حَجر.. ويرتَعش على لمسة كَف خفيفة فيقابله وجه عـــواد: صـــديقي، لماذا هَرَبت؟ كنت أراقب حركاتك. لكنه كان مُنشـــغلاً بالتـــنفس ومراقبة مَهوَى الأحجار. يقول له: إنني بحاجة إلـــيك. فيســـقُط آخر.. يهوي مصفوعاً بحافات حفر السيول، ثم يســـتقر في الجـــوف بـــلا معنى، بإشارات مجردة إلى الأشياء: هذه صخرة. هذا أخدود. هذه شوكة. هناك قُبَّرَة.... إلخ.

في مَرسَـــم عـــواد تـــبدَّل الإحساس الأول عند رؤيتها تحت كَشاف الضوء. مدَّت كفها للتعارف: عزيزة القَطّان.. أيه، شاهين أليـــس كذلـــك؟. فحوَّل وجهه عن ابتسامتها الخائنة نحو جدران الكهف الهندسي، ابتسامة حيوان مُحتَضِر. كان عواد يَحضر بشيء مـــن الارتـــباك والسرعة أدواته الخاصة، ذيول التشريح وشَفرات القَشط. يُهَيّج الأصباغ لكي يحطم العطر النادر. ويقول: كنت على يقين بأنك ستبدلين الفستان، جئت قبل الموعد. فتقول إنها متشوقة لـــرؤية صـــورها مُنتهية. ولكنني متأكدة بأنها لن تشبهني أيه.. العَم هـــنا؟. ويقول: في الجامع كعادته. ها؟ لماذا أنت متأكدة؟. فتقول إنها لا تدري، هكذا. شاهين ما رأيك؟ فيجيب بأن الأصدقاء الذين يلـــتقون بعد غياب، يتحدثون عن موت كلب. اسمه شرار، مولود مـــن كلـــبة غَدَّارَة وهو هجين لأنه يحب أكل البط ويدعو ذباب الكلاب لكي يَقرُص جلده بدل القيام بمشقة الحَك. ويفاجأ بسؤالها وعينـــيها الشيطانيتين تحت الضوء. أنا؟ لا أدري. لم يرَ تلك التعابير في امرأة أخرى لأنه لا يعرف غير هاجر ولا يعرف كيف يقول لها: أمي.



Twitter: @ketab_n

عينا عزيزة، أي لون لهما؟ ليستا بعينين، وإنما كائنين، حيوانين مُستَقلين عنها. لم يعرِف مقدار اتساعهما لأنها تُحَجمهما حسب الموقف، وكيفما تشاء. ولكن الانطباع الذي لا يمكن إنكاره، ذلك النزول أو الانحدار في طرفيهما البعيدين، التوافق الفظيع مع موازاة الحاجبين في لحظة الاستفهام. دَهاء مُنبثق عن توتر القوس باتجاهه. الضوء العميق حتى زاوية الأنف بحيث لا يمكن إنكار الذُل الذي أصابه بعد التحديق فيهما. أي لون، أي لون لهما؟. كشَفَ له السواد الغائر شيئاً من الذكاء والاستدراك السريع لأنه أبصر الظِل الشفيف لصورته في لحظة الاستفهام والاتساع العسير ــ بحيث تَضطرّه إلى نسيان جميع الأجوبة الممكنة نظراً لخيبة اللغة في التعبير عن المشهَد. إن كلمة (لَذة) أبعد ما تكون عن نقل الوقائع الشبيهة بالموت تقريباً أمام استدارة العَدَسَة في حالة الاستفهام. ليس الاهتزاز في الزاوية ولا شُباك الضحك ولا العَترات الثلاث على المُنحَدَر، بل ربما رائحة السُوس. ولا حتى رائحة السُوس. آه السُوس!! أبداً. يقول بأنه سمعَ كلاماً، كأن ذلك لا يعنيه. ولكنه أمر جدير بالإذعان أمام مفردات الفسيولوجيا البسيطة. ليست مجرد عين. يقول: هذه العين بالذات. أي لون لها؟. إنها الحياة مُكَرَّسَة في لحظة الانتباه إلى حركة دخول النَصل بطيئاً بطيئاً في القلب. وهكذا حين أراد التعبير عن فهم الإبهام، قال أنه يَعي وقائع موته كمن يُنَفذ خطة طويلة بَذَل في إعدادها زمناً يمتد من آشور بانيبال حتى القيامة. مع ذلك، فالأمر مُحال مُطلَق، وليس مُحالاً تقريباً أبداً أبداً.

واستدارَت لتُعَدّل ثوبها في محاولة ما لزيادة انتصاب النهدين،



Twitter: @ketab_n

ويقـــول أنها تُعَدّل ثوبها لتحفيز الارتفاعين. فلاحظَ خصرها الدقيق الـــذي يقلـــل من تأثير حدّة وجهها، نزولاً إلى الارتفاع الواضح للـــردفين بدرجـــة تدعو إلى اختراق المألوف واحتضانها من الخلف كـــيما يُحـــس بحنان اللحم وأهميته، أو لَذة الخَطّ المُنَصِّف ـــ اسمها عزيـــزة لأنهـــا لا تشبه صُوَر الاهتزاز المُستَحضَرَة ـــ كيف يكسر الفســـتان وينســـاب إلى الجَورَب الشَبَكيّ، ويؤشر الحذاء الرياضي المُـــنخَفض. الخَـــطّ المُنَصِّف. شيء ما يُذكّر بالسَرير عندما تتحول البساطة المُصطَنَعَة إلى نوع من الفِتنة.

ولكـــنها تَقـــتَحِم، وهي تُطيل نطق الحروف وتُعَذّبه بالتَشديد على السين، كأنه يحس بانتظام أسنانها، بروعَة اللسان المُمكنة خلف الانـــتظام الطبـــيعي. إلا أن ذلك، كل ذلك تقريباً، كفيل بالنسيان عـــند حضـــور امـــرأة أجمل منها، لولا الخيط الغليظ القُطني الذي شَدّت به شَعرها بحيث بدت كأنها تنسَكِب جزءً بعد جزء من قمة الـــرأس، تســـيل مع خصلة الشَعر عبر الخصر حتى انكسار الثوب بحُفـــرَة الـــردفين ممـــا يعطيها صفة مَلَكيّة غالية، أو شيئاً من هذا القبيل..

وأشـــار عـــواد، إشارات لا تُخفي، بأن يبدأ الرسم ـــ رسمَها هي، صورتها، صورة عينيها على الخشب المُحَطَّم الجاف حتى يصل ذات يـــوم إلى ســـر بياض العنق تحت كَشّاف الضوء.. وكل ذلك يبدأ تقريباً، من استخراج التعابير في وجهها المُدَبَّب الرائع.

بعـــد تجـــربة ساعتين من محاولات رسم الخط الخارجي الذي يتغيّر وفق طبيعة الخَجَل أو إنزال الرأس أو وضع اليد على الفم أثناء الضحك، وقد يَحمَرّ وجهها تحت الضوء ويستمر في الاحمرار حتى



Twitter: @ketab_n

وضـــع الألفة والمَلَل من الجلوس. وكانت تلك المُثيرة تُوقف عواداً بـــنُكاتها فيضـــحك لأنهـــا تمطّ الكلمات وتُكثِر من لفظة: ايـــه.. ايـــه.

وعـــندما انتـــبه شاهين إلى وقفَة المحَل الواحد، وقفته الجامدة، اضطَر لطلب الإذن بالانصراف مُؤكداً عودته في المرة القادمة.

في الـــدروب الهابطـــة، مرة أخرى. ظِل سيجارته، المُهداة من عواد، على الجُدران. أبواب الخشب يميناً، أبواب شمالاً. وعلى رأسه تُظَلل السقوف فيزل الفيء إلى عصَب البَصَر. حكاية المرأة الولوعة بالمَـــرَح، قال لها عواد: اجلسي بمحاذاة الشُباك ليُتاح لك رؤية تناقُر الحَمَـــام فوق الطابوق النافر. وكانت السماء وراء الأسلاك خريفيّة صـــريحة. ولعزيـــزة عطـــر خاص، عطر الأرضيات الرطبة، رائحة حظائـــر، بينما الأبواب العتيقة في الحيطان العتيقة تُفضي إلى نزول يَـــأكل جص الأساس باتجاه رسوم الأطفال بالطبشور وفحم المواقد الخابـــية. عزيـــزة امرأة ذئبة. طريق يمتد حتى الجبل. شمس وقارب. تقريـــباً، هو من هذا النمط. يعتقد بأنه أبصَر وجوهاً تَخرُج بمحاذاة قبضـــة الطَرق، وتخرُج معها رائحة المحتويات ومياه مجاري الصابون أسفل الخشب البُنيّ المُرَصَّع بمسامير عريضة الرأس.

كانـــت خطواته المنفردة تبيّن للناظرين ضرورة الضحك، فكل واحـــد مـــنهم أخـــرج نصـــف جسده وهتف بدهشة: شاهين!! شـــاهين!! شـــاهين!!. دهشات متوالية. أصوات متناغمة تتجمع لتؤلف نشيد دهشة واحد: شاهين!!!. لأن المطر قطرة فوق قطرة، والحقل بذرة فوق بذرة. لحظة أن تضع واحدة اسمها خديجة كفيها بـــين فخذيهـــا وتَحَمَّـــر أمام امتداد من الأبواب المصبوغة بألوان



Twitter: @ketab_n

الأعـــراس الفاقعـــة، فـــيترل بصره إلى أوراق كتاب مُمَزق، عبارة تقـــول: " هـــل بإمكانك استنتاج قاعدة لضرب كسر عشري في 2000؟". فعاهد نفسه على نكران وضعية الخفة والاحتفاظ بالوقار الخاص معتقداً أنه تحوَّل في أماكن شبه مغلقة، محتاجاً بشكل ما إلى ضرورة الانزِراع في الحياة متحرراً من الغطس الخاص، فقد قرر أن يحاجج عزيزة بصراحة الديك بعد أن يُدرب نفسه طوال الليل على طـــريقة لفظ الكلمات الأولى، غير أنه فُوجئ بالجزء المعتم لدرابزين الســـياج الملتوي، حيث يخترق شجر الآس المُعَطر تشابُك القضبان، ثم رفع رأسه فكان مترل حلاّب. جزء ما قد نسيه الصبّاغ.

أغمض عينه واستدار فرآها تبتسم بوجه مُجَعَّد كسيول المطر، وحـــين دسّ يديـــه في جيوبه أحس بدفء وضيق، إحساس كثيف كغـــرين الـــنهر سيمتد إلى أيلُولات قادمة دون أن ينسى المصافحة الأولى؛ سلام دافئ في أصابع منسيّة. وسمع عند طرفيها اللذين يترلق علـــيهما المُـــبرَد، فضائح المدن عبر نشرات الأخبار، لم يقل لها بعد ذلـــك ـــ الـــرأس مُهمَل إلى الخلف أمام شق الحائط حيث لحظة الاهتزاز العنيف ثم الانزلاق في نُدرة العذاب..

مـــازال يصب ألوانه القروية على الخطوط المُفترضَة. دائرتان ويقصـــد عيـــنين. خطـــان متوازيان ويقصد عنقاً. دائرة كبيرة تلم الدائرتين الصغيرتين ويقصد وجهاً. تنفس على الخشب العتيق الذي مَزَّقـــته الأرضة. زعانف هي جديلة الترول بسيلان بقعة بيضاء تعني خـــيط القطـــن الأبيض. ويبتسم مخافة أن ينساها. ويتذكر الأصباغ محـــاذراً صمتها وشفافية الزجاج فيها بعدما أبصر دمعتين مشنوقتين بـــالأهداب كصورة العنب في الماء، فأخذ يغني لكي يكسر الصمت



Twitter: @ketab_n

كاشـــفاً لها عن جانب الهرج مخافة أن يصمت فينكشف: حسناً يا عزيزة... تي، من جهتي تنازلت، فمهما تكن قدرتي فلن أرسم مثل الله.. وأنـــت، أنت الحلوة، مجرد تخطيط أولي في مشاريعه العظيمة. وتبتســـم لـــه ابتســـامة باردة وتجيبه بسؤال: هل أسميه عجزاً؟. وينصـــت للعـــبارة ثم يعيد فيقفز: لا لا لا، سميه تواضعاً، بل قولي اعـــترافاً، لا. نكـــران ذات، ولا حتى هذا. بشيء لا يُسمى، لأنني فهمت من ذلك الذي لا يحس بأنك تهزين الحَجَر. وتضحك عزيزة قائلـــة: هكذا إذن، فلتتعذبا بي، أنتَ وصديقك. فيخلع تعبه: كفى كفـــى.. آه تعبـــت سنُكمل غداً فقد اقترب موعد مجيء الوالد.. وأنـــت تعـــرفين الـــباقي. تـــنهض وتتمطى فيقلدها وتقول إنهما ســـيكمَلان غداً، ويقول: ربما لا، سأقول لكِ شيئاً بشأن شاهين.. هيا.

يـــترلان إلى بساط منشور، حيطان مُظَلَّلة وأخرى مضيئة ترفع الســـقوف تحت السماء وتنفرج ضمن نزول بين التلال كطعنة إلى الأســـفل، حيـــث يسمح للدُريب الصغير بالصعود مروراً بالحقول فالبـــئر ثم القـــرية. أمـــا الخارجون من الطعنة لاسيما مع الدم عند الغـــروب، يتوقعون رؤية الشُباك الكبير الأصفر الخاص بالمرأة عالية، الجميلة ذات الأربعين شتاءً، ولكنهم يُفاجأون أحياناً بحجم الشُباك فيتراهـــنون عـــند حلـــول المناسبات بطريقة لصق الكف؛ بأن هذا الشيء أو ذاك أكبر من شُباك عالية، وهي تستمع كالعادة إلى ربابة الـــبرنامج الـــبدوي منذ عشرين سنة دون أن تفوتها حلقة واحدة، وهذا التاريخ ابتداءً من الحلقة الأولى يشير إلى الصلاة الأولى لمسعود باضـــطراد مُنـــتظم نظـــراً لازدياد معجبيه. ومن هذا المكان أيضاً


Twitter: @ketab_n

شاهَدَت ابنها وابنة القطّان فدَفَعَت الزجاج المُتحرك صائحة: هاي، هـــاي مَلاعـــين!!. فـــلم يرتبك لأنه يعرف أمه، و لم يلتفت لأنه سيعرفها أكثر.

ومـــنذ عشـــرين سنة فإن زهرة رفسة أخيرة بعد ميلاد عواد، ولكـــنها قطعة مُحَزَّزَة من القبح بسبب تأثير أوتار الربابة وتقلبات الطقـــس مـــن حيث الحرارة والرطوبة والأمطار والضغط الجوي، بالكاد تكون ابنة لتلك المليئة بالنشاط: عالية.

يقـــول الأحـــياء أن الحياة صعبة. ما أروع أن تكون صعبة!! وهـــم الأحـــياء في كـــل مكان من الكرة الأرضية، يعرفون أسماء بعضـــهم بعضـــاً: البشر، الناس، الآخرون. كلهم آخرون بالنسبة لبعضـــهم. المـــرء. الإنســـان الذي يفتح عينيه صباحاً فلا يجد بخار الشـــاي فيُصَعّد إيماءاته اللامُجدية مالئاً الفراغ بتنفس مسموع لكي يعـــترف لنفسه بمُلكية الشهيق. مجرد انطباع سريع عن عالية، لأن المـــرأة تعـــني جميع الناس وفق مفهوم الأدب، مفهوم السيد حسن مطلك أو السيد هيرمان هيسة أو غيرهما. وهكذا كان الأمر بالنسبة لها عندما تتعرى لكي تستبدل ملابسها بين ساعة وأخرى واثقة بأن الجدران ليست من الزجاج.

وبين قضبان الشُباك يمشي الرجال العائدون من حُطام مزارِع القطـــن. الأبقـــار الضمّر تحرك ذيولها لطرد البعوض. ضجة تأديب الأولاد تصدُر عن كل مكان. أقصد؛ كل مكان في الشرق.

كانـــت تُصـــغي لوقـــع خُطى الفلاحين وتُلصق شفتيها على صـــورهم الصغيرة الماشية بين القضبان، الذين قدِموا من الغبار فيهم رائحـــة الصوف. تعد أضلاعهم النافرة؛ إثنعَش في كل جهة. نعم



Twitter: @ketab_n

إثنَعَش وفق العدّ العراقي رغم الشَعر الكثيف.

ليست الرغبة لأجلها على أي حال، بل لأجل الذين يمنحونها الأبوة بصفة الحماية القاسية فلا تَقوى على قول شيء ولا تعترِض. نـــداء منبثق عن أوتار الربابة. الوتر الوحيد لأنه مجمعة أوتار. نداء شَـــبهه الـــرعاة بنعجة تتبع كبشها. عواد مثلاً: الفرشاة أُم والألوان أُســـرة، وهـــذه أيضاً نتائج عدم الكذب. عالية. عالية. كانت قد سمعَـــت عـــبر أماسي الخريف أغنية مكَرَّرة تُذكرها برجل طاهر لم يُتعـــب نفسه في عدّ نقاط الوشم على وجهها الذي شبهه الرجال بالقمر. وزهرة تنصرع عند ذِكر الزواج. وعواد أيضاً، بمثابة خشبة الحجـــز مانعـــة التسلل لأنه يُفجر الغضب بعد أن يهدأ بغراباته في الشُـــرفة الحجـــرية. أشياء كثيرة. أشياء وأشياء لا معنى لها تقريباً. أشياء بلا فائدة كالعُلب والصفائح والأحجار الملونة وعدوى قواقع شـــاهين لأنه يسعد بقوقعة مثقوبة كما يسعد بامرأة مثقوبة. وهي: عالـــية. مُفردات قاموس التربية: لا تد...، لا تفـــ...، لا تنـــ...، لا تبـــ...، لا ولا ولا ولا... إلخ.

شهدته يُكسّر الأواني لحظة الغضب كواحد من الرجال الذين يكســـرون أي شـــيء لحظـــة الغضب. والرجل شوك جميل لأنه مُخيف.

إنه لأمر مُسلٍ عند هبوط المساءات العالية يشعر الفَرد بالضيق. وهـــي فَـــردة لأنها تشعر بالضيق كآخر يوم من أيام العودة. وماذا يفعـــل المرء بعد أن يُصفي جميع حساباته؟ يُدخن؟ يشرب؟ يذهب إلى الفِراش؟ يغسل يديه بالصابون؟ يخون؟ يتشاجر؟ يتناول الباذنجان عـــلى الجريدة؟.. أي شيء يفعل؟. لابد أنه سيُبعثِر حساباته ليعود



Twitter: @ketab_n

إلى تصفيتها من جديد.. وهكذا.

لقد حدّدت معرفتها بحدود النقطة الأخيرة لقوة البصر، وأتيح لهـا أن تفهَم الوجوه المحيطة بعدما تكتسب ندباً أو أخاديد تركها الضـحك. سابقاً كان مسعود يحمل وجهاً غير وجهه الحالي وهو مختلف عـن وجوه الآخرين، لأن صلوات آخر الليل تحقن الرضا تحت جلده فتنتفخ الخدوش لتتساوى مع الخد. يصفو ويصفو متجهاً نحـو لون الطفولة، لذا فإن الخطر عليه يزداد وفق احتمال اشتهاء النساء عندما يرغبن في تقبيل طفل مرتين أو ثلاث مرات بدون استئذان، وهو يصرخ لا بسبب الضيق بل بفضل الدَلال. أما الآخـرون فيُرسّـبون الشيخوخة بالكَد؛ انتظار النتائج، أو انتظار الـتقاعد. عمـل النمل الدائب، يأكل في فصلٍ ما ادخره في فصل سـابق.. وبعـد ذلك؟ تأتي اللحظة الكريهة المُتَوَقعَة: ماذا فعلت؟. أقـول: هم، وأعني: عالية. تفتح عينيها في الصباح فتجد أن أعواماً كثيرة مرت مرور الغيوم. أمام المرآة: مازلت. بعيداً عن المرآة: ماذا فعلت؟.

غـداً ـ ربمـا ـ سينطفئ كل شيء وتجد أن تلك الأعوام جديرة بإقامة الصلاة وفق حسابات مسعود.

والتَفَتَـت إلى صـوت الخُف البسيط يلج العتبة: بسم الله... لسـت صـغيرة يا عجوزي، ما الذي تفعلين هناك؟ تتجسسين؟. فتنفُض رأسها مُشيحة عنه: أشعر بالضيق، لكني أرتاح عندما أفعل ذلـك. وهـو يعرف؛ النظر عبر الشُباك، السجائر الحادة، البرنامج البدوي، تغيير الثياب.

تقـول: بعدما أنجزتُ شُغل البيت؛ كنستُ الأرض، طبختُ،



Twitter: @ketab_n

غسلتُ المواعين، رتبتُ المكان. وتأتي كل أخبار المنطقة عبر الشُباك. يقف اثنان في الطريق فيقول أحدهما للآخر: "هذا سِر بيننا، والسر إذا تجاوز اثنين افتضح."، فيقول له الآخر: "اطمئن، سِرّك في بئر.". وتقول: يوه.. ماذا أفعل. انظُر إلى ابنتك فلا تساعدني في أي شيء. لأنها مشغولة بالتطريز وعمل الزهور من أحذية المطاط. فيقول: اتقي الله. وتقول: صارت لدينا أكياس من الأحذية.. أُفّ، رائحة تزكُم الأنف. ويقول: أينَ الولَد؟. فتجيب: لا أدري... أشعر أحياناً بالندم لأننا نعامله هكذا. ابنك لم يُسئ لأحد فلماذا؟. يعني أنه يرسم.. وإذا؟. فيستعيذ بالله لأنه يريد إبعادها عن الشُباك فلا تبتعِد: هه.. لن ابتعد. ألا تأكل؟. لا يأكل. يذهب إلى الجامع.

مرة أخرى، أقول عالية وأعني الآخرين. ما أن نتخيلها حتى تكون أمامنا كشبح التصويب، وهي تدور في البيت مقطبة الجبين، مُبَعثَرة داخل ردائها الأحمر الواسع كذكرى سفرة سياحية. لابد أنها تُحيّي الناس من وراء الأسلاك فيرد الجميع تحيتها. صباح الخير. صباح الخير. تبرُز فجأة من ركام المعرفة الأولية ضائعة في لجة الترتيب المُزعج. لقد خُلِقَت هكذا لأن أحداً، شخصاً. لا أحد تقريباً. رأى مراحل نموها وهي تدفَع القميص إلى الخارج منذ سن التاسعة فيتَفَتَّق الخيط بسبب حجومها الجديدة حتى لحظات تحية الناس: صباح الخير. كانت تتحدث باستمرار لتجلب إليها الانتباه، وكان صوتها يتلوّن، مطموسة في سعادة لا تعرِف مَصدرها. يحدثونها عن بعضهم، أما هي: عالية، فلا تعرف كيف تصف لأنها تُشاهد فحسب، وتتعرف على الأشياء. تنظر إلى طعنة الدرب.


Twitter: @ketab_n

تـــنظر إلى طرف القرية... وتنظر أيضاً إلى بقعة بصاق السجائر بعد أن تجـــاوزت الأربعـــين بيوم واحد فقط، فلا تدري كيف حدث ذلك.

تعود إلى شُباكها فترى النحيف القادم، ملتصقة أكثر لتَتعرف علـــيه، فـــلا تتعرف. قادم إليها مباشرة. يراها ولا يُبصرها عندما تُشـــير. ليست ثمة تحية خاصة بانتصاف النهار؛ ظُهر الخير؟. مَن ذا الـــذي يطلع غريباً عبر الطعنة كأنه يعرفها ولا يعرفها.. فتحاول أن تبتسم للشبح. قد لا تستطيع.. تبتسم. رجلٌ من الغجر يدور حول البيـــت ويعـــرف المدخـــل.. مَن؟. وبعد لحظة، تقول زهرة: هذا شـــاهين. يدخُل الفناء المُعبَّد بإسفلت لأجل طُهر الوضوء. وتتساءل عالية: شاهين؟ مَن شاهين؟.. آه.. شاهين!!.

فقامـــت إليه وقَبَّلته. رأى في طرف عينها البياض الهائل المحيط بالعدســـة؛ بياضـــاً ذهبياً مُشعاً. تنحني بوداعة لتُقربه أكثر، فيمتد بصـــره عبر الشُباك إلى الأرض الرخوة الخالية؛ إلى السَراب، حيث يـــأتي خَطـــر معيّن شبيه بالحصار تقريباً، غير أنه ليس حصاراً، ولا حتى خَطراً..

ورأى أيضـــاً، بعد قُبلتين وثلاث انحناءات، أنها مدفوعة بسحر أســـاطير ذاتـــيّة إلى التأويلات لفرض حماية نفسها. كل فَرد هنا بما فـــيهم زهرة، مدفوع بسحر غريب، تقريباً، كالقَدَر الذي لا محيد عنه. أراد أن يَلبَس الباب لأنه لا يعرف كيف وأين يجب أن يجلس، فتَمَسَّكَت به وأوصت زهرة بإعداد الشاي.

بصـــره يدور حول عالية، ولا يسقط عليها. يرتفع أحياناً بين هندسة الوسائد حتى الإعلان السياحي؛ صورة اللبوة الجريحة. يقول


Twitter: @ketab_n

لنفسه كلمة وهو يطيل التحديق في جَلسنها المُلتاعة؛ وضْع الابتهال والسنجدة عبر العصور. يمكنه أن يفسر بلا معرفة وبلا أي شعور بنقصان الألم. لأن الإنسان الأقدم كان ينقصه التعبير عن الألم. يضيق بتوسلها فلا يجد مهرباً. الإنسان الذي يُقدس صورة تعلو على تَوَحّل الحظ؛ في قائمتيها الأماميتين. ولكن آخرها قد سقط مثل كرسي مُحَطَّم. فكها الهلالي. الجوف المُلتصق بالجلد. مخالبها التي أهملت كخطوط في رقيم طينيّ لكي تُخلّد لحظة الاحتضار، كأنها كانت تنتظر المصور أن يُتم نقشها.

تتحامل وتتساند قبل أن تَسقط بمستوى الأرض وتستسلم لذباب التفسُخ. إنه يَسمع نجدتها القادمة من قعر العصور حتى ساعة القيامة. صرخةٌ مُلتاعة صادرة عن أسفل القصبة الهوائية.. وقد صارت السِهام عزيزة عليها..

تقول إنها صورة آثار وتُقبّله مرة ثالثة. فيقول: نعم صورة آثار. ويفكر أنه لم يحظ بشفطة خَد. لم يتذكر أن أحداً شَفَط خده وأحس هكذا بطعم الصوف. طعم بلا معنى تقريباً.

لحظات طويلة أخرى. يَرفع بصره حيث جروح اللبوة مستنكراً ومعتذراً بشكل أسَف. كانت عالية تحكي. يدري أنها تحكي، فلا يَسمع سوى الكلمات المُرفَقَة بلكزَة الخاصرة. ولماذا تغيب يا بني؟ فأنت ترى أن عواداً يحتاج إلى صديق لكَي يهدأ. وتقول: إننا بحاجة إليك.. يا وديعاً. انظري إليه يا زهرة، أليس وديعاً ككبش، نحيف بفعل الفيء... ولا يهم. ويدري أنها تحكي. تقول: لو أنك تزوجت.. لماذا لا تتزوج؟. ضعي بعض القِرفة في الشاي. ويجيبها بِـ آه طويلة.



Twitter: @ketab_n

تقول: لماذا الآه.. اقترب يا حبيبي، لماذا لا تقترب يا بني؟ لماذا لا تـــأتي وتُسلي عَمتك..؟. غير أنه يبتعد وعيناه معلقتان في جروح اللبوة، فيقول: الشاي. وتقول: حالاً، الشاي يا زهرة... يـــوه هل رجعتِ إلى ورود المطاط؟.

جـــاءت تلـــك الـــبُقعة وأخذته قبل أن يشرب الشاي، وهي مشدودة بخيط القطن اليومي. مشدودة ومُزَعنَفَة تقريباً. وتقول إنها تبحث عن عواد لأمر هام يحدث بين العوائل. تلك النادرة، فكيف يمتنع بعدما انحدرَت به عبر طعنة المضيق إلى النهر.

كـــان يُنصـــت إلى حفيف ثوبها. صوت زحوف في الظلام. فيضـــغط لكي يظل مرتفعاً عن الانفعال الأول، خائفاً من التجارب الـــتي لا تـــأتي بعد المغامرة. ولكنها مجازفة؛ إحراج مُعَزَّز بسطوع الشـــمس الهاوية نحو الغروب. وهي موجودة بجواره، يكاد يلمسها كملِكـــة من ملكات الجِن، بقدر الضعف أو الانكسار من أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين.

اســـتطاعت معـــرفة الشحوب في وجهه وألغت بنظرة واحدة تَـــرَف الفـــراغ لتضـــعه في التجربة مباشرة، وتَصُب عليه حامض العاطفة ثم تدعوه للنهوض بمستواها منذ اللحظة الأولى حيث عَرَف أهمـــية صياح الديَكَة وتأملات منتصف الليل، كذلك الإبهام العميق في صوت الساعة قبل الفجر، أهمية الأشجار والوادي وحصى النهر البلـــيل بزيت الرخويات. وكان لابد من تبادل الريب بالإشارات لفـــرز الروابط المؤقتة والدائمية. وكانت الضربة الواحدة تؤلمه وفق إشـــارات أخـــرى لتبادل الاهتمام، ولكنها تكنس عنه متاعب الليل وهـــزه كورقـــة عشـــب لتُدني الطيران منه بعد أن اكتشف مبدأ



Twitter: @ketab_n

الضحك واحتفظ بسرِ الاكتشاف لنفسه.

أمـــا الشـــجاعة؛ شـــجاعته وهـــو يعقد ساقيه بساقيها فوق الســـواقي، تلـــك اللغة السريّة التي تطفو على لسانه. ولكنها تطفو كمـــا كـــان يعتقد عقب المصافحة الأولى. هكذا.. لمس الانفصال الممكـــن للروح. حقيقة لمس هذا.. وهذا انتفاض الزاوية أمام تلك الـــبقعة المشـــدودة بخيط القطن اليومي. يقول: عزيزة، ويعني التي تُســـليه بعِـــراك أجـــزائها أثناء المشي حتى يصلا إلى صوف الغَرَب المـــنفوض، وهناك سيجد الحصى؛ حصاة تَرُص حصاة تَرُص حصاة تَـــرُص حصـــاة... إلى ما لانهاية، فلا يجرُؤ على إغماض عينيه لئلا يَسمَع دويّ العالم.

وتَـــركض بمهل لتلحق الموجة. موجة من بين الأمواج. تغرس قدمـــيها في معجون الرمل ثم في الماء البارد وتقول: هل جَرَّبتَ لذة مـــياه الـــنهر؟ هـــيا افعل مثلي. ويفعل مثلها، فتقول: بماذا تحس؟. ويضـــحك بلا معنى بحيباً: أُحس أن قدميّ في ماء النهر. وتضحك أيضـــاً لأنهـــا تتذكر، ربما، حكاية قديمة منسية، بحيء طفل في سَلّة طافية. أما بالنسبة لـــه فقد أعطى المشهد اسماً من أسماء الامتحان، وهـــو يـــثق بقدرتها على منعه من الانسحاب.. حتى بحيء الشتاء الـــذي سيكون أكثر ضباباً وخِفة في القفز... يظل يحوم حول تلك العصـــا. مـــا من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة، يحوم حول تلـــك العصا، لحظة النهر الأحمر وحجوم البط القديم، أسراب وراء أســـراب تكتب أرقاماً في الهواء. تُجزؤ الهواء بنشاط أجنحتها وتعبر إلى صـــحاري آســـيا.. ويذكُـــر أنه جاء مرة إلى هنا إلى الحصى المـــثقوب، " ولكـــن حـــذارِ.. يجب أن تبول على الحصاة قبل أن



Twitter: @ketab_n

تأخذها...".

كانت تنكمش وتنبسط آتية من جاوة، من سومطرة، من جزر القمر، وتحوّم حول تلك العصا الصغيرة وتقول: بماذا تحس؟. ويذكُر أن أباه اصطحبه مرة واحدة فقط إلى هذا المكان في إحدى رحلات صيد البط، فنظر مباشرة إلى النهر كله وليس إلى جزء منه بالتحديد. وعندما كانت تعبر تلك الأسراب السوداء إلى صحاري آسيا، يقول له: " مازلتَ صغيراً يا ولدي، قد تحتاج إلى عمر آخر لتعرف متى يجب أن تضغَط على الزِناد". فيُصر على تعلم هواية الأب ويقعد ممتنعاً عن إكمال الرحلة، لكنه يتشبث بتلك اليد الضخمة، ويأتيه صوت مرتفع، يَتَسَكَّب ذلك الصوت من السماء الداخلية: " زَعلتَ يا ابن أُمك؟ خُذ أطلق. أُقتل البط كله ". فيُطلق ولا يُصيب لأن البط لن ينتظر طَلقَة أخرى. " أرأيت؟". يقولَ: "أنتَ الذي تمنعني ". فيستفسر الصياد: " كيف أمنعك؟ هل أمسكتُ يديك؟". " ولكنك تخجلني".

" جَرّب. خُذ جَرّب مرة أخرى.. ها، لن أتكلم.". " لقد طار البط يا أبي". " انظُر بمحاذاة الشاطئ، فإن وجدتَ بطة ميتة فأطلق عليها.. ها ها." ها ها ها هئ. تقول: لَم تضحك يا شاهين؟. فيقول: لَم أضحك يا عزيزة؟ لا شيء، فقط إنه البط الميّت. ثم ينظر إليها بإنكار، ثم إلى سُحُب العصافير ــ في صحاري آسيا ــ تلك الهابطة نحو أشجار جُزُر النهر: امرأة أمام النحاس. امرأة أمام الفراغ كصورة من صُوَر عواد. يحوّم حول تلك العصا ويمد ذراعه عبر الهواء الفاصل بينهما؛ ذلك البهاء والرضى، يتلمسه لكي يتأكد أنه حقيقة واقعة في البرودة.. وينغمس: بريق العينين


Twitter: @ketab_n

وبـــريق المـــاء. ما مِن أحد يبتعد مسافة خطوة لحظة النهر الأحمر وحجـــوم الـــبط القديم فلا يدري ما جدوى التصديق. حقيقة: ما جـــدوى التصديق؟. ألم تقع تقريباً؟. صورة مُثبَّتة في فراغ العزلة.. أمـــا الآن؛ يمد يديه ليلمس الأنثى فيُصاب بالدوار. وتُبدل الصورة لونهـــا ثم تـــتحول إلى مجرد شكل. ورغم ذلك، يحوم حول العصا الصغيرة بعدَ نوبَة الغاشية. يستطيع شم رائحة الإبط والشَعر، ذلك الـــبهاء المحقـــون تحـــت الجلد وفي بريق العينين والسحنة النحاسية الرطـــبة. يود لو يسمع رَفّات قلبها تحت طراوة النهد الأيسر، وهي تعـــضّ شـــفتها السفلى، في الأصل: تعضّ بكاءه الداخلي، فيقول: فيما مضى كان اسمها عزيزة، أما الآن فإن اسمها عزيزة. عاصفة في الرأس أو خَدَر في المفاصل. تقريباً، سقوط في زيت كثيف ويتلاشى كـــل شيء خارج حدود إضمامة العين، فيحتقن الجلد مرة أخرى بلون السطح الجَعِد المصبوغ بنحاس الشفق، فلا حاجة للتفسير ثمة. يريد أن يقول شيئاً، يفتح فمه... لا جدوى. يحدق في ذلك التزول الجمـــيل لطرفـــيها المتباعدين وموازاة الحاجبين لحظة الاستفهام، ثم يهتز برؤيتها كاملة أمام الفراغ.

جعلته هذه الأشياء خائفاً. يريد أن يَهرب، ويقول: تمسّكي بي حـــتى لا أهرُب. وتتمسك به حتى لا يهرب متوسّلة. مع ذلك فإن اصطدامه بصوت بشري لم ينقذه من بقعته السوداء فيقول: تمسكي أكـــثر. وتمســـح عنه الإغماءة بابتسامة مُدبّبَة وتقول: هناك، عند كـــثافة الأشجار، تلك الأغصان المغموسة في الموج، سنجد قارِب العَـــم عـــارف، ونذهب في نُزهة صغيرة. ويجيب: هناك الأغصان المغموســـة في قارب العم، لن أذهب إلى نزهة صغيرة لأنني لا أحب


Twitter: @ketab_n

الترهة الصغيرة و لم أركب قارباً صغيراً من قبل. تقول: بل سَنَركَب القارب، يجب أن تتعلم مثلنا بحيث تستطيع الذهاب منفرداً. ويحوم حول نفسه قائلاً: لن أركب القارب وأتعلم منفرداً مثلكم. وتصرخ به: بل ستَركَب مُرغَماً. فيجيب بهدوء أكثر: بل سأركب مُرغماً، نعم. وتمشي أمامه عارية القدمين على معجون الرمل، فلم يترَع خُفيه كما فعلت بل تركهما يرشانه بالرمل.

وتنحني عند الأغصان المغموسة فيبيّن القارب، يتفحصه: عمودان، شبكة صيد، جفنة إسفلتية، وتد وحَبل، كيس فيه شيء. وتقول: اصعَد. بعدما تفك العُقدة. فيقول: سأصعد، ولكن إلى أين؟. تقول: إلى النهر. ويقول: هذا هو النهر، فلماذا نذهب إليه؟. وتضحك، ويضحك أيضاً، ثم تَركَب أولاً وتتناول يده وتستعمله فيتأرجح بعد أن ينقل قدمه إلى الجوف ويغمض عينيه ويُوَتّر ظَهره فتأمره بالارتخاء.

كان النهر أملس مغطى بعيدان الطفو على جانبي القارب، وأسراب أسماك صغيرة فضيّة تهاجم الخشب ــ بعدما فتح عينيه يبصر عموداً في حركة غطس وارتفاع فيتبين أنه مجذاف، ويبصر الشاطئ مبتعداً بخطوة عملاق، والقارب يندفع أكثر، على مهل أحياناً نحو زعانف الأسماك الكبيرة التي لا تُجيد السباحة في الشاطئ. ينساب في نشاط حركة الأمواج.. على مهل. تيار صنعَته حدبة صخور نحو حدبة صخور أخرى. وتنغلق الرؤية في ظل الجبل أمام مَهبط الشمس فوق أوراق الأشجار الدائمة الخضرة فلا يبقى سوى التيار السعيد المُجَعَّد مُعَلّقاً في الأفق بمستوى أهداب التي ارتعشَت لتنفض لذة النعاس. في الأصل: انتفاض العصفور



Twitter: @ketab_n

لحظة الزواج. وتُطلِق صوتها في أغنية تتحدث عن معنى الحياكة فلا تلـوث انـتظام حـركة المجذافين. يدخل الماء عبر ثقب سريّ إلى الكـيس الذي فيه شيء. ويقترب الخطر بدنو القارب من الصخرة الكبيرة ثم يحيد قليلاً إلى الشرق فلا تقطَع أغنيتها لأنها لم تُرخِ يديها على العمودين.

تأمـره أن يغـترف الماء بجفنة الإسفلت فيفعل بحذر أولاً ثم يتعلم.

نقول: إن الأمر صار مُسلياً. وكانت هي أيضاً؛ عزيزة القطان تأمر بأن يتسلى لكي تتسلى أيضاً، بعدما ابتعدا عن خط الخطر.

يعتقد أنه أبصر دبيباً على الصخرة. أجل، دبيباً على الصخرة، عـندما انشَـغَلَت بـإدارة القـارب حولها في طريق الرجوع نحو الأغصان المغموسة...

لامـسَ خشب القارب أعشاب النهر؛ الرؤوس فقط. جوف في مسـاحة ضـائعة مدفـوع بقوة رقة الأمواج المتتابعة المتساوية المنحنية على بعضها بعطف. أخوّة الأمواج. حنان يحضن حناناً. أُم ترضـع أماً. وتقول له: اقفز. ثم تعقد الحبل حول الشجرة. تركض في معجـون الرملِ ثم تُسقِط نفسها ناظرة إلى بعض غيوم الخريف الذاوية.

يقول: أعتقد أنني رأيت... ثم يجلس أمام زفيرها، تقول: نعم، إنـه نمـل أسود يعيش هناك. يقول: نعم، نمل أسود يعيش هناك، فماذا يأكل وسط النهر؟. تقول: ألا تعرف؟ يأكل أي شيء؛ الحَبَّ أو السُـكّر، مثلما تأكل أية نملة. يقول: آه.. يأكل مثلما تأكل أية نملة الحَبّ أو السُكّر، أعرف، ولكن من أين؟ أعِني، من أين تأكل؟.



Twitter: @ketab_n

فتشير إلى السماء: من هناك يأتي طعام النمل.. وطعام البشر.

ويحـــوم حـــول تلك العصا. ما من أحد يبتعد عن نفسه لحظة الـــنهر الأحمر؛ أسراب وراء أسراب تكتُب أرقاماً في الهواء، تُجزئ الهـــواء بأجنحـــتها وتعـــبر إلى صحاري آسيا حيث خط الاستواء الشـــمالي، والـــزنوج على الصخرة عبر نشرات الأخبار: الإرهاب العالمي، وليس الحُب العالمي. أخبار مجاعة النمل. شاهين ــ شاهين ابـــن الصـــياد ــ ابن الظهيرة القائظة ــ ابن قارب الخشب ــ ابن حصـــى النهر البليل بزيت الرخويات ــ ابن الخريف حيث شُباك الضـــحك. حـــتى؟. تقـــول إنها تعرفه بفضل صخرة النمل ــ ابن العاطفـــة الأولى حـــتى آدم ابن حواء. وتقول إنها تدري أن صخرة النمل واحدة من معجزاته عندما تشير إلى الأزرق المرتفع فوق مياه الـــنهر أحـــياناً، فـــلا يعلم ماذا يحصل حين يمر الصيادون ويثيرون الســـؤال نفســـه: ماذا يأكل النمل؟ ثم يُلقون بعض الشعير. أتدري مـــاذا يحصـــل؟. يقـــول: نعم، أدري ماذا يحصل، سيفرح النمل بالشـــعير. وتزجـــره: كلا لن يفرح النمل، ولكن الزورق ينقلب. فيضحك متذكراً أنه قرأ عبارة على باب حمّام: " لماذا تكتبون هذه السخافات؟". فتقول: ماذا تعني بالسخافات؟. فيقول: لا شيء، لا أدري...

استَوَت تنفض حبات الرمل عن شَعرها وتُسَوّي الخيط القطني الغلـــيظ، ثم ســـارت أمامـــه على حافات جُروف رملية أمسَكَتها جـــذور الطَرفَة عن السقوط. وما من أحد يبتعد عن الطفولة مسافة خطوة. رأسه على فخذ هاجر بدعوى البحث عن القمل وهي تعلم أن شَعره مُعَطّر بالصابون. لم يكن يفهم معنى القمل عندما غاصت



Twitter: @ketab_n

أذنه في الدفء وأراد أن يغفو حتى ينتهي عوض القصاب من سلخ الذبيحة. يقول لها أنه يريد الدفء بسبب القمل. لكن الأصابع الرشيقة تفرك شَعره فتصدر عنها رائحة السُوس.. آه، السُوس!! — السُوس أيضاً حول العصا، أسفل بطن البقرة المذبوحة؛ بيضاء حارّة تنبض تحت السكين. دم أحمر يسيل ثم ينجمد. وإن شيئاً ما، أسفل البطن تقريباً؛ دفء البقرة تحت قلائد القرنفل بالضبط حيث تنتظر الفتاة في آخر الطابور سقوط اللحم في صحنها وتشكو من قصر جدائلها بعدما سمعَت وصية عجوز، بأن صَفار البيض مع الروث يمكن أن يطيل الشَعر. كان فخذها يتنفس تحت أذنه. فخذ البقرة. فخذ عزيزة. فخذ هاجر.. بينما القصاب يضحك ويحك مديته على اللحم الحار ويتأكد أحياناً من خيط سرواله بحجة إراحة ساقيه من تعب القُرفصاء. فتاة أخرى تدفن شَعرها تحت منديل أسود وتتجنب مخاط الصبي المجاور عندما يعطس. وحين اشتد القيظ، بحلول المساء، قال: لديّ في شق الجُرف، تدرين؟ إن طائر الشقراق من أحسن الطيور لأنه يضع بيضتين في ظل حفرة، ويخاف عندما أنظر إلى عشه، أعني أنظر إلى عشي، من خلال الحَطَب...

مشَت باتجاه انفساح الممر الرملي. ثمة طين جاف مُشَقَّق، أشواك وآثار مخالب لثعالب عبَرَت في الليل.

فكّر، وعيناه مشدودتان في تضاؤل الضوء، بأنها تعرف كل شيء عن المكان. واعتقدَت بأنه سيُحدثها عن شعوره بالتفاهة وأفضليّة الموت، وأنه يُفكر جاداً بقطع التنفس. فأخذَت تعصر نفسها طوال طريق العودة لكي تفلح في اسقائه قناعة الرضا وتناضِل لتحويل عناصر التعب إلى بريق...



Twitter: @ketab_n

حســـب فهمها: ربما صار مقتنعاً بقولها، ولكنه لا يفهم معنى أن يتعـــلم المـــرء شيئاً من رحلة القارب، ووصل حماسها إلى درجة الضحك من طيران القُبَّرة وثقوب الجرذان في السواقي. وبدا لها بأنه على وشك، ربما في رحلة أخرى، أن يُغيّر نظرته السوداء إلى نفسه كخطوة أولى لإزالة موانع الحَذَر بينهما. لكنه اكتفى بالإنصات إلى حفـــيف ثوبها كدبيب في الظلمة، ويجيبها أحياناً إجابات بعيدة عن السؤال... فسارت بيأس، إذ لم يكن الكلام مهماً بعد ذلك..

تقـــول: فهمـــت. ثم تنفجر ببكاء مُرّ مُديرَة وجهها نحو آخر دفقـــة مـــن الـــنور، فرأى دمعتها الصافية لذيذة لأنه أحس بندى الأعشـــاب الـــتي نبتت في الربيع الماضي بين شقوق حافة النافذة. وأراد أن يقـــول: لا تبك أحسن. لكنها لم تنتظر منه قولاً، فدفنت وجههـــا بكفـــيها وهروَلَت صعوداً على التل ثم بدأت بالنزول من الجهـــة الأخرى، خطوات الانكسار بعد الهجران الأول. خطوات. خطـــوات. تصعد شتائم الغروب إلى سّحب الشفق كالتفريغ بعد امـــتلاء، فيما يرى الحالم أنه مجرد قشر رقيق مُعَلّق في غرفة خياطة؛ بمعـــنى أنـــه معرض لطريق الإبرة، يتنسم غلظة هواء الخريف، بارد ومُفَخَّخ باعترافات سطوة الفراغ.

خطـــوات أخـــرى. يرى أنه يقترب من الغطس ثانية، وينظر وجهـــاً في الظـــل فيقول: من أنت؟. يقول الوجه: أنا أمك هاجر، خفـــتُ علـــيك، انتظرتك، أين كنت؟. فيجيب: كنت في الماء ثم خرجـــت إلى اليابســـة. ويُحدق الوجه الذي في الظل بحنان يفوق الحكمـــة. ربمـــا بإشفاق يفوق نفاد الصبر. وجه ذو تجاعيد، تجيب صـــورته عـــن عدد العقارب التي لدغته، ويترقرق فيه ماء الساقية


Twitter: @ketab_n

المالح. تظهر أسنان نخرها النيكوتين دافعة لمسافة هلاك نفس الجوف العنبري. في الظل أيضاً أصابع صريحة تشير إلى كف عازف منسيّ، تغطي الجزء الأسفل؛ جزء طفلة متغوّطة تلحس تراب الأساس.

خطـــوات الانكســـار بعد الهجران الأول. خطوات أخرى. يســـقط التآلف مع المحيط صعوداً حتى الشُباك مروراً بلفظ إذاعات لحظـــة هبوط المساء الكثيف في أواني الطبخ وحدوث زلازِل تشيلي عـــبر رغوة الصابون تحت باب الخشب انتهاءً بخروف يمص الضرع بيد المرأة التي ليست مرأة وإنما دبابيس تِبن دَخَلَت الجلد..

يصـــعَد بعدما صار خواء. صار شيئاً، مجرد شيء. خواء يمشي إلى خـــواء فيتســـلل خَـــدَر الـــتجربة في الباقي ويمتص الوحدات والكـــلمات والشرطة على خشب البيك أب وأحشاء ثور طُبِخَت بمحـــتوياتها وغصّة حنجرة مخدوشة بشفرة الحلاقة وبراءة من أصابع القدم ونظرات بُوميّة بعد كل هذا، فهو سعيد حتى لحظة: "فهمت" ثم انفجرَت ببكاء مُرّ مديرة وجهها نحو آخر دفقة من النور.

وجد في ثقوب العصافير، تحت السقف القصبي لبيتهم المستعد دوماً للنصر على العواصف، بعض الأمل في أن يكون مرناً، خشبي الســـاقين عـــلى ظَهر ـــ جوف القارِب، رغم أنه استمر في التأمل أكـــثر من عشرين خريفاً ليجد الفكرة، ولعله يجدها بعدما يتحوّل العصـــفور إلى بـــبغاء، والسمَكَة إلى ضفدعة، ويطول عمره لكي يـــتمكن من التحذيف منفرداً فيعلن اكتشاف مبدأ الضحك وسط ساحة مُسَوَّرَة بالعيون والأكُف المُصَفّقة.

الضـــحك دائمـــاً. الضـــحك. الضـــحك. الضحك، إلى ما لانهاية... كان عواد يُدلي رأسه من الحائط حين توجهت إليه. وقد



Twitter: @ketab_n

فكـــر بظهور شاهين كضرورة مجردة عن أهمية الهدف، وقد جمعهما اللعـــب عـــند الســـدرة في رصـــيد من التجارب الحدسية. أعني: الاستنشـــاق والدغدغة. أعني: غباء الآمال ورشوة الحلم بالوقوف عـــلى الأحجـــار. أعني: خدعة الطول. وكانت ارتفاعات جُروف الســـيل بمثابة المُنجِد من الظهيرات القائظة، لأن ظِل الحمار لا يسع اثـــنين بســـبب تقافـــز الجَـــراد الذي ينقله إلى وضع مواجه للريح لتخفيف مشَقة تحريك الذيل؛ فهو من القصر بحيث لا يصل الرقبة، كمـــا أنـــه يريد الفيء لرأسه المدبب كما يُريدان. ومخافة الضواري اللائـــذة: واحـــدة لها بُوز مستطيل. يرتفع الاستنشاق تحت وطأة الحـــذر، إنها رائحة شاهين، كانت شبيهة برائحة المطر بعد القحط. أو رائحـــة الـــتمر المدبوغ، أو نحو هذا الحجم بالنسبة إلى ارتفاع الجُروف.

ورغـــم الفـــارِزة الوقتـــية الكبيرة بين سحر الجروف وبداية الظهـــور بعد الغطسة، فإن رائحة المطر بعد القحط تقريباً، رائحته بعـــد تـــبدّل الساعات العادية بأخرى إلكترونية، كما هي وهو لا يشـــعر بحاجة إلى سؤال عادي: ماذا فعلتَ طوال هذه المدة؟. لأن ذلك سينكشف في ليونة تحمل الهزء والإحساس الشبيه بالمرض لدى كل منهما.

ومهمـــا كانـــت الوسائل ـــ حسب اعتقادي ـــ فإن شاهيناً دخَـــل إلـــيه زائراً ليخرُج صديقاً في صورة إعلان أمام الناس لأنه بحاجة إلى نصر الاكتشاف أو خبرة الفشل.

كـــان الظلام يترسب تباعاً في المنخفَضات عندما يُدلي رأسه ويراقـــب أنحـــاء الطريق معاهداً نفسه على إفشال التخمينات؛ بأن


Twitter: @ketab_n

العلاقة ستنتهي بفاجعة الإشباع أو اللاتفاهُم. فلطالما أهدى إليه الصفعات بعد خلاف حول الأقوى؛ الذئب أم الضبع؟ ثم يعودان في اليوم التالي إلى القرار بأنهما متعادلان في القوة، فلو كان العكس لاختفى أحد الصنفين؛ إما الذئب أو الضبع.

يقول: كانت صغيرة، أما الآن...؟. يقول: كانت صغيرة فذهبت. وهم يقولون: العلاقة على وشك النهاية. لكنه يقول بأنه على وشك الإمساك بالسر الذي يأتي بسرعة ثم يقفز إلى الهاوية، ليس على طرف اللسان فحسب، وإنما في جرَس القلب تقريباً. استنتاج ما، بأن الدوام يأتي من الكشف المستمر دون حاجة للحديث عن العمق أو السطح.. إلا أنه سيحتاج إلى جهد كبير لمعرفة شاهين، ولا يحتاج لبعض هذا الجهد لمعرفة عزيزة، لذلك سيراه من خلالها في الممرات نفسها. ربما، سيدفعه الحُب إلى اختيار مكان خاص لكي يعلن عن اكتشافاته: التفحص على عجل لا يحتاج للدقة في فرز الفواكه الفاسدة أو النقاش حول إمكانية إنبات النخيل ــ أعني نخيل الجنوب العراقي ــ في الحائط.

أقول: ربما. وكلمة (ربما) أدق الكلمات تعبيراً عن الاحتمال. إلا أن السر الذي تَعَلَّمَه عن الصبر أثناء دراسة تشريح الثيران أو مراقبة مواسم الحصاد التي تُغذي العاطفة: البذار المُسمى بتعب البداية ◄——— النوم المُسمى بانتظار الرزق ———► الحصاد أو نتيجة الصبر على الانتظار. وربما تأتي السنابل سوداء بفضل الزوان، مع ذلك فإن الجميع يستعدون للبذار القادم لئلا يشعروا بضياع الجهود. ومع ذلك، ربما، سيعتذرون للمحراث، بأنهم تعلموا فنون الزرع.. على الأقل. يحك ذقنه بسبب البعوض ويرى


Twitter: @ketab_n

الهـبوط بعد رحلتها معه. ها هي، تبدو كعلامة في الظلمة. يسميها الحواجـز النافعة، كالآثار المهَدَّمة النافعة. لعلها ستزداد سُمكاً بعد نـيّة الإشارة في طلب الاعتراف. أقصد سُمك الحواجز، لا سُمك عزيـزة. لـذا لم يعد ذكر أنها قالت لـه مرة إنها مرتبطة بصاحب الـنظارة السوداء. شخص قريب. علاقة شُبه رسمية. غير أن ذلك الشخص كان دنيئاً بالقياس إليه كفنان.

تقـول: مرحـباً.. صـديقي العزيز. لأنها فهمت نواياه رغم السواد. ويقول: مرحباً. فقط، لأنه فهم أيضاً. ويا لـه من صعب ولكنه مستعد.. هذا هو المهم. يعرف أن صديقه صعب، ليس هذا هـو المهـم، بل: مرحباً. كذلك: هذه أنفاس الصعود.. ما أطيب الصـعود وأنتِ ترين الظلام قبل القمر، اللعنة على البعوض.. أُف. ثم يدخُل في محاسبة شديدة لانتزاع اعترافها كما وعد نفسه.

واعترفَـت له، بحـذر، بأنها لم تصل بعد إلى حد النطق بـ: "أُحـبك" دون الحاجـة للمقدمات. وأن علاقتهما وصلت أقصى درجات الصداقة. ومَن يدري ماذا سيكون بعد الدرجة القصوى؟. ثم اعـترف لهـا بمعاناتـه تجاهها وتجاه نفسه.. وأخيراً تجاه الجديد شاهين.

تطلُـب الإذن بالانصراف بعد وداع بارد، بلمسة كف باردة مـن فـوق الحائط. سنلتقي غداً. إنشاء الله... ويعود إلى مشغله متلمسـاً طريقه بين الأخشاب حينما بدأ عمل الأرضة على ارتفاع خمسـة أمـتار فوق النهر البعيد. يحك ذاكرته فتعمل بشكل مُدمر واضـعة احتمالات القصاص قبل هذه اللحظة. غير أن الاحتمالات كانـت أشد وطأة مما توقَّع، بفضل الثقة الزائدة التي أجازها لنفسه


Twitter: @ketab_n

لحظـــات الوقوف أمام اللوحة، مُدعياً، بفعل تأثيرها، بأنه قادر على صـــناعة المرأة كما يفهَم المدرسة الانطباعية. هذه رغبته تقريباً، لأنه يـــرى الشجرة بيضاء على خلاف رؤية الناس. أقول: إنه تعلَّم من المذابـــح الزرقاء الخاصة بالسيد الأجنبي؛ هنري روسو. تلك التي تمد الأشـــياء إلى جوانب الفراغ بحيث تجعل الموت لعبة سحرية وتُعطي الحياة للجمادات. أعني: صورة الغجرية النائمة تحت القمر أو تحت لحية الأسد بلا أي خوف. منظر شبيه بمناظر الاختناق.

مـــن جانـــبه، حـــاول اعتبار تصريحها مجرد تبرير لكي تُمَتّن علاقـــتها مع صاحب النظارة السوداء الذي يضرب رأسه بالحائط حـــين يكتشـــف أنها وقفت مع غيره وتحدثا طويلاً عن تكاثر دودة القزّ.

وبـــدأ الألم مـــنها. مـــن عزيزة. لا بديل عن المرأة الشيطانة، الضـــحكة النادرة، البياض الهلالي في العينين، الالتفاتة الذكية لأنثى الـــرجل تلك. قالت: " لكَ عالَم خاص... أما أنا فلا أستطيع."، عـــندما كان يبني أحلامه على أمل وجود امرأة تضَع العاطفة فوق واجـــبات المطبخ وتقول مباشرة إنها عاجزة عن فهم جُمَل ما بعد الـــتأمل بمعزل عن الحس، وقد عَبَّرَت لـــه مرات عديدة، كفرصة للانتباه، عن تعبها في محاولات بلوغ الأطراف الدنيا لحلمه. مرة من خـــلال هدية تُمثل تقويماً مُزيّناً برسوم عصر النهضة، حيث كَتَبَت بعـــد يومين من التفكير باختيار العبارة المناسبة: " إلى أعظم رجل عرفـــته في حـــياتي و..." وتحت تأثير العجز نفسه، والبراءة الخبيثة ذاتهـــا أكملـــت جُملتها: ".. وأعز صديق.". وأعز صديق. وأعز صديق... إلخ..



Twitter: @ketab_n

خرجَ إلى الظلمة ليرى نفسه بوضوح.

فكّـــر شاهين بالانصراف إلى الشاي لكي يلعب لعبة التوازن، فقابله شخصٌ في الشُباك عبر الزقاق. ربما شاهده معهم هناك كلما التجأ إلى المسند. وجه ذلك الرجل.. هناك، يحمل بقعة حمراء بحيث لا يســـتطيع الصبر على المكوث في مكانه فينتقل إلى الزاوية ليتخيّل الشخص.. فأين الآخرون؟ هناك فقط. لا في مكان آخر، مقاعدهم البيضـــاء ذات المساند العالية التي تسبب لـــه الضيق بخلوّها منهم. أين هُم؟.

يمـــد ذراعـــيه. مـــا أروع أن يمـــد المرء ذراعيه!!. يمدهما إلى الجانـــبين، إلى الأعلى، إلى أي اتجاه آخر.. ما أروع ذلك!!. يمدهما فـــلا تصطدمان بشيء. بدون أمر ولا طَلَب ولا رجاء.. ولا حتى تجسس. ولكنه يشعر بالحذر تقريباً. لا شيء مؤكّد، لا شيء...

يشـــعر بحـــرية الفـــراغ عندما يَقطع مسافة معيّنة بين النافذة والـــزاوية، أو بالعكس. يُدلي رأسه بعد اختفاء الشخص ذي البقعة الحمـــراء. تتشـــكل زوايـــا الأشياء كسهام تتجه إليه تقريباً فيَرى خطـــوات الـــناس الراغـــبين، بمحاذاة مجرى الزُقاق، بالوصول إلى بـــيوتهم. يـــراهم بـــلا نزاهة معروفة يحملون لأولادهم عشاء الليلة الماضـــية، فـــيذكر تلـــك الجُملة؛ صيحة بلا صوت. جُملة قديمة: "كلهم وسخون.. حتى أنا وأنت.". ويجلس مادّاً ذراعيه، ما أروع ذلـــك!!. ويُحرّض نفسه على قبول فكرة المرض. غير أنه استيقظ نهائـــياً مُعـــيداً إلى نفسه كلمات الأغنية التي تحدثَت عن الحياكة. وقـــائع رحلـــة القارب مرة أخرى. صور واضحة. يشعر بأنه على وشك الانفعال، مُندهشاً تجاه قُدرته الجديدة في قول الكلمات التي



Twitter: @ketab_n

أراد أن يقولهـــا لعزيزة، فلم يستطع. واعتقَدَ أن استمرار هذا الوضع كفيل بإحداث بعض التبدّل في حياته.

يُطبِق فتحيّ الإبصار فتأتيه الصور قريبة ملوَّنة طافية فوق مياه تـــزل مـــن السماء. يهز البرميل الذي يستخدمه كمقعد، في وضع الابتسام، فيرى أنه، ربما، سيموت غداً.....

يفـــتح عينيه؛ صورته الكابية في الزجاج، وهو يسمع أصواتاً خاصـــة به: موت فأر تحت القَدَم، محادثات بين طابوقتين، شكوى أرجُـــل الطـــاولات بســـبب تعب الوقوف والرفع، تنفُّس تروس الساعة، أصوات لا مكان لها ولا أصل... أصوات.. أحد...

يُدلي مرة أخرى؛ ثمة هاوية باتجاه القاع تقريباً. ليس ثمة هاوية باتجـــاه أي شـــيء. يرى أنه سينطفئ. ينطفئ. ظلمة كثيفة دَبِقَة. ظلمة دبقة..

نظـــرة إلى الأعـــلى؛ تبتعد السماء مثل فقاعة سوداء، وتخرُج رائحـــة الوبَـــر مـــن حيوانات الوادي. يفكر بأن الرجل ذا البقعة الحمـــراء قـــد نـــزل بحرص درجات السلّم بحيث لم يستطع رؤية أقدامه.. وسمعَ صوت سقوطه في مكان ما...

ظَـــل على حافة الشُباك. أقصد: حافة الكرة الأرضية. يُسند خديـــه بـــيديه وينظر صورته الكابية بحياد تام. يشعر بأنه لا يرغب بـــالخلود، إذا كـــان ثمـــة خلود في ذلك الفراغ، حيث رأى انتهاء الفصول دون أن يتعلم كيف يكوّر طينة ليشتق منها بَدن عصفور. ولم يفهـــم عناصـــر حَجر ساكن، كيف مَرّ خط كبريتي ونَصَّفَ الحصـــاة؟. ولكنها مغرية! جذّابة، ناجحة تقريباً. لا أعني امرأة، بل أعـــني الهاوية. بالضبط: الظلمة. النوم بعد الضحك. يقول: مرحباً



Twitter: @ketab_n

أيها الأسفل.

وفي الزجاج، بدلاً من الصورة الكابية ـــ صورته، أبصَر زبيبتيّ هُديها ضامرتين كَسَجين، صفراوين بلون القميص ـــ قميص القتل الـــذي تســـتحقه. فقالت لـــه الأصوات: خُذها لك. فقال: بأي شـــيء آخذها وقد استعملتُ يديّ لإسناد رأسي؟ إذن، بماذا أُسند رأسي؟. ثم يتزلق إلى الخلف بتشجيع منه. يَسمعهم فيقوم.

تَدخـــل المرأتان بخطوات تدل على الاهتمام. كانت الأولى قد اســـتبدلت قميصـــها بآخر مُعَلَّم بعلامات السنك في ورق اللعب، وهـــي تغـــرز سيجارة بيضاء طويلة في طرف ابتسامتها المتعجرفة وتنفض رأسها أمام الطاووس، باتجاه الباب؛ حيث تنبع كُرة سمراء، كـــتفان ممتلـــئان، ثم يظهر كله، الرجل السمين الأسمر. اسمه صابر، لأنهـــا قالـــت له: مـــا كان عليك أن تدفعها هكذا يا صابر. ينبع الـــرجلان الآخران؛ يلبس نفس البدلة. أعني: لكل واحد بدلته التي تشبه بدلة الآخر تقريباً. يتدلى من عنقيهما حبلان عريضان أحمران. يـــبدأ الجمـــيع بتمزيق موضوع مهم فيخيب شاهين. يرتفع صوت مطـــارق من الأسفل. أي أسفل أعني؟ المهم أن هناك أسفل يُطرَق بمطـــارق ضـــخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط. تقول المرأة الأخرى: أوقفوا هذا الطَرق.. نريد أن نضحك. ويقول الآخر: لن يمنعـــنا الطَرق. ثم يُسقِط نفسه فوق أقرب مقعد ذي مسند أبيض، لأنه واحد من المقاعد ذات المساند البيضاء. ويقول رجل من ذوي الحـــبال: دعيه يكمل يا فاتن. يقول الآخر عبر فتحته المتقاطعة مع الحَـــبل: لن يمنعنا الطرق من أن نضحك.. فلنضحك هيا. ثم يُسقِط نفسه فوق أقرب مقعد ذي مسند أبيض لأنه واحد من المقاعد ذات



Twitter: @ketab_n

المساند البيضاء المتبقية. تَذهب المرأة الأولى إلى أقصى الغرفة فتَرفَع، على الأصح، تسحب سيجارتها عن ابتسامتها المتعجرفة ليُتاح لها الكلام وهي مُلتفتة عنهم تقريباً: جَهّزوا الأدوات ريثما أعود من المرحاض. ويأتي صراخ طفل من الأسفل الذي يُطرَق بمطارق ضخمة تضرب أشياء حديدية فيهتز الحائط، المطارق تَطرُق، والحيطان تهتز فيسقطون تباعاً على المقاعد ذات المساند البيضاء. فإما أنهم مُتعَبون، أو يمشون بلا أحذية. أو أنهم ينتظرون صاحب البقعة الحمراء أو المرأة القائلة:.. ريثما أعود من المرحاض.

كلما ازداد الطَرق ازداد معه صراخ الطفل، فيناديهم شاهين بصوت خفيض لكي لا يسمعوه: أولاد العتر، أوقفوا الطَرق، فلا يحتاج رأس الطفل إلى تعديل أكثر، أوقِفوا هذا... أو. يخاف على المطارق. يقول أحد الرجال وهو يفك الحَبل الأحمر عن رقبته ويُلقيه نحو الزاوية: أشك بنجاح العملية. فيرد الآخر وهو يفك الحَبل الأحمر عن رقبته ويُلقيه نحو الزاوية باتجاه مكان سقوط الحَبل الأول: كلا يا فيصل، سننجح، مع أن الجدران قوية، لكن الرجال أقوياء أيضاً، والمطارق قوية.. وغداً؛ برررر... تُفتَح الحنفية فيتدفق الماء. يرد الأصلع ساخراً: ناولني الصابونة هُبهُب..

تصعَد اللطخة الحمراء أمام صاحبها، ثم يصعد الرجل خلف لطخته: كل شيء على ما يرام، اتفقتُ مع حلاّب حول عدد الأكياس ثم أرسلتُ السائق إلى المدينة ليجلب الحنفيات والأنابيب والبيرة. يا جماعة ألا تأكلون؟ لقد ذبحني الجوع بشرفي. يترلون لملء الجوع...

ولّما كان غريباً عنهم غربة الأعمى عن مقعده فقد وصل إلى



Twitter: @ketab_n

طـــرف الشك بأنهم لن يفعلوها ثانية. حقاً لقد اندثَرَت تجربة النهار باعتـــبارها غير أكيدة الوقوع. على الأصح؛ أنها لم تقع أصلاً. كان ثمـــة امـــرأة في النهر تُسمى عزيزة في بعض الأحيان، ورجل آخر ولوع بالكلاب الميتة ومربعات الخشب، ربما كان اسمه جَراد؟ وربما عواد؟ وربما لم يكن لـــه أي اسم.. مَن يدري؟.

فـــأين نهر القارِب وجَبَل الأغنية التي تتحدث عن معنى الحياكة عـــندما كانت اليابسة تنبض بالنحاس وتمتد حتى سُحب العصافير الهابطة نحو عقدة الحَبل؟.

المطـــارق تطرُق فينقطع صراخ الطفل، وبماذا سيصرخ إذا فقد رأسه؟. يقول: ها هُم. ليتأكد بأن الحقيقة الوحيدة؛ هُم. يتأكد مرة أخرى، فما علامات التأكد؟. كانت ظِلالهم على الحائط تمس ذيل الطـــاووس مـــن الأعلى حتى زاوية السقف مروراً بذكرى المُعَذَّب صابر، وذكرى أشكال أنوفهم على الحائط كمناقير طيور مُنقرِضة؛ طيور ما قبل التاريخ. إنها حكاية العادة اليومية وما عداها فمَيّت.

يـــنوي تســـلق الـــرَف المُثَبَّت فوق رأسه بعدما لمس البرودة الخشـــبية، بـــرودة الجسد لا برودة الخشب. وإن أية محاولة كفيلة بكسره من المنتصف، كَسر شاهين لا كسر الرف.

وتســـلل بحـــذر واضـــعاً أنفه على شرشف الغبار ولكنه سمع الباب؛ طق طق طق. يقول الطَرق: انزل يا بُنيّ، ولكن على مهل.. درجـــة درجـــة كـــيلا تسقُط يا حبيبي، افتح يا وَلَدي ألا تأكُل؟. فيجيـــب فمه نافخاً غبار الرف: طَرقٌ من هنا وطرق من هنا.. ألا تســـمع؟. يقـــول الباب: أنا التي تطرُق فكيف لا أسمع؟. ويرد فمه نافخـــاً مـــا تبقى من الغبار: أعني الطرق هنا، لا أعني الطرق هنا.



Twitter: @ketab_n

يقـــول الـــباب: تقصـــد الطرق عند تُجار القطن، هـــاه!!، لقد اعتذرَت فاتن عن ذلك لأنهم يُشكلون أنابيب الماء، فقلتُ لا عليكِ نحـــن جيران. يقول: نعم لا عليك إذا كان اسمهم تُجار القطن فإنهم فاتن، فلا تعتقد بأنني متمسك كثيراً بالرف لذا لا أستطيع أن آكل لقمـــة. ونادته بتوسل فعرفها قائلاً: كنتُ أعتقد بأنكِ الباب، وما هـــي اللقمة؟. تقول هاجر: أي شيء تسد به فراغ بطنك.. اللبَن مثلاً. ويترك الرف متجهاً نحو الباب: اللبَن؟!.. هل طلعَ الصباح؟. تصـــيح: أُووووه.. سأكسر الباب وأضربكَ بالعصا. لا لا تكسري الـــباب وتضربيني بالعصا، انتظري ريثما أعود من المرحاض. تقول: أي مرحاض تعني؟. فيقول: ما أدراني؟ الجميع يذهبون إلى المرحاض حتى فاتن.

يـــترل درجات السلّم على مهل درجة درجة لكي لا يسقُط. بيـــنما كـــان عواد يترل ليرى نفسه أكثر في الظلمة ويستقبل الحلم كقُمـــع بومضـــات ضوء داخلي يتسع فيُمكّنه من الإبصار وليس المشـــاهدة أبـــداً. ضوء ما في زاوية بعيدة ـــ إحدى زوايا نفسه، فيرتعـــش، بـــل يتســـع وهو يشعر بقوة مُدمرة بين أصابعه، ويُنكر المشـــكلة، إذا كانت ثمة مشكلة أصلاً؟، بعدما يصل إلى الرقص أو الطـــيران، ويلمس؛ أن كل وقوع في حياته يعني درجة أخرى نحو الصـــعود بمعـــية أدوات حفر الحواجز التي يراها من الأعلى مريض الـــلمس والبصـــر بحيث تَحوّلَت هاتان الأداتان إلى لوامس حَشريّة ضخمة تُسبب لـــه الألم لحظة اصطدامها بأي شيء لاسيما الهواء. الخـــيال منـــبع الكوابيس في الصحو وليس في النوم أبداً أبداً، يُبدّل نـــزعاته مـــن أقصى القسوة حتى أقصى اللين فيكاد أن يسيل نحو


Twitter: @ketab_n

وجـــوه الأحـــباب والثعالب وذكرى العزيز شَرار كمشاعر تشبه الأنانيّة لاسيما بعد المَغارِب.

أمـــا أنه لم يكن يهتم كثيراً بطقوس البيت. هذا صحيح. فلا يُعطي أهميّة لترتيب شَعره، وقد يَنسى ما إذا كان المفرق على اليمين أم عـــلى اليســـار، باعتبار أن تلك السمة خاصة بالرسامين وهي ضـــرورية لكـــي يتمـــيز عن الآخرين بالقَدر الكافي من الوسامة الطبيعية، كإحساس خاص بالجمال يُلغي الهندسية البشرية التي تجعل الإنسان شبيهاً بالدُمية. وأن عزيزة لن تُجهِد نفسها في التَعرّف عليه كل صباح عند تجمع الرؤوس.

بـــدأ هواء الخريف بالهبوب لاعقاً أطراف الأشياء ليُذكره بأن هـــذه اللـــيلة مجـــرد نموذج من ليالٍ كثيرة لابد أن يمر بها في طريق الوصـــول حيث يجنح قبله نحو المُدنً المُسرِفة بالتزويق قبل أن يَسمَع صـــوت الحصى المُتَدحرِج أمام قدميه، أو قبل طلوع القمر فلا تبقى هناك أهمية لجهاد الإبصار.

ليس الحال كما تَخيَّل إذن.

كانـــت الرغبة المُطفأة تبدأ منه لحظة مُلاقاتها وهي تهتز أمامه بشـــهوة تـــأتي من الخارج معاكسة للخوف، من مكان بعيد، من غيمة عابرة، أو من أي شيء صَلب كالحاضر الذي ينطق فيه اسمها فيـــتحوّل إلى ماضٍ بعدما ينتهي من النطق. كان ضوء الجمر يدبّ عـــلى جســـدها المدهون بعبق الأنثى البشرية وهي تغوص في وبَر القطـــيفة وتنظر إليه خائفة بطرف عينها. نظرتها تقول؛ اقترب أيها البعـــيد.. فـــيمد يديه فلا تصلان. ويسقط رأسها في حضنها و.. تمـــوت. يســـحب يديـــه فيرى ضوء الجمر من جديد مُكَرَّساً بين



Twitter: @ketab_n

انطـــباق الشفتين على كلمة حائرة. يدفع قدميه حتى النهاية البعيدة فـــيُواجه صورة اللبوة الجريحة. يفكر: إنها خلفه بالضبط. إنها هناك. ويعـــود بخطوة واسعة فيلقى ابتسامتها المُدَبَّبة.. ثم يعود إلى الطرف البعـــيد حيـــث يَفتَح الباب نفسه للضيوف. يمد رأسه؛ تأتي ذكرى الرقصـــات، رائحة الغبار العائم الذي لم يحط بعد، والسكون الذي يلف كل شيء باستثناء الجِراء الصغيرة اللائذة بضرع الكلبة الأم ـــ وتمـــوء بخفـــوت، أمـــا شَـــرار فبعـــيد عنها مسافة تُقَدَّر بحدود الاطمئنان...

ووجـــد نفسه في مشغله المظلم، يتلمس طريقه بين الأخشاب، قرر الولوج تحت اللحاف لكي يرى الصباح بعد إغماض العين.

جلســـوا منذ البارحة فقام الأسمر البدين من مكانه وقعد لصق المرأة مُحركاً رأسه بطريقة تشبه النَقر، فمه على فمها. بينما انشغل الآخرون بنقل بعض الأشياء من مكان إلى مكان قريب. يَنقُر فمها ثم يمسح فمه. يَنقُر عنقها فتمسح عنقها.

يـــبدأون بمرحلة أخرى من الهرج وذلك بالانحناء إلى الأسفل. يضـــحكون بعـــيون دامعة. يضحكون يضحكون... يجمع شاهين قوَّتـــه في محاولـــة للوثوب فيُفاجأ بالهاوية ويحس أنه صغير بحيث لا يســـتطيع الذهـــاب إلى العاصفة عند الأفواه الفاغرة. ثم يتجمع من جديـــد كأنه يشرب، والسبب يعود إلى تَعَب رحلة القارِب. كيف يحـــدث هـــذا؟. خدّاهـــا يَحمرّان بينما يَترسّب الشحم في جزئها الأســـفل لكـــي يكون انقلابها سهلاً إلى الخلف، وانتهى الأمر لأنها نشـــيطة آخـــر مرة على الكرسي الأبيض، تهتز كالغُصن خوفاً من إكمـــال العمـــل. ويعود رأسها إلى الخلف مُدليّة أنفها فوق فتحة



Twitter: @ketab_n

الضحك على أمل أن تتفق مع الآخرين بعد نظرة إعجاب. فلو كان الوقت شتاءً، والحال معروفاً، لقامت إلى الستارة تخلَعها بسحبتين بعدما تُقشّر شيئاً كروياً وتضعه في الجهة المعاكسة للرجل، ولا تحتاج إلى مشاهدة الليل المُثَقّب بأضواء السيارات القادمة، وظهور مخازن القطن المحدودبة عندما تَسبَح في نور فاضح قرب خرير حوض الماء المكسور.. وهي مستعدة للصعود حتى رؤية الشمس.

قام الأسمر البدين عن مكانه. دار الأسمر البدين دورتين فقالت المرأة: أوي.. ما هذا يا صابر؟. وانتفَضَت فزِعة حين رفع قطة سوداء بين نعلين. وقالت المرأة الأخرى: أوي.. لا تحصرها يا صابر، دعها تذهب يا صابر. القطة لا تموء بل تصيح وترفس..

يقترب الأصلع من الشُباك ويرميها إلى الهاوية لكي تنام في الأدغال اليابسة عند طَرَف الكونكريت..

ينقطع الضحك. ينظر الجميع في الظلمة السفلى بتمعّن. وتألمت المرأة. يبدو أنها تألمت تقريباً. يتألم الرجل الآخر. يتألم الآخر. ولكن النساء تتألم أكثر بسبب القسوة، ما عدا الرجل الذي رماها بعدما نظر برجاء إلى شفائها العاجل في تلك الرفسات المُتشبثة بالنعلين، وبعدها يقول أن للقطط سبع أرواح، ثم يعود نحو منتصف الغرفة. يدور ويدور ثم يضع رأسه فوق مسند الكرسي فيعطونه سيجاراً ويضحكون..

لحظات غريبة أمام شُباكه، ألقتهم بإهمال على مرتفع مُضيء. يجتمعون لأنهم بحاجة إلى بعضهم، حاجة الأصلع إلى أخيه كحاجة المرأة إلى الرجل. متناسين القطة الطاوية على آلامها بانتظار


Twitter: @ketab_n

الصحو.

شَـعَر بخطأ الأشياء. كلها خاطئة تقريباً، غير صحيحة، تلك الـتي تحـدث في المربع المضيء.. ولكنها أشياء سعيدة، ينقل بصره باتجاه التل الكبير حيث البوابات الواسعة لمترل حلاّب مُرتكزة على شَـعفات الحشـائش الصناعية. ثمة رُقَع تهتز مُشيرة إلى قِدَم الأرض رغـم ضـيق الوقت. فصار رأسه يابساً كعلبة ثقاب.. وشَعَرَ بأنه موجـود مـنذ أقدم العصور، أو بالأحرى؛ يشعر أحياناً بأنه زامَن معظـم الكـوارث، فـيُعاند على نزع نفسه منهم. هُم. ولكنهم يسـحبونه بالضـحك المُجـدي وليس بالضحك النافع. الضحك دائمـاً. الضحك إلى ما لانهاية. غير أنه لن يذهب إليهم تقريباً، بل يذهـب إلى الـزاوية ويمد يده دون تفكير إلى طرف الرِداء ثم يهتز بعـذاب نـادر لأجل تثبيت صورة ما تتكوّن إثر فك أزرار الصدر أولاً، فـلا يجـد غـير تَرسُّب الشحم في جزئها الأسفل، ويتقوس بأقصـى إمكانـيات النحافة مُلصِقاً خده بالجص حتى السقوط... ويفشَل.

يظـل متكوماً في الزاوية، شاعراً بجفنيه يحكان كفه.. ويستمر الحـال حتى لحظة سماعه دبيب الفضّة الشفافة على السفوح، لحظة تدفق الضوء حينما تُعلن الدِيَكَة عن طلوع النهار.

مـنذ عشـرين عاماً، تصعد إليه يومياً: ألا تُفطر؟. فيترل إلى اللـبَن وبخـار الشـاي، ويسمع نشرات الأخبار الأولى: " زَلازِل أمريكا اللاتينية. فيضانات الهند. عمليات الفدائيين العَرب. محادثات نـزع السـلاح الـنووي. قرارات مجلس الأمن. الإرهاب العالمي. مُخـدِرات. تَجَسّس. انقلابات. حوادث عنف. مَجاعات السُود.



Twitter: @ketab_n

فضـــائح سياســـية. تمييز عُنصري. إرهاب. إرهاب. فساد... إلخ"
يفـــتح الباب فيجد الأربعاء دون أن يعرف الجمعة، وذلك لنشاط
الضـــوء بلا غيوم. خسارة فادحة بعد ومضة الاكتشاف، بأن أسوأ
عمـــل يقوم به الإنسان هو؛ فتح الباب. والضوء حَسّاس بلا حدود
تقريبـــيّة. الأربعاء حزين لأن الصباح مدهون بلون سُرّة اللحاف إذا
ما استثنى وفاة أشجار التين في نهاية قَطِفة الطحالب.

كانـــت الطيور قد هاجرت إلى فيضانات الهند، وبقي العاجز
على مائدة النمل الأحمر؛ يَحل ضيفاً مُجَزَّأً في الثقوب.

إلا أن اختياره كان عفوياً بلا شَك. يحسب: الأربعاء هو اليوم
الثاني من الأسبوع لأن الثلاثاء يوم أول. كل شيء يُبشّر بالضحك
تقريـــباً، حتى بذور الموسم التي رَفَعَت قِشرة الأرض لتُحَيّي جيرانها
من الأعشاب الميّتة.

الـــنزول. سماع الأخبار. الذهاب إلى بيت عواد. اللقاء بعالية
وهـــي تدعـــوه لتدليك قَرصَة الحَشَرَة. صباح الجمعة، وليس فجر
الأربعـــاء أبـــداً، بعدما رأت وهي تضع صحن اللبَن وتُدير مفتاح
الـــراديو، ظِـــلاً خَيطيّاً يتحرك على الستارة المُضاءة بصباح الجمعة
فصَـــرَخَت: يـــا إلهي!!.. أفعى!!. غير أن زهرة التي سمعت انزلاق
إبريق الشاي في الغرفة المجاورة، جَرَّبَت أن تستمر في النوم، فجاءتها
أمهـــا ورفعـــتها عن السرير، وهي لا تستطيع الجزم بأن الذي رأته
كان ظِلاً لأفعى مُتَدليّة في ضوء صباح الجمعة.

فالشُـــباك مُغلَـــق، وشـــقوق السياج مُسَدَّدَة بالجص باستثناء
الفـــتحة الخاصة بتصريف مياه الغسيل. وجدَ الأثاث مُبعثَراً، أثاثها
المنتظم دائماً، حول طبعات أحذية على اللبَن المُنداح، فرَفَعَ الستارة


Twitter: @ketab_n

بإشـــارة مـــنها. أمسكَ بالحَبل ــ حَبل الستارة. يعتقد بأنه الحبل نفســـه وليس الأفعى، فتقول عالية، وأعني مجموعة النساء: يُـــوه!! حسبتها أفعى!؟ ولكنها حَبل. ولكنه حَبل. ثم تُرَتّب البيت وتدعوه إلى الفطور.

تقـــول عالـــية: هنا.. ألا تَرى البُقعة الحمراء في فخذي؟ ألا تعـــرف التدليك؟. فيقول: حُكّيه بالحائط، حُكّيه بالحائط. تقول: أحكُّ ماذا؟.. يُـــوه!!. يقول: الفخذ، فخذكِ، أعني قَرصَة الحَشَرَة، أعني البقعَة.. حُكّيه بالحائط.

تقول: يُـــوه!.. أحك ماذا؟. فيقول: ألم تقولي أحك ماذا؟.. إنهـــا قَرصَـــة. يُفتَرض بأي واحد أن يحك قَرصَته بنفسه لأن عزيزة قالت؛ هل رأيتَ أرملة زوجها على قيد الحياة؟.

تمتعض: أُفّ، ابنة القطّان! ماذا تقصد بقيد الحياة؟.

يقـــول: نعم، ماذا تقصد بقيد الحياة؟ مَن هي ابنة القطّان؟.. آه.. لا لا هي لم تقل ذلك، ولكننا، أقصد نحن.. نكون أحياناً على قيد الحياة.

تضحَك عالية. وعندما تضحك عالية، لابد أن يضحك معها مَن يراها تضحَك.

يســـمعان سُـــعالاً خارج الباب فتسحَب ثوبها وتقول: هذا عَمَّك مسعود. فيقول مسعود وهو دائري الوجه طويله بسبب ذقن العبادة: هل لدينا ضيوف؟ السلام عليكم. مَن الضيف؟. تقول: إنه شاهين. فيتساءل: شاهين؟؟ ليس لدينا سوى شاهين واحد. شاهين اســـم طير جارح، فلا يُسمي بهذا الاسم سوى الصياد، وليس لدينا صياد غير محمود. تقول عالية: صَدَقتَ. ويقول مسعود: أهلاً بكَ،


Twitter: @ketab_n

كنتُ أريد الالتقاء بكَ ولكني مشغول دائماً وأنتَ رجل نظيف لو تَعَلَّمتَ الصَلاة فقط، فلا تنجرِف مع عواد، الأفضل أن تتعلم الصلاة واليوم جمعة... يقول: نعم، المفروض أن أتعلم الصلاة لأن عواداً ينجرِف يوم الأربعاء.. هل قلتَ أنها الجمعة؟.. ها ها كنتُ أعتقد أنها أربعاء، فيما بعد..

مسعود. تقول. أعني تنادي القريب الذي يعرف أن اسمه تحذير في بعض الأحيان بسبب هزَّة الرأس هذه، لذلك لابد أن يخرُج لأنه لا يريد الرد حين يفهَم أن مناداته طَلَب.. فيخرُج إلى الجامع بينما تعود هي إلى قَرصَة الحَشَرَة.

تقول زهرة أن عواداً في المقبرة، فيسألها: متى حدث ذلك؟ يجب أن أتألم. تقول: إنه على قيد الحياة ولكنه ذهب لزيارة المقبرة.

ثمة نساء، ذكريات نساء تقريباً. نساء ميّتات يحتضنّ أطفالاً موتى تحت المطر وعواصف الغبار ومياه البطيخ المسروق كل يوم بفضل الشموس الحارّة المسروقة أيضاً من الاستواء. ليس هناك تَل تَل بالمعنى الجغرافي، فالشواهد مُوجَّهَة صوب الغبار كفقاعات كَف مُتَورّم إلى جنوب الأكواخ. يُحدِّد ببصره مكان الجَدة السمينة آكلة البيض الفاسد، والصور الغامضة التي تملأ الجوف أحياناً حتى الشعور بضرورة التقيؤ. كانت تأتي كظِلال رفيعة نَعش أثر نَعش، مربوطة برؤوس مسامير ناتئة. رجال يحملون رجلاً مُمَدّداً. كان رجلاً.. أما الآن فمجرد رجل يترل لأنهم يُترلونه إلى عُمر الفقاعة التي تنفجر حين يجب أن تَكبَر.. وهو رجل مهم. كان ثمة نساء، ذكريات نساء تقريباً، في الأرض المُفَقَّعَة ــ أرض التل الأسود حيث يَستَخرِج الحفارون ألواحاً مسمارية لتُستَخدَم كقواعد لجِرار



Twitter: @ketab_n

المـــاء، بيـــنما يـــنمو الفطر في نهايات الربيع داخل أكواب الفخار المدفونة بعدما تَمُر عليها الدواب وقد عادت من التلال الجرداء..

كانوا يصنعون النواح بمساعدة آلات الدمع، مقهورين هناك. يَصـــلون تـــباعاً كالقَطَرات، مسبوقين دائماً بالنساء ذوات الباقات المطاطـــيّة؛ أشـــكال الباميا والعُنصُل. مُتَعطرات بالقرنفل الطبيعي وروائـــح مُســـتَخرَجَة مـــن أنـــدَر الأعشاب تلح لليلة ثلجية بعد الشـــجار. واحـــدة بعين السمكة السوداء، قاتلة.. أما الأخرى فلا يبـــيّن وجههـــا لأنها تنظر إلى كلبها الذي يتشمم الطعام والحلوى وباقـــات المطاط ويلمس الشواهد ثم يبوّل رافعاً قائمته الخلفية. أين عـــواد؟. تـــوالى مجيء النساء صعوداً من بطن الوادي كخيط أسود بَلـــيل، إذ نـــادراً مـــا تُهاجـــر الغربان أسراباً منظّمَة. خرجن بين الأحجـــار عـــبر ضـــوء الأربعاء المدهون بلون سُرّة اللحاف إذا ما اســـتثنى وفـــاة أشجار التين في أقصى قَطيفَة الطحالب. يوم الجمعة تقريباً..

جـــاءت الآنسات بعد العجائز: لون الشقائق ودَم الذبيحة. ثم الذكور: لون اللبَن الرائب. ثم الأطفال: لون العِيد وأدوات المُهَرِّج.

أجراس مُعَلَّقَة في أعناق حمير من أصل أحسائي. تركوا فوضى أدوات الشـــاي والحصران ووسائد الصوف وآثار طَبَعات الأحذية عـــلى اللبَن المُنداح، وانسَل بعضهم من الطاقات وأجواف الغُرَف المظـــلمة الخاصـــة بعُري النساء وصُرَر العجائز من الملح السحري وبعض دنانير قَرَضَت أرقامها الفئران..

يقولـــون بأنه نهار مُهم، ولكن اختياره كان عفوياً بلا شَك. فقـــد نَذَرَت كل امرأة نذراً خاصاً واعتزمت أن لا تُكلّم أحداً عدا



Twitter: @ketab_n

أفـــراد القـــرية وضيوف القرى الأخرى. واحدة نذرت أن تضرب نعجـــتها مائة جَلدَة ثم تصعَد التل راكضة وتنزل مُتَدَحرِجَة، بعدما كـــان اللـــيل مُقامَاً بالصيام من قِبل الأتقياء. أعيُن مُحمَرَّة وأفواه مُلثَّمَة.

وفي مـــثل هـــذا الـــيوم، الجمعـــة، تُوفي عبدالمجيد قَبل آخر الفيضـــانات، وهو رجل مهم. كان لا يمسك رغيفاً إلا صار أرغفة بـــين أصابعه. يقولون: كان جميلاً في بعض الأحيان، بصدر عريض يحجب ماء السد تحت لحيته اللماعة التي لا تزال، رغم مرور الأيام، تفوح منها رائحة البقدونس مُختَرِقة تراب القبر.

وتَحَـــوَّل المكـــان فجأة إلى ملتقى عائلي بين الأحياء والموتى، وانـــزوى ســـليم الراعي مُلصقاً قدميه بخرقة غمام يقرأ فيها أشكال نعـــاج ويعـــضّ إصبعه ندماً على ما فعل بنعجة لم يُفرق بينها وبين المرأة.. وتقيأت خديجة من فرط الصعود وهي تلوّح لـــه بشالها، إذ كـــان ارتفـــاع التل تسعين نفي فانية على المدرج، وارتفعت أنّات ودعوات... فأين عواد؟.

هكـــذا نظـــر إلى نفسه أمام عدد هائل من الرؤوس والعيون الرمادية المُطفأة، وشَعر بأنه يمتد في أزمنة غابرة أو قادمة، في وجوه بيضـــاء وســـوداء وصفراء خلف تلال الهنود الحمر وأحزان سُكان التبـــت الـــزرقاء، وفي وجوه تحمل مزيج وجهين؛ الخُلاسيين، وهو ســـيد هـــذه الخرائب الناطقة بالضحك: أعراس الكُرة الأرضية لا أعراس زُحَل ولا نبتون. الأرض وحدها، الأرض المُثَقَّبَة بالمراحيض. وهو على كل شيء.. كل شيء تقريباً.

سمـــع قائلاً يقول: اغسل قدميك بعد نهار شاق سيزول عنكَ



Twitter: @ketab_n

التعـــب، فلن تجد في هذه البقعة ـــ صوت يقول: اتركني وشأني ـــ غـــير وسادتك.. وإذا شئت استخدمها بمثابة زوجة. وشهد رغوة الـــثدي خلـــف قميص أسود، مستسلماً لمَجرى المُخاط، في ذلك الانغلاق، امرأة ما تحوّل وجهها بالكدّ إلى صخرة قوقعيّة التعبير بعد الموســـم الثالث من تاريخ دفن عبدالمجيد حين حزنت الأنهار فحدثَ الفيضان، إذ أدلَت جديلتها في مكان وقالت: افعل بي ما تشاء، فلن أعـــترض. وكانـــت لحيـــته المُعَطَّرَة تهتز تحت التراب. بين لـــه أن اسمهـــا؛ عزيـــزة، وأنهـــا تغيـــب وتظهَـــر حسب حركة الحشد الأرجُوحيّة.. تغيب وتَظهَر..

لابـــد أن أعـــود إلى بعض أيام عبدالمجيد لأن الجميع يعودون، عـــندما كنتُ هناك أكتب عنهم. يُحَدثون بعضهم عن وقائع موته الـــتي يعـــرفها كل شخص هنا بالتفصيل المُضجر، أيام جنون القمر وانطفـــاء نبضه بعد أن تأخر شهوراً في نوبات قيء وجولات رَجم ليليّة. كان حلاّب يُصَبّر نفسه بأكل لحم الثعالب مع أنها من فصيلة الكـــلاب، ولا بـــأس فهي لا تُميت مثل سم الفئران الذي دُسَّ في طعـــام عبدالمجـــيد فـــلم يقض فوراً بل تحوّل إلى خَوّاف من القمر لاســـيما في منتصفات شهور الصيف، يُخرِج رأسه من شَق حائط مُطِـــل على الطريق ليتفحص سيقان المارّة ويستخرج غاية المشي في الارتفاع أو السرعة أو دحرجَة الحصى.

وفي صـــباح إحدى الجمعات وجدوه مُتَخَشِّباً يتَدلى رأسه عبر الصَدع وقد عَفّره تراب العجلات التي حملت البطيخ إلى المدينة. لم يمت تقريباً. لم يمت مباشرة، لكن أعصابه اضطَرَبَت، وكان هياجه يشـــتد في اللـــيالي المُقمرَة فيمد رأسه من ثلمات الحيطان ويرجُم



Twitter: @ketab_n

المارين بالحجارة ثم يعود إلى سياج بيته ليَرفَعَه بلبنات جديدة ويغرز قطع الزجاج وأغصان النباتات الشوكية في أعلى السياج، حتى غاب البيت ومحتوياته عن الأنظار.

كان الجميع يتساءلون باستثناء شاهين الذي لا يعرف التفاصيل: " ما الذي حدث لعبدالمجيد؟" فيكتمون الأمر عن الغرباء، ولكن الحكاية انتشرت بجهود النمّامين بحيث تجاوزت سبع قرى ممتدة مع النهر.. والمهم أنهم وجدوه مُتَخَشِّباً وليس ميتاً تقريباً. وبعد مرور عام لا تَقبَل النفوس أن تُصدّق موته، رغم أن الجميع ألقوا نظرة أخيرة على جثمانه المُهاب.

كان حلاّب في تلك الأثناء يحفر أرض مَضيفه بقلق الخطوات ويجمع مساعديه من تجار القطن ويُروّض نفسه على تعطيل الذاكرة لكي يصبح ذلك الأمر من واجباته الاجتماعية. تلك الليلة العطنة، لن تتزلق عن جلده بسلام، لحظات الانتظار الحاسم على القطيفة، فيلتفت بخفة؛ المرآة خلفه.. ثم تصير أمامه: " هل يصلح هذا الوجه للحُب؟". يسأل نفسه بوقار ويبتسم مُغيّراً شكل عينيه غير مُصدّق تلك الحكاية المعروفة عنه، من أنه لم يرَ النور إلا بعد خمس سنوات من تاريخ ميلاده، حيث كانت عيناه ملتحمتين كقُبتين من اللحم الشفاف يتحرك تحتهما شيء حيّ، وقد شبّهَهُما أحد العَطّارين، بفأرتين في كيس. ولكن إحدى العجائز، مجرد مغامرة، فَتَحَت قُبتيه بسكّين البَصل فرأى الأشياء مُرَكّبَة عديمة اللون لأول مرة، وقد أثرت الرؤية الأولى على فهمه للأشياء فيما بعد. تلك القصة إذن. كان ينظر في المرآة وقد صار أنفه ممطوطاً ومَلمَس أنفه رؤيا.. وعيناه مجرد جرحين. لكنه قام بواجبه عند وفاة عبدالمجيد، فأشرف


Twitter: @ketab_n

بنفسه على توزيع اللحم ـ لحم الثور الذي ذبحه فرأى عيون الصغار لامعة كعيون الجرذان الخائفة فتَقَزَّز من مُخاطهم الأخضر، وعاد إلى حافة الموقد يمط خصيتيه بلا شعور منه وينظر حوله خشية العقارب ويفكر بذبح ثور آخر.. ثم إلى المرآة: " هل يصلح هذا الوجه للحُب؟".

يقولون أنه ارتعَد على صوت رصاصتين في باب مَضيفه وبحث عن مكان الاختباء فلم يجد غير الحَصير يلفه في الزاوية.. وظَل كذلك حتى أدركه شَعبان بعدما سمع الطَلقتين فدفع الباب مناديا: " أيها المُختار... يا مُختار." فَرَدَّت لفّة الحصير: " مَن؟ شَعبان؟ أنا هنا فأين أنت؟". ويقول صديقه: " اخرُج" ويُريه ثقبين في قلب مرسوم بطباشير الأطفال على الباب. " هذه المرة في قلب الباب.. والمرة القادمة في قلبك.".

أُقصُّ الوقائع ولا أدري. إنها لأكاذيب تأتي بها الروايات الواقعية عادة. ربما لم يكن الأمر صحيحاً، وربما العكس، غير أنه مُبالغ فيه، لأن شاهيناً فهمه هكذا من الأفواه القريبة وهو ينظر إلى نقطة واحدة؛ امرأة ما، تُجاهد في حركاتها لإفهام الآخرين وقد تحوَّل وجهها بالكَد إلى صخرة قَوقعيَّة فأدلَت جديلتها في مكان، وقالت: افعل ما تشاء فلن أعترِض. بينما كانت لحيته تهتز تحت التراب. بيّن له أن أكثر الأشياء عذاباً تلك التي تتجه مباشرة إلى الموضوع الذي يُعَذِّب. ولكنه يُقَسّم عذاباته أمام تعدد المواضيع كإيجاد نوع من البدائل لتلك التي يبعثها المحتشدون وتتحملها التلال قريباً من الأفق، هبوط الذكريات البَليلة كوحدة مفككة في أشد حالات الغربة قرب الشواهد، عندما يلوذ لكي ينتظر وصولها وهو


Twitter: @ketab_n

يعرف أنها تُضاحك غَيّره، أو تَشرَح لغيره وِجهَة نظرها.. ولكن لا شيء يُعادل استواء حاجبيها تقريباً، كتعبير عن الذَنب لحظة البكاء: رأى الدمـــع أبعد المياه عنه، وانكسارها عندما شَعَر أنه انتصَر إن لم تُقـــدّم لـــــه نوعـــاً من المتعة لأنها تعرف كيف تُميّز مشيته، على الأقـــل، عـــندما تراقب الهابطين، ويشعر بها تراقبه فيجاهد لكي لا تذهـــب قدمـــاه إلى الجانـــبين. لم يكـــن يعرف ماذا سيفعل عند حضـــورها، حيث تطير اللغة ويظل الاعتراف الأول، البوح الأول، وسيلة مغلوطة في وضع خط النهاية..

جـــاءت متأخرة وجلَست أمامه بعد أن قَدَّم لها صخرة، امرأة صـــغيرة أعطتهُ شعوراً بضيق الملابس. شَعرها التِبنيّ المجدول وبياض ساقيها ووجهها المعذب.

كانـــت تُـــثَرثِر بكل اتجاه لكي تستقطب بتلك الجلبة أبصار الآخرين، وقد ابتدأ التعاطف بحنان خجول ظَهَر أنه مساوي لجميع الأحـــلام المُمكـــنة عن عالم الرجولة، وقد جاهد لأجل البلوغ قبل الوقـــت كدلـــيل على التعب من مواصلة الخيال، مع أن المرء يُنكِر بداياتـــه بعدما يبلُغ.. ولكن البداية تبقى أعظم خطوة تقريباً من بين الخطوات الفاشلة التالية.

كـــان الأمر بالنسبة لـــه طَلَباً للخلاص من وضع مُتعِب لكي يَسقُط في وضع أكثر تعباً. فبادر، ليس بدافع الحُب النقي كما يحلو للبعض أن يسميه، وإنما بدافع الإعجاب بتروعها إلى اللامبالاة، وقد حـــدس خطـــأ بأنهـــا سَتُقَدِّم لـــه النسيان اللذيذ للخيال الذي لا يـــتحقق. وهكـــذا فإنـــه كان شجاعاً تقريباً لحظة تقديم الصخرة ودعوتها للجلوس، لكي يُعلن عن ذكورته بكلمة (.....) في أذنها.



Twitter: @ketab_n

وأن هَمّـــه الوحـــيد.. يقول: أتردين.. لذلك فإن هذه التجاعيد.. أتدريـــن سأموت في الثلاثين أو أتعَرض لأزمة. وفق تصنيف خاص يعطـــيه حجمـــاً غريباً مع تناسي وجود الآخرين وظروف تشكيل عوامـــل التعرية الطبيعية وغياب المعرفة عن وقائع وفاة عبدالمجيد، مما يحمـــل في التفاصـــيل مشـــاعر الاحترام المُزَيّف لكي يَظهَر بالمَظهَر اللائـــق وفـــق مفهومه الخاص: ولكن الأمر بعكس ما يتمنى وفق شـــروط الـــنظافة الاجتماعية التي أعرَب عنها فأشارَت إليه كمنبع للأخلاق..

إلا أنـــه حـــلم في اللـــيلة السابقة بشفتيها المُطبقتين وعينيها الشبيهتين بعينيّ أرنب أليف. أن يكتب لها عَشر قَصّاصات: " إنك مُغـــرية لأنـــني مُعجَب ببكائك.." و" كلما حاولتُ النوم رأيتكِ مُحـــتَلّة فراشي فأنام على الأرض." و"بما أنني جائع.. إذن أريد أن آكلك يا ضفدعة." و" أعتقد بأنني أحبكِ أحياناً".. إلخ. إنها أكثر الرســـائل الغرامية غموضاً للتعبير عن الصَراحَة، ولذلك اختار وقت ذهابهـــا إلى البيـــت لكـــي يسبقها إلى السدرة مُتَذرعاً بشم تُرَب الجرذان، ويسلمها أحد القَصّاصات المطوية، فتفزع: إذا كانت من عـــواد فلـــن آخذهـــا. وتدسها في جيبها ثم تصعَد راكضة كتف الوادي...

كـــان ينـــتظر النتائج متخيّلاً طريقة ردها في الغد، خائفاً من الغـــد، وراغـــباً في أن يـــأتي قبل الوقت المُقَرَّر ـــ أو لا يأتي أبداً، بافـــتراض كارثة تؤدي إلى موته أو موتها، مع ذلك، فإن كان الأمر متعلقاً بعشرة أعوام فإنها لابد آتية ولابد أن تقترب كلحظة في حالة حصولها.. فلا يمكن قياس مقدار العَذاب؛ عَذاب انتظار الغد بدافع


Twitter: @ketab_n

الرغـــبة في نسيانه أو التقليل من أهميته عند حصول المطلوب، إذا لم يعتبر ذلك العذاب طبيعياً ولذيذاً بعد أن يَمُر.

فـــرحة جاحظـــة تمـــلأ المكان. وجسده يمتطي الهواء، ويتوق للخروج من ملابسه أمام صفقة من الضحك، فيزفر لتبرد أنفاسه.. وتدخلـــه الأشـــواك، البـــيوت، أواني النحاس، التلال.. أما الرجل الملـــتحي فيأكله العَدَم، لكن رائحة البقدونس تفوح من لحيته عبر الـــتراب. والأرض قديمـــة.. شيء مُخيف. غير أنها يمكن أن تكون مليئة بالمسرات الشبيهة بقَصّاصات الحُب.

شـــجرة السدر فقدت القدرة على الامتصاص وتمثيل الغذاء، وعصـــفور صـــغير سقط من عشه وتحوّل إلى طعام للنمل الأحمر. بَحَث في الوجوه، عندما عاد إلى التل الأسود، عن جواب، ولكنها كانـــت خالـــية من التعبير: رجل عزيز مات بطعنة خنجر أو بسم فئران وهو لا يستحق إلا الخير.. وتَجَمّع الناس في هَولٍ عظيم. تأتي ذُبابة خضراء فتقطَع الفكرة وتُجبره على متابعة رقصتها.

عـــواد يهتم بجَمال الأشياء لأن نهيق الحمار يبعث فيه النشوة، كذلك الامتداد الجدب لجنوب التلال.

الســـماء بغـــيوم وبدون غيوم. القرية في هذا المكان وليس في مكـــان آخـــر. يُحدّثـــه عـــن جدوى علاقات سرّية بين الخطوط والظـــلال ويتأمل خارطة من البول على الأغطية المنشورة، صديقه يقولَ أن الجوارب الصغيرة تعني شيئاً، أما الطويلة فتعني شيئاً آخر.

وهـــو شـــاهين، يحدّق في الأشياء فحسب دون أن يُبصرها، ويســـمع أصواتاً دون أن يُميّزها. الأرض قديمة شيء مُخيف. عواد يقول: يمكن أن يُحِب الرجل أكثر من مرة في حين لا تستطيع المرأة



Twitter: @ketab_n

ذلـــك.. الأرض قديمة. السحلية تقف على جذع شجرة: هذا فَأل سَـــيئ. هـــل تـــتمكن المرأة من أن تُحب مرتين؟. هذا فَأل سيئ. يُقـــنعك عـــواد بأن الأشياء الصلبة أكثر طراوة من الأشياء الطرية نفســـها، ولكنه يخاف ثقوب القوارض في ساقية مهجورة فيبحث عن كذبة مؤقتة تخلصه من مسؤولية مؤقتة، ويجد الكذبة بسهولة ثم يَدخُـــل المَضيف فيقولون: أصبحتَ سميناً. ويخرُج منه فيقولون: يا لـــك مـــن نحـــيف!!. وصَـــمت حتى أصاب النخر أسنانه ونبتت الطحالـــب في زوايـــا فمه وفَقَد الرغبة في الأكل.. وفي مرة قادمة: كيف يكون الرَد؟.

لستَ شجاعاً.. يقول: أوه.. بماذا تفكر؟. ويُفرِد أصابعه أمام وجهه ـــ الطفل جائع لقد نَفَدت علبة الحليب.

أرضـــعيه مـــن ثديكِ. إنه ناشف يا حبيبي ـــ هكذا من بين الحشـــد، بعـــد أن يجلس ساعة على صخرة منفردة يفكر في صورة البيت الذي سيبنيه في المستقبل قائماً على دعامات رفيعة في أوراق المشـــاريع، ولكـــنه صورة قابلة للتحوير ما عدا الشرفة المطلة على الـــبراري حيث يشرب القهوة بالحليب ويتحدث عن إمكانية القيام بجولـــة خلف التلال ـــ لكي يُهيئ قلبه للخفقات بعد أن يُشير إليها فيتـــبعه كعب حذائها الإبري ويدخلان في زقاق فيُشير: هذا بيتنا يا حبيـــبتي. إنـــه جميل يا حبيبي. وتدور ضاحكة وتُطوّح بحقيبة اليد. انظـــري صورة اللبوة الجريحة، وفي الجدار المقابل لوحة لعواد ترمز إلى خمـــول الأجســـاد في ظَهيرة عراقية قائظة. رائع. وسينحدر إلى الســـوق لجلب البقول والخضار فيجد أن البنايات تنمو بينما ينشف الحليـــب.. ويـــزداد الضحك فترتمي على المقعد طافِرة الدموع ـــ



Twitter: @ketab_n

ويجلس في الحشد على صخرة طويلة مُدَبَّبَة إلى جانب شيخ ذَكَّرَه بشهور الصمت الطويلة التي قضاها مُعلَّقاً على الرف، يُحدق في عشبة اختارها بصره من بين أعشاب كثيرة يابسة. كانت عيناه تلتمعان بلا سأم تقريباً. يُفرِد سبحَته مبتدئاً بخرزة الشاهد، ويعزل الخرَز الصغير زوجاً زوجاً ثم تنتهي فيقلبها إلى الشاهد مرة أخرى.

يشعر شاهين بانتقال الشيخوخة عبر المقعد الصلب، وأراد أن يقفز ليُثبِت نشاطه، لكنه كان مُوحلاً كرقعة لا تخرُج عن حدود المكان.

صاح صائح: افسحوا الطريق لحلاّب.. جاء حلاّب، افسحوا الطريق.. ابتعدوا. وحاوَل أن ينهض ليرى الذي سمع عنه، والذي طالما تأمل بيته الجصي المُحاط بحدائق الآس والأعشاب الصناعية فوق أعلى تَل. كان الحشد يَنفَضّ عن مكان ليتجمع في مكان آخر.

أراد النهوض ففشل.

يرى أن الحشد قديم وقد حدث مثله في العام الماضي والذي قبل الماضي وسيحدث أيضاً في العام القادم.

تتَهَدم جدران وتُقام محلها جدران أخرى. يموت أشخاص فيأتي أشخاص بدلهم. أراد النهوض ففشل. حكاية الغجرية التي تحوَّلت إلى قط، كانت مجرد خرافة. وشُجَيرة الشوك التي أثمرَت برتقالاً على قبر رجل صالح، خرافة أيضاً. يقول: لا أصدق تقريباً. إن الحقيقة القائمة هي هذا الحشد؛ فَم عند فَم، تلامُس خفي لأطراف الأصابع، جسد يلمس ليونة جسد، أضلاع تدخل في أضلاع، امتعاض من بعض الأنفاس، استنشاق، حُب... عُري تحت



Twitter: @ketab_n

كذبة الملابس، كلمات مصنوعة منذ زمن بعيد، بَشَر، أُناس، آخرون، رجال ونساء...

أما الحقيقة الأخرى: قَدَم أبيه التي خاطَ شقوقها بالإبرة العادية. أراد أن ينهض ففشل. إنه بعيد تقريباً. بعيد ولا يعرف السر. محض حركات وأصوات وروائح تبدو ثابتة ومُحَطَّمَة كالقِسم الأخير للبوة الجريحة. حُطام كُرسي. نجدة تصدُر عن أسفل القصبة الهوائية، عن قعر العصور المُسلَّحَة. لكن الذي يتحرك فقط، هذا الحيوان الصغير النابض بين الأضلاع، تلك الدَقات الرتيبة التي تُوشك على الانتهاء بعد كل دَقَّة قادمة. يقول: كيف يكون هَمي..؟. مجرد سؤال.. فأين عواد؟.. نظرة جادة؛ رجال لا يموتون وجدران لا تنهار تقريباً. يقول له الشيخ: إنه يبحث عنك. فأراد النهوض عبر فيضانات النهر ونقصانه في أواخر الصيوف... ففشل. يقول إنه سينهض في يوم ما. باتجاه خيمة الغجرية التي تحوّلَت إلى قط ثم تلفت بفعل المطر والشموس الحارّة المسروقة من خط الاستواء. لقد انحدرت بالأمس، هذه الغجرية بالذات وليست عزيزة ولا عالية، عن قرية شمالية مع مجرى النهر لكي تتحوّل إلى قط، هنا بالأخص، في نهاية رحلتها السعيدة. كانت تُجَدِّد نفسها بالحلم. نعم، بالحلم يَتَجَدَّد كل شيء.. كانت مسرورة بأثاثها الرث لاسيما بالمرآة وجمرات الموقد والقمر الذي يطل من الشَق. أعني: خُرُوق الجواسيس والوسادة المُتسخَة، والرجل الجديد دائماً..

أقول لكم: كان العالَم طريّاً في البدء، ولكنه هوى على رأس مثقب، بالأخص؛ فوق فتحات الأسلحة... يقول الشيخ: إنه يبحث عنك، حلاّب يبحث عنك. وأراد أن ينهض ففشل.



Twitter: @ketab_n

رآهـــا مُهمَلَـــة في الصفوف الأخيرة، وهي هاجر، فلا يعرف كـــيف يقـــول: أمـــي. كانت تشيخ أكثر عند حلول المناسبات وتَحتَجِز في قلبها دموعاً مُؤجَّلَة، وتبتسم له، تُلوّح له، تُحييه قائلة: وَلَـــدي. وتعـــني؛ ابنها شاهين. تبتسم، تبتسم حتى درجة الضحك بطـــريقة نفخ الأنف.. وينقل بصره نحو العراء لأنه لا يحتمل صدق تلك الابتسامة، ولا حنان تلك الإشارة، ولا الذوبان العاطفي. يرى الأحجـــار في أقصـــى الـــنهاية على حافة المَهوى مرة أخرى، يريد إســـقاط الأحجار لكي يراها تنقسم إلى غجريتين، إحداهما تُحوّل نفســـها إلى قِـــط بعدما كانت تحفظ نمطاً واحداً من الغناء، تلك الأغاني التي تتحدث عن معنى الحياكة، في الأصل؛ أغنية واحدة.

تـــأتي رائحـــة شواء فيرفع بصره نحو العَمود الذي يقول: أنا حـــلاّب أما سمعتَ عني؟.. لماذا لا يُجيب، هل هو أخرس؟. يقول شـــعبان: لـــيس أخـــرس، ولكنه أبلَه. يقول العَمود: عندما تنتهي جولتنا.. خُذه إلى البيت يا شعبان. فتندفع هاجر: لن تأخذه إلى أي مكـــان يـــا شعبان. يقول العَمود بحِدّة: لا تسمعها.. اسمعني أنا. يقول شاهين: أين عواد؟. ويترل السفح راكضاً...

كـــان عـــواد مُنطَرِحاً على الشاطئ مُسلّماً سمعه لخفيف الماء وتَكَسُّر الأمواج الموغل في الرِقة، مُتأملاً بياض الأفق الممتد حتى إبرة الجـــبل، حيث يزحف الصفصاف حاكاً بأغصانه نهايات الصخور، كاســـراً الهـــواء المُحَمَّل بذرات واخِزَة. يرسم صورة على الرمل، خطـــوط بعمـــق أصابع الكَف، أو بعمق اللوّعة نفسها، يُخاطبها، تلـــك التي تستشعر مناجم الذهب في البواطن. يحفر الاسم أحياناً: عزيزة. ثم ينكس الرأس فوق قميصه المخلوع، ويتذكر عندما يُدخل



Twitter: @ketab_n

إصـــبعه في ثقب قرب الجيب، قميصها المثقوب.. كموضَة؟. تغلبه بـــلا صِراع ولا شَفَقَة. هذه النظرة الحزينة بالذات، الرجاء العادي لأنـــثى الرجل. تغلبه ـــ القميص. تغلبه ـــ نافذتها الخضراء تغلبه ـــ الخيط القطني الدائم... الحديث ـــ حديثها الذي صار رتيباً.

الحـــياة عـــلى الشاطئ صامتة، خاصة، ما عدا هديل الفاختة الذي يعبر الماء، وجهاد النوارس لاصطياد الأسماك الصغيرة.

يتلفـــت فـــيرى الخطوط التي هي عزيزة ويغرق في نقيق أيامٍ عاشـــها راكضاً على أطراف فُسَح الرمل، بعد التعب، يلقي جسده ويشعر بأنه مُشابِه لشوكة نبتت صدفة.

توقظـــه نشـــوة الدفء الأرضي فيصعد نحو البعوض منادياً: عزيزة. يهتز الصدى فوق تكسُّر الأمواج، يهتز الجبل: عزيزة زة زة زة.. عزيـــزة زة زة زة زة... ويَســـقُط عـــلى أطرافه مُخاطِباً خطـــوط الوجـــه بصـــيغة التَذكّر. أساريرها تُفتِّت خيوط نسيج القصـــاص. الوجـــه المُدَبَّب الحزين. تلك الابتسامة المُلصَقة بالحس المُحَدِّد للخط الخارجي.

خط الرأس الرملي. سيولة الجفن واعتبارات شُباكها الأخضر والقميص المثقوب، والشَعر المجدول كَرَفَّة خروف يُذبَح عند حدود التحية الكامنة في العينين النادرتين، والمسافة بين الأنف والشفة.

يلتصـــق أكثر ـــ ذروة الحُب والاحتضار. الخد يُضيء بشيء من البلاهة والفتور، ماء العجين.

يُرســـل كفـــه ليسحَب المومياء من الرأس.. ويبدأ بقُبلَة رملية طويلـــة، قُبلَة واخزة وخانقة.. تقترب لحظة حاسمة فينتزع نفسه من الفـــراغ المُخَصَّـــص لـــه في الهواء الذي خلف ظَهره، ويَتَفَتَّت إلى



Twitter: @ketab_n

حَبات رمل غامراً خطها الخارجي، تاركاً شاغر الجسد:: هنا كان عواد..... في النهر..

عندما عادت في الساعة العاشرة كوقت مُحتَمَل لرجوعه التقته على الكتف فسألها عن عواد، وسألته عن عواد. ثم تذكر قصاصة دعوة العاطفة. ولكي يُجَنب نفسه أزمة المواجهة حتى يألف الجو مثلما يدخُل الظلام منذ عشرين سنة ثم يألفه بعد دقيقة بحيث يُمكن رؤية أشباح الأشياء تقريباً بعدما كانت سوداء كالظلام نفسه.

وهي؛ عزيزة، امرأة دائمة الخُضرة، منكسة الرأس فلا يستطيع النظر إليها مباشرة لكي يعلم إن كانت تنظر إليه مباشرة أو تحسب حساباً للرَد.

تستدير ماشية أمامه وهي منكسة الرأس أحياناً، فينظر إلى كتفيها النازلين. تميل برأسها مُحاوِلة تنظيم المشي كأنها لم تقرأ: "أعتقدُ بأنني أحبكِ أحياناً..".

وتحت وطأة الإحساس بضياع الجهود وسخافة التوقعات، ظَهَرت له الحالة بأهمية القتل؛ طويلة في حسابات الهواجس وتخديش الذَنْب، لكنها فاجأته، وهي تُفاجئ أحياناً، بنَفضَة رأس، وظَهَر وجهها قرب وجهه مباشرة لكي تقول: أراكَ مُؤَدَّباً. فيجيبها دون أن يحس بالمكر: أشعر بالذَنب. فتقول: أبداً.. لا داعي.

اعتَقَد بأنه أبصر إشاراتها التي استعانت بها لتَقريب الفكرة، ثم واصَلَت الانتباه إلى تنظيم خطواتها كأنها نسيت وجوده خلفها، رغم أنه يعرف بأنها تحس به كما تحس بنقش غريب على ظَهر قميصها إذ ترتديه لأول مرة. ومع أن حوارها القصير كان شبيهاً



Twitter: @ketab_n

بالإشـــفاق الذي يُعطيها مظهر التَعَقُّل، فقد منحه قَلَقاً واطمئناناً في آن واحد.

ولكنها أنكَرَت القصاصة ورضيت، في الوقت نفسه، أن ينفرِد بها في المَمَر بخجل أصبح سِمَة مُلاصِقة لـــه معها.

واعـــتَقَدَت بأنـــه ســـيُحَدثها عـــن قدراته في الغطس وفهم الآخـــرين، حيث يكفي ذلك لتخريب المشروع انطلاقاً من تصوره حول فهمها، بأنها تختلف عن الأُخرَيات تقريباً.

مُجازَفَـــة الإحـــراج، مُعَـــزَّزَة بعتمة المَمَر وهي موجودة إلى جـــواره، يكاد أن يلمسها كمَلَكَة من مَلكات الجن، بقَدَر إحساسه أن شيئاً ما يموت فيه عند حضور الآخرين.

يلتقط حصاة صغيرة ويضعها في حذائه فتقول: لماذا؟. يُجيب: لا أدري، ربمـــا أرتاح. وتقول: هل تذهَب إلى الجَدوَل؟. فيجيبها: نعم أذهَب إلى الجَدوَل.

لا يـــدري كيف وجدها هناك تقطّب حاجبيها قرب الجدول وتضحك فيشعر أن اسمه: تَعَب.

وتُكـــلمه بسعادة مُحيِّرة فيتمنى أن تكون عضواً أليماً فيقتصه ليرى بياض العظام. لكنها؛ عزيزة، محض حكاية قديمة من حكايات دوائـــر الـــنعمان، إحســـاس بنهاية الرف والانتصاب الدافئ تحت الغطاء...

تَوَقعَـــت أن يحدثهـــا عـــن شعوره بالتفاهة وأفضلية الموت، وحَسِبته يفكر جاداً بوضع حد لتنفسه، لذلك عَصَرَت رأسها لكي تفلح في اسقائه قناعة الرضى والقبول بالحد الأدنى، وتُناضِل لتحويل



Twitter: @ketab_n

عناصـــر التعـــب إلى بريق حتى بدا لها بأنه مقتنع ولكنه غير فاهم، فـــازداد حماسها حد الضحك من طيران القُبَّرَة اللولبي، وهي على وشـــك أن تغـــيّر فكرته السوداء عن حالة الجو من حيث الحرارة والـــرطوبة والأمطار والضغط الجوي والكثافة السكانية حتى الزوايا الخاصة المظلّلَة بشجيرات الدفلى، لتبثه آهاتها وتنساه.

وصـــار على يقين تقريبي بأنها تدهن جفنيها بلون كرزي وأن بعـــض ثيابها مُشتَراة من محلات الأطفال.. نزولاً إلى حذاء الرياضة؛ يخب إلى إسفلت القنطرة المُرَقَّعَة بصفائح دِهن الراعي.

كـــان بإمكانه رؤية الماء عبر بعض الثقوب غير أنه فَضَّل النظر مباشـــرة نحو حافة الجدول؛ ثمة طيور بيضاء تلقُط الرز المُنحدر مع سواقي الاستحمام وقد تَخَطَّطَت الحافة بمياه رغوة الصابون. أعطاه الطـــين المُغطـــى بالطحالـــب شعوراً غامضاً بأنه قد يكون مرتفعاً أحـــياناً، وأن القنطرة قد تسقُط فوق ثقوب أحجار مُلقاة من قِبل المـــارّة كأفواه مُستَنجدة في الطين بجوار عُلَب البيرة.. ثم يجلس بعد العبور على إطار سيارة.

تـــناديه: شاهين، انظر في عينيّ. ويتطلع بسرعة ثم تزلق عيناه إلى الأرض ويدفِن وجهه صائحاً بمرارة: لا أقدر.. لا أقدر. فتسأله بـــبرود المُنتصِـــر: لماذا لا..؟ وهي تعلم أن في عينيها ضوء أخافه. فـــيقوم بهدوء ويتسلل على القنطرة صاعداً، ويسمَع صوتها تناديه: شاهين ارجع.. شاهين...

ويذهـــب لـــيطوف غُرف المترل بحركة مغزلية حذرة، رافعاً بصـــره بـــبطء شديد مع صعود السلّم فيُبصِر ظِلالاً لكائنات تترل؛ أرواح تمـــائم الشـــقوق. خطوة إلى الأمام، خطوتان إلى الخلف..



Twitter: @ketab_n

مخافـــة أن يجـــد الذي يبحث عنه. صورة عين ضبابية غير مفهومة. وتقول: " انظر في عينيّ ". ويصيح بين الجدران: لا أقدر لا أقدر.. لا أقدر. فتجيبه الجدران مُهتَزَّة: لا أقدر در در...

أقدر دردردر...

مـــع أنه كان ينتظر شيئاً نادراً لا حَد له، ففاجأه من حيث لا يـــتَوقع أن يـــأتي قـــبل سنة، فجاء. أتى. حَضَر، وهو الذي يخاف الـــتجارب الـــتي لا تأتي من المغامَرة. يقول أنه جاء مُرعِباً لا يشبه الصـــورة المرســـومة عـــنه في الرأس. ولمس اللذة المُرعِبة للعتيق بلا مســـطرة، كذلـــك اللذة المُرعِبة لذهَبيّ العين؛ حارّة قاحلة كحطام القمـــح والروائح النفاذة المُنتقاة من أنواع فِطر الفخار. وهي، هذه المَذابـــح الصـــفراء التي نادراً ما تصِل إلى درجة القتل، تنقُل خلال الســـطوح رعـــدة إلى يديه لحظة اللمس، بحيث يفقد وسائل التعبير باستثناء القفز والصراخ: لا أقدر در در در....

ويرى عينيها الذهبيتين بعين فُتحَت في مصفَعَته. لو يواجهها. يقـــول: لـــو أواجهها مثلاً. في صَحراء خالية من الأثاث فتقتله أو يقتـــلها. فَرق كبير بين أن يموت وبين أن تُميتَه. إذن لا فرق تقريباً لأنهـــا ســـتكون عـــزلاء ويكون أعزَل عدا سلاح العَض. وينسى الأخطـــاء والرغـــبة وغبار البُسط العتيقة وجيوب الجدران وعلب الـــنقود، في وضـــع مُجَـــرَّد أمام عينيها اللتين تتجهان إلى عينيه، مستدعياً تمارين الصمت وقوة البشر الذين نسيهم في الموقع والحظ، ولكـــنه سيكتشف، فيما بعد، بأنهم يَرفعون قدميه لكي يمشي، ليس الحـــظ بالضـــبط، بـــل السطوة وليس القوّة المُصنّفة ضمن جدول الاحتمال.



Twitter: @ketab_n

يلتفت بسرعة إلى الخلف ليراها بعين فُتحَت في مصفعته ولكنه يرى شخصاً آخر يشبهه، ويقف بصدد احتضانه ليتّحِد به ويخدشه. يَذكُر مَرة كَرَهَه.

أذكُـــر مَرة كَرهته. وهو يستشف ثوب امرأة وقَفَت في الباب فرأى استدارة فخذيها. كانت تطلب عوناً من أبيه ضد حلاّب. أما الآن فســـوف تنبثق لـــه من كُرات الصوف وسيَحتار في أي وضع يكون؟ لأن الاختيار يُقَسّم الروح، فإن خُيّرَ بين شيئين فسيختارهما معاً.

ويقـــوم المـــرء بأســـوأ الأعمـــال أحياناً: أن يَفتح باباً فيجد الأربعـــاء. ويُفـــتَح الباب فيتغير الفضاء، ويصعد لصق الحائط على رؤوس أصابعه.

طَلَعَت العجائز من الوديان، لحظة لمس التين النائم، مُلَبيّة دعوة هاجـــر بمناسبة خُروج ابنها إلى الناس لأول مرة، كمل طَلَعَت من قَبل لرؤية الصبي العجيب، بشعره الذهبي المُمَشَّط وهو يبتسم ساعة مولـــده لدائـــرة الوجوه المُجَعَّدَة ويَجزّ خصَل الشَيب، وقد صِحنَ بصوت واحد: " اسمه محمود!! أليس كذلك؟".. وهكذا كان...

بعدمـــا صار البيت نَهباً لحركة دائبة، أُجبِرَت هاجر على نزع الحـــداد تحـــت تأثير الخجل واللوم بحجة أن البيت لم يعد خالياً من صـــوت الـــرَجُل، فقـــد حَل شاهين محل أبيه وسيقوم باتباع الأثر الضـــخم ابـــتداءً مـــن العتبة فالوادي فبراري الأرانب، وهو يحمل البندقـــية ذاتهـــا التي وُجدَت مدفونة بعد فُقدان محمود بثلاثة أيام، وكانـــت مُعَلَّمَة بقطرات دم أسود لم يُعرَف ما إذا كان دمه أم دم أرنب؟.



Twitter: @ketab_n

وحين خرَجَت من غرفة نومها صَعبَ التعرف عليها لأنها بدت امرأة أخرى في عيون المدعُوّات، بعدما دلكت وجهها ببلورات الشَب لغرض إزالة التجاعيد، ولبسَت ملفَع الحرير الأحمر وغطاء الرأس المُنَمنَم، وقَسَّمَت نفسها بحزام فضي عريض لإثبات فعالية الخصر، فهَتَفنَ بصوت واحد: ياه!! لم يبقَ إلا العريس. ولكنها تلَمَّسَت قِلادة سِن الذئب بخجل لِتُذَكرهن بها.

تساءلت العيون عن صاحب الشرف بهذه الدعوة، فصعَدَت هاجر مُصطَحِبة امرأة أخرى، كان اسمها زهور على الأغلب، أو أي اسم آخر من فصيلة أعشاب الحدائق، فوجدتاه يقفز باتجاه السقف المنخفض في محاولة لطبع كفه على السخام.

فصاحت به: توَقف. فلم يعرفها، واستمر في التجريب حتى أقعَدَته بالقوة قائلة إنها هاجر، وهو ابنها لأن للابن أُماً واحدة. ولكن قد يكون للأُم عدة أولاد أحياناً. وتقول تلك الحمراء: انتهى الفَشَل.. من هذا اليوم أنتَ رجُل. وتقول أنها ستعود بعد دقيقة فلا يتَحرك من مكانه. وتَسحَب زهوراً نحو الأسفل ثم نحو الأعلى بعد قليل، تحملان المشط وماء الورد وجلباباً نظيفاً إضافة إلى البندقية وحزام الخرطوش. فأخَذَتا بتمشيطه وهو يصرخ: لا أقدر لا أقدر. كانت أسنان المشط تنكسر تباعاً في قَطيفَة رأسه. بعد ذلك، أهَضتاه ونَصَّفَتاه بحزام الخرطوش وحَمَّلَتاه البندقية فأسقطَها. وصاحت به: ارفعها. وصاحت به: تماسَك. وصاحت به: عَيب. فانقَطَع نقيق الأسفل، نقيق الأشياء الحلوة، الدبس والشاي والنيكوتين والنميمة. ويصعَد صوت إحدى السُفليات على السلّم: ما الذي يجري؟ هل لُدِغَ أحد؟. فترُد هاجر: كلا، لا شيء. ويعود



Twitter: @ketab_n

النقيق. كلهن يتحدثن معاً فلا تَسمَع واحدة ما تقول الأخرى. هذا النقيق بالذات..

يحـــس وهو يرفَع البندقية بطعم الشاي بلا سُكَّر؛ طعم المؤامرة لغـــرض ســـرقة الاسم. اسمه هو. شاهين ابن البقرة الحلوب. سبعة وعشـــرون عاماً من المؤامرات لأجل هذه اللحظة الذكية ويسقُط. طعـــم الجحيم النقيقيّ في أسفل الهاوية والساعة الأخيرة من العيش والذهـــول والرعب والمؤامرات مرة أخرى، حيث المذابح الصفراء التي نادراً ما تصِل إلى درجة القَتل ـــ مذابح الأخوة البَشَر.

ويقـــول أنه يشتاق كثيراً إلى شُباك الضحك وبرميل الابتسام ووشِـــيش السكون والامتداد والفراغ والعُري، ثم الركض الحُر بلا توقف، والسقوط الحُر بدون اصطدام. وهو شاهين ابن هذه الأسماء بـــلا قيود، يشعر أنه يبتعد عن نفسه فلا يعرف إلى أين سيأخذونه؟ وماذا سيفعلون به؟. ويريد أن يهرب فيجد الباب مُحاصَراً بزهور، والنقيق ينتظر.. فأخذ يضحك يضحك...

فشـــاركته هاجـــر وشاركتها زهور وشاركهم النقيق، فاهتز المـــترل بعد ذبول بضحكة عظيمة أسكَتَت أصوات البيئة من زقزقة ونهـــيق وخـــوار وعواء ومواء ونجدة وتوسل وأمر وطلب ومناداة وضـــحك... وتصعد فتحات الضحك على السلّم، ويبدأ التصفيق والغـــناء: " بنيّة ويا بنيّة يا ويلي هنا، لبس كِتان واردانه خفيفة يا ويـــلي هنا، أنا المَهيوب سَمّوني خفيفة يا ويلي هنا.." تصفيق. ولا أدري مـــا معنى التصفيق؟. صوت سقوط كَف على كَف. ويُترلنه محمولاً على الأذرع الصلبة، متكئاً على الأثداء الذاوية، فيعلَم أن لا جـــدوى من الرَفس، لأنهم سَقوه بالقوة ـــ في مرة سابقة ـــ حليب



Twitter: @ketab_n

أنـــثى الحمـــار لأجل الشفاء من السُعال الديكي. واحتاجَ لرائحة السُـــوس. آه.. السُوس!. احتاجَ إلى النوم تقريباً، ولكنهم أجلسوه مُنفَرِج الساقين تحت عَمائم سوداء وكلمات مُبهَمَة وصيحات فَزَع ومـــناخر كـــثقوب الفئران المليئة بالدَغل. ما شاء الله ما شاء الله. فقال: هَـــخ. وأفرَجوا ساقيه أكثر.

بَهجَـــة. واقفون. ألوان. روائح مُحَضَّرَة من أندَر الأعشاب. كانـــت الزغاريد تَخرُج من أنابيب البنادق، أما النساء فيُطلِقنَ من أفواههن الرصاص.

ويَـــتَقوّس حـــتى تُلامِس جبهته الأرض ثم يهتز بعذاب نادر. يـــبكي لأول مرة منذ عشرين عاماً... أوقفته النساء. سُكون عظيم بعـــد الضَـــحكَة العظـــيمة. وحلَلنَ اشتباكه المُعَقَّد كاشتباك الفَخ، فاقتَرَحـــت زهور بأن يتبَع آثار أبيه إلى البَرّيَّة ليتذوقنَ لحم الأرانب بهـــذه المناسبة العزيزة، لكن هاجر ارتَعَدت وأرادت أن تَفتح فمها ففُوجئـــت بكَف.. وهكذا قَبلَت بصعوبة تحت وطأة مَشَقة العار، فلم تتمكن الكَف من حجز دمعتها.

بدأ التصفيق مجدداً فخَطا مدفوعاً بأجساد وقَرصات وانتقاص بقصـــد التشجيع. وتقول إحداهن: ما شاء الله إنه يمشي. ويَصحنَ جمـــيعاً: شـــاهين يمشـــي، فَرخ البط عَوّام. عَوّام. ولكنه يتدحرج تقريباً. يشعر أنه في النوم يلوذ ببعض الأستار، يلوذ ببعض الحشرات لكـــي لا يُرى. يُغمض عينيه لكي لا يراه أحد. وأن نصفه الأسفل يـــنهار بسبب ثقل الحزام، غير أنه يمشي تقريباً وقد التَصقَت العيون التالفة في ظَهره.. وأخيراً، سمع صيحة إعجاب حين أكلَه الوادي...

بمحـــاذاة خَط الحصى المُعَلَّم بقطرات دماء الطرائد التي تحوّلَت



Twitter: @ketab_n

إلى عصـــارة عَطِنَة بعد مرورها بالأمعاء، وذكريات خدوش ذيول الحـــيوانات المصروعة، إضافة إلى الحُفَر المُخَطَّطَة كإشارة إلى مرور الإبـــرة التي تلم الشقوق وتنتهي بحُفَر تصغر بالتدريج حتى الخنصر، وجلســـات نفش الريش أوقات الاستراحة، حيث تُرمى الخراطيش الفارغـــة بعـــد نظرة ترحيب. تلك آثار الفقيد التي سَجَّلَت مقدار ارتفاعـــه عـــن الكُرة الأرضية حيث أُتيح لـــه أن يرى الضوء حتى خَط الأفق. كما سَجلَت ثقله الذي كَسَر القشرة وغاص لمعرفة سر الإنـــبات والوصـــول إلى عُقَـــد جذور الشوك واكتشاف دَرَنات الأصـــناف الصالحة للأكل عدا المعروفة من قِبَل الناس؛ كالكَعّوب والحَـــيلَوان والضُـــبَّح وخصـــية الـــبغل وخصية الجَدي والسعدان والفـــريون والجنيـــبرَة وزهـــور النُوّار، مع الحذر الشديد من بعض الأصـــناف الســـامّة؛ كالهوبَـــر وقَضيب الأرض وحُبوب الهَلوَسَة والعرهُون وبعض أنواع البُصّيل... إلخ.

وذكريات أصناف أخرى ذَهَبَت مع الربيع باستثناء العَنيدَة في الصبر على العَطَش كالعوسَج واللزّيق الذي يَجزّ صوف النعاج.

ظَهَرَت انتصابات محمود في الجهات الست لحَجَر النَرد المُحيط بالتائه كعلامات الزجاج قَبل التنظيف.

أعـــني مـــا مِـــن شيء يهتَز. لم يكن أي شيء يتحرك تحت الســـماء. أعـــني؛ هـــذه البريَّة بلا رجفة ولا أنَّة تشير إلى خطوط الضـــواري ومصادر المواد الخام للأرنب عبر مناطق هبوب عواصف البعوض، أعني؛ البَقّ.

فـــلا ينتهي الوادي من جهة البريَّة قبل الغروب لأنه يمد أذرعه بـــين ممـــرات الشـــوك متحسساً جهاد الطبيعة العتيق لحماية القدر



Twitter: @ketab_n

الأكـــبر من أبنائها وذلك بوضع بعضهم كمَصَدّات للرصاص دفاعاً عـــن المخالـــب، وإتاحة الفرصة للحائمات من الرخم والزاعقات لإعلان بشرى الوليمة.

كـــان صِفراً، تقريباً، إذا ما قِيس بتعدد الأشياء وكثرتها، ولم يكـــن أي شيء يتحرك تحت السماء. ويعرف أنه محض صِفر أمام خلـــود ألوان الأحجار، فيشغل نفسه بالتنفس ويعاني من ألَم الحزام وأنـــبوبة الإطلاق، مفكراً بضياع جميع الجهود. أعني؛ جهود الحذر من الخديعة الثانية.

يعـــود إلى تلـــك العصا أحياناً. ثلاث أو أربع حوادث فقط. هجـــوم الذئب بأربعة أرجل مخلبية، وأحياناً بثلاثة بعد أن جُرِحت الـــرابعة. كان يقرض أظفاره في حفرة، لا لكي يلتذ بأهمية التاريخ الشخصـــي.. بـــل ليتأكد أن اسمه: شاهين، وأنه يحب عواداً تحت الســـدرة لأنه صديقه ـــ وقلما يلتقي صديقان بلا أسلحة ملفوفة. كـــان يلعق الدبس بسبابته ويسمع النداء المُحَذِّر:" شاهين، ابتعد، إحـــذَر، تيقظ، انتبه، اختبئ ". الآن، هذه اللحظة بالذات، يبحث عـــن الصـــورة القديمة؛ لقطة تبدو فيها الطيور هاربة نحو صحارى آسيا لتموت بلا رعب مُستغنية عن الماء، وهي طيور مائية، لأنها لم تكـــن آتية من جُزر القمر بل من تلك المرأة المسماة: "هيروشيما"، آنـــذاك، عبر نشرات الأخبار، حيث يضعون الباقات تحت قدميها كل عام وهي تُحدثهم من وراء ضريحها المُحَطَّم وتُخبرهم بأسمائهم لحظـــة الاهـــتزاز أمام الزاوية. وهو يقول بأنه سيعرف شيئاً حتماً، سيحب شيئاً، لأن مبدأ الملاحظة لن يكذب عليه وهو يراقِب نفسه تطول وتُغير عاداتها وتجد في الحياة أسماء جديدة.



Twitter: @ketab_n

يتـــبادلان حروف اسميهما، هو وهي: شاهين هيروشيما. لأنه كـــان يحلم بتلك المرأة الفاتنة من اليابان لحظة هجوم الذئب بأربعة أرجـــل مخلبـــية، وأحياناً بثلاثة بعد أن جُرِحت الرابعة. تلك الليلة. ســـأقول: تلك الليلة، ولا أعني أنه يتذكر. ليس لأنه عديم الذاكرة، بـــل لأن لديـــه ذكريات وأحلاماً جديدة باستمرار. بالضبط: لأنه يحـــلم أكثر مما يتذكر، فلا وقت للماضي.. تلك الليلة: كان الأب يســـكُب في قلبه، بطيئاً، مبدأ الرجولة مُعتقِداً بأن توالي الصَدَمات يفـــتح مَمراً باتجاه الخِبرة والقوة، وهي هذه المناعة الشبيهة بخدوش تطعيم الجدري.

كان قد اصطحبه في تشرين ضائع بعدما استعار سيارة الجيب العـــائدة لصديق، قديمة شَغولَة في براري الأرانب البرية. شهدتُهما يَصـــعدان، يـــرفعان سيقانهما عن الأرض. أقول: شهدتُهما، لأن الكُـــتاب يَشـــهدون على جميع مآتم الأرض ويتحدثون عنها، لأنهم أكثر المخلوقات بطالة..

كانـــت مُـــرفقَة بشـــرط الحصول على نصف الصيد. "فلو اصـــطدتم أرنباً واحداً فلي نصفه" يقول صاحب السيارة. "ولكننا أكـــثر ذكـــاءً من جميع مخلوقات الله ـــ يا بُني" يقول الأب. وكان فيها ذلك الجهاز الذي ينقُل الأخبار عن المرأة اليابانية، حتى في أشد لحظـــات المـــتعة. رغم أنها تحاول، تلك العَجَلة العجوز، أن تُغطي الأنـــباء بهدير محركها، وتُطلق كشافها في غبار الأراضي المُسَطَّحَة، فتتحرك ظلال الأشواك بين الأخاديد.

ثمة غيوم صغيرة بعيدة.. بعيدة جداً.

ظـــلمة رصاصـــية. بَـــرد. بَرد. حيث تُعَشعِش الأرانب ذات



Twitter: @ketab_n

الشـــفاه المُشَقَّقَة والأنوف التي تشم بَقُول المزارع البعيدة، إضافة إلى طـــيور الشـــقراق المُستسلمة لحلم البيض والتناسل وهي مطموسة الـــرقاب وقـــد أبصَـــر ريشها الزيتي الملون في الضوء، ريشاً أزرق وأخضر وأحمر وأصفر... وتمُر فوقها العَجَلة...

مـــا مـــن شيء يهتز. لم يكن أي شيء ينتصب تحت السماء. هذه البريَّة بلا رجفة ولا أنّة ولا هدير ذي صدى يَصلح كموسيقى لمـــن يطيـــب لـــه الغناء في الفلوات مثلما كان يفعل محمود. وهو يَشعر دائماً بضرورة الطَرق على رأس ابنه بقصد المداعبة أو التربية، فيسأله الابن:" هل تحب الأرانب الغناء؟" فيجيبه:" ماذا قلت؟.. لم أسمَع". "هل تحب الأرانب الغناء؟". "هـــا.. غير وارد هذا الشرط في مهـــنة الصـــيد، ولكننا نُغني عندما مطمئن". " أنا لا أستطيع أن أُغـــني". " لأنـــكَ خـــائف". " لا " " وأنا لا أستطيع أن أُغني". "تكـــذب". " لا ". وينظر عبر زجاج النافذة الخلفية ــ في الحقيقة؛ لم يكـــن لها زجاج ــ فيُبصر أضواء فوانيس القرية بعيدة بعيـــدة.. بالكاد تُرى...

الأرض واســـعة ومتعالـــية عـــن الضوء، تمد أطرافها بغرور كســـول، مُعَطَّرَة من خلال الغبار عبر شقوق الأبواب، تتكور لكي تلاعـــب الســـيارة وتدور باتجاهات مختلفة محايدة. تلك الوهاد بلا مـــتانة ولا هشوشة بمثابة أحد الجبال.. وكان خاشعاً، سعيداً، دانياً مـــن الضـــحك العلـــني مسافة شَعرَة.. وأحياناً لا يتمكن من كتم ضحكته..

شَـــعَر بشوق إلى الإغماء، مع أنه نادراً ما يصل إلى الإغماء، فوَجـــد نفسه في كف الوادي وتساءل في أي إصبع سيذهب؟.. إنه


Twitter: @ketab_n

يحتاج إلى هذه اللحظة بعد التَعَب، لحظة الإغماء تقريباً. لأن الحصول على الصيد يتطلب إجهاد العين بمراقبة الأشواك التي تَركُض.

وبعد ساعة، وربما أكثر، سيسرقه التعب حتى يوشك أن يقول: يسرني أن أسقط فوق سرير. لكن الأمل بتغيير أحواله ينبثق قبل الغفوة وقد عَجَّل من اقتراب النوم، ثم يستيقظ فيجد كل شيء كما تركه؛ الدجاج في الحوش، النمل والعصافير تبحث، كالمعتاد، عن الحَب الساقط سهواً من ثقب كيس. غير أنها ــ عندما أعود إليهما معاً ــ لم ينقطعا عن التوقع بحدوث شيء شبيه بالكارثة. شوكة. شوكة. شوكة. جُرف. قُبَّرة. شوكة. قُبَّرتان... والإحساس يتغير بانبثاق تل يحجب الضوء أو حفرة تتطلب ضغط القَدم، فيُغريان بعضهما بصيغة التهنئة. كانت ضرورية تقريباً، تلك اللمسة، لحظة المصافحة ثم الانهيار على المقعد، إذا كان هناك مقعد ننهار عليه، وهو الوحيد من بين مقاعد كثيرة غير موجودة أصلاً... وهي ضرورية بالنسبة لشخص مُعتاد على بَرد البَراري، لأنه يعترف أحياناً بعدم قدرته على فهم شيء. إلا أنه يُحب، هكذا، كل شيء كما هو لحظة اهتزاز التين، وأخبار الآنسة: هيروشيما عبر مذياع العَجَلة.

أبصَر العيون الفسفورية للذئاب، دامعة آملة تحت الحُفَر بتفتيت أضلاع جسد بشري. ويقفز أرنب في الضوء. بينما يبحث عن أرنب في الضبوء. فرق كبير بين ضوء الليل وضوء النهار. وصاح الأب:" هاه!!". وصاح الابن:" أرجو أن لا يَهرب". وصاح الأب:" لن يَهرب مادام في الضوء". وركَل المُوَقِّف ونزل



Twitter: @ketab_n

بعدما ترك الضوء يسقط على ظَهر الأرنب الذي شم نفسه وتكور حتى صار أصغر من الفأر. أحس بخوف الأرنب فتمنى أن يُخطئ التصويب، لكنه لا يُخطئ إذا ما وجَّه الأنبوب بين الأذنين الطويلتين. وسمع الابن شيئاً يسقط من باب السيارة، ورآه يهش الأرنب فيقفز محاولاً الخروج من الضوء و... تلك الرنّة الجافة، تدل على الموت أو الفرح: طاخ. وصداها: طاخ...

بمحاذاة خطّ الحَصى المُعَلَّم بدماء الطرائد وذكريات خدوش ذيول الحيوانات المصروعة، إضافة إلى الحُفَر المُخَطَّطَة بإشارات مرور الإبرة. نحرها بسكين صغير ثم ترك الدم يسيل على أنف السيارة لأجل التَبرّك. وضحك آنذاك عندما اجتمعت العائلة يوم الجمعة، وغنى آنذاك بعد انطلاق العَجَلة الهرمة من جديد وانحدارها في واد. كانت هيروشيما معهما رغم الضوضاء. ويَبرز ارتفاع صغير فلَم يتمكن من تفاديه فيضطر لصعوده ثم.. "آه.. هل أنت بخير يا بني؟". " بخير يا أبي". "لا أظننا نستطيع إخراج السيارة من هذه الحُفرة".

وبمحاذاة خطّ الحَصى المُعَلَّم بدماء الطرائد توقف لكي يتألم من ثقل الحزام وهو بحاجة ماسة إلى الإغماء. يستدير نحو القرية فيُبصر بَشَراً مُلوَّنين بألوان الحصاد والنار والباذنجان، طائرين مع انحدار التل بارتفاع إصبع، وهم يرقصون بين الصفصاف في أحد الأيام العاصفة إلى جانب غسيل البياض والحيوانات الحُرَّة.

وفي الرابعة عصراً، ساعدَهم ظلال أكفهم على رؤية شخص بحجم الإصبع، مقسوماً بخط أسود، إذ تنحني التلال البعيدة ابتداءً من كتفيه على شكل نخلة تُرابية. تقول هاجر: إنه يَسقُط. وتقول



Twitter: @ketab_n

زهـــور: إنه في وضع الكمين.. عُودوا إلى البيت.. نجحنا.. حقيقة؛ إنـــه يَســـقُط بعدما تلمَّس الإبزيم. هاجر التي تعرِفه عندما يتلمس الإبزيم وينهار مع انزلاق الحِزام.

يـــرفَع بَصَـــره فيَرى جلستها المُلتاعة؛ وضْع الابتهال والنجدة وقد سقط آخرها مثل كرسي مُحَطَّم. فَكّها الهلالي. الجلد المُلتصق بـــالجَوف. مخالبها التي تَقَدَّسَت كخطوط في رقيم طيني لكي تُخلَّد لحظـــة الاحتضار قبل أن تُسلم نفسها لذباب التفسخ، وهو يسمع نجدتهـــا قادمة من أقصى العصور حتى ساعة القيامة. صرخة صادرة عـــن أسفل القَصبة الهوائية. وكان قد ضَرَب المقود بحركة تنم عن خســـارة، وظَـــل جالساً لبرهة يُحدق بوضع مائل إلى الظلام، في الظلام. نظره مُغَمّماً، إلى الفراغ حيث مكان الجُرف. فلو رفع يده لأضـــاعَ السيارة. فصَعَدَت شتائمه ضد الإنكليز صانعي العجلات الهـــرمة، تلـــك الشتائم التي تَقتلع الصبار وأشواك القنافذ. والمسافة المقطوعة في ليل البَراري الذي يمط نفسه لكي يَستر الأشواك بغرابة غير جديدة على صياد اعتاد المفاجآت طويلاً حسب معرفته بأسرار سطح الأرض. فقال الابن:"ماذا نفعل؟" وقال: ماذا أفعل؟. فأجابه الأب:"أعـــتقد بأننا سنعود مشياً..". والقرية بعيدة. "قد نخاف من الذئـــاب". وقـــد لا نخاف من الذئاب. و"ربما نتيه". وربما لا نتيه. وبَحـــثَ تحـــت المقعد عن كيس الخرطوش فقال الابن:"لا تُتعب نفسك. سمعتُ صوت سقوطه غير أنني انشغلتُ بالأرنب المذبوح". فهـــتف الأب: لاه!! خســـارة..". يقول وهو يحتاج الآن إلى النوم ولـــيس إلى الإغماء، ويسمع صدى تلك الكلمة تملأ البريّة وتمتد إلى مـــا وراء الجـــبل:"خسارة.. خسارة.."..خـــسا.. ثم غَطَس في



Twitter: @ketab_n

الشَـــخير... وهما يتبادلان الحروف الأولى من اسميهما: خ. خ. خ. خسارة...

كـــان قد ألصق خده آنذاك بالحديد البارد مُولياً وجهه صوب هواء تشرين، مفكراً باعتقادات قديمة، غابراً... غابراً جداً. لم يكن أيّ شيء يعنيه من هذا العالم لذلك يتعلم بطيئاً. فأراد أن يَمنَح ابنه بعـــض القسوة لأجل سلّم الرجولة الوعِر، ولكي يعرف قبل الوقت مـــا لم يعـــرفه هو. وجهه في الظلام. بصره مُغَمّماً. يكشف ذلك الوجـــه عن آبار عميقة حفرها، وبَشَر يكابدون الصعود نحو عادة الـــتدخين والشاي بعد الطعام. كان يعرف أنه كان محسوب على البَشَر ويُؤثر بالذين يلتقونه صدفة فيُصبحون حميمين. ولابد أنه فكر أيضـــاً بما أعطاه من أهمية لهوى الصيد لحظة الخلوة. فمنذ سنوات وهو يحب الصيد. الصيد وليس القَتل أبداً. أقول: إنه مُجَرَّد انطباع وفـــق طريقة؛ املأ الفراغات التالية...، لكي تصير هذه الرواية أكبر حجمـــاً. لأنني لا أعرف محموداً معرفة دقيقة كما لا أعرفُ شاهيناً ولا عالية ولا هاجر ولا عواداً.. لا أعرفُ أي واحد منهم تقريباً..

حـــين هبط المساء العالي فوق أنوف التلال، ضَبَّط عواد حزم أمتعـــته في إحدى عربات القطار على بعد ثلاثين ميلاً عن القرية، مـــتوجهاً صـــوب العاصـــمة، حيث تأتي من هناك رائحة الألوان وأخبار المَعارِض ونجاحات بعض المغمورين.

لقد أصبح، بعد أيام الانكسار، وحيداً يَهتدي بروائح الأصباغ حتى وضع خاص منبثق عن أمانٍ سابقة واحتمالات غضب تحولت بالتدريج إلى هواية باردة.

كـــان الانكســـار الأخير يدفعه لمواجهة اللوحة بعد الوقوف



Twitter: @ketab_n

ساعات طويلة، يُعد مكاناً مناسباً، مثل دجاجة تستعد للبيض، بين عشرات الأسماء الشهيرة، لأن عزيزة لم تعُد قادرة على عذاباته بها، وهو تبرير ملائم لأجل البحث عن امرأة أخرى مع الاعتراف بوجود الرفض تجاه كل جنس مغاير لجنسه. لكن الوقت كان ضيقاً دون أن يلجأ إلى الإحراق. يُنصت إلى صَفير القطار عندما يُمزِّق هواء المحطة. ويرى تمايل الشجيرات النظيفة مُوسعاً مساحة الغبطة بينه وبين الأشياء حتى صعوبة التمييز بين شرائط الحديد وساعة المبنى القديم كإشارة إلى كثافة الوقت المتغير من ضباب الصباح إلى حرارة ما بعد الظُهر، وهو يعرف أن من أصعب الأمور أن يُكوّن الإنسان فكرة محددة عن الأشياء حين يعتبرها الآخرون زمناً مضى بلا أهمية، وقد اعتبره أحد العوامل في سقوطه تجاه عزيزة حين رآها قبل أيام، بعد عامين من القطيعة، وقد أصبحَت أكثر بهاءً ونُدرَة وشجاعة في النظر إلى وجهه مباشرةً، فخمن أنها بعيدة عن استثمار رَجل غريب.

وهكذا كانت غامضة بحجة زوال الرقيب رغم إعلانها. تغوص في أسرار تَخُص غيره لأن وقع الخسارة كان يَخُصّه، وقد حذف الأمر بسرعة أمام الصديق شاهين كجزء من عوامل تَعَلَّمَها لتَعقيل نفسه عند مجيء لحظات الغضب. فكان يقول لنفسه: انظر إلى عينيها.. انظر!!. ويقول: يجب أن أنظر في عينيها. ويقول: هاتان العينان!..

وبعد الهبوط إلى واقعية الاحتمالات السابقة عندما حدثت أثر سنين التهيؤ للانتقال إلى النسيان. عَرَف بعد نزوله. هو. صاحب اللعنة السوداء، ويقولون أنها نظّارة سوداء. ومن خِلال رؤية



Twitter: @ketab_n

مسدســه. لعــلها قالت لــه:"أنهيتُ علاقتي بعواد لأنه مُرتفع عني كــثيراً وأشعُر بأنني صغيرة، وكيف تريدني أن أقول؛ نعم أرغب أن أكون صغيرة. فلا أقدر أن أُقدِّم لــه سوى الفراش البارد، حتى أنني لا أُجــيد صــنع الطعام باستثناء سلق البيض.." وهي لا تقدر كما تعــتقد، ولكنه يرى أنها قادرة، ليس لأنها جميلة بل لأنها تستطيع أن تكــون جمــيلة باستمرار. وتقول:"وهو ذلك العواد بحزنه الذي لا يُباح لأحد، وانفعالاته المُتبدلة.. لا أقدر.". وعَلِمَ بعد هذا التصريح أن قرار السفر بالقطار جاء مناسباً بعد أن قرأ عبارة تقول:"لم تَعُد، ولــن تعود أبداً تلك المعبودة التي جاءت إليّ. حقاً، لقد بكيتُ في هــذه المَــرة أكثر من جميع أطفال العالم." وكذلك بعد ذهابه إلى الدُكّــان ورؤيــتها وهــي تُمر بصُحبَته، ذلك الذي لا يَشعُر بوقفة الرســامين قــرب الدُكّــان، ويقول عبر نظارته السوداء:"ما هذه الشَــخبَطَة؟" ويَقصد الرسم. وهناك رجل آخر يختبر ذكاء الآخرين قُــرب الدُكّان كأنما وضَعَ نفسه قَسراً في كيس لأنه يَحمل كرشه لــيل نهــار حيثما يَذهب، ويقول: كيف تستطيع حَمل نَهديها إلى الأعلى بتلك الطريقة العدائية؟. ويقصد عزيزة.

رآهــا تَحمــل حقيبة بيضاء بحيث تُلائم لون القميص. وتلك الــتي سَــمّاها شَــهامة بينه وبين نفسه لكي يُدربها على نوع من الرياضــة العاطفــية، عــلى أساس أنه مُنقلب عن مفاهيم الآخرين ويفكــر بطــريقة مختلفة. رآها من مشغله تجتاز القنطرة بنوع من الإعجــاز والفرح وكأنها ابتعدت عنه بما يسمح لها بالضحك الحُر، وقــد نَسيت جميع الطرائف التي قررت أن تحكيها للنظارة السوداء في أول اللقــاء كــي لا تَذهب في لجة الحديث عن مَتاعب البيت


Twitter: @ketab_n

والطبخ والكَنس وغسل الصحون ومسك سجلات أبيها فتضيع بين الأرقام والأوزان ثم تقول له:"ولكنني ضائعة.. ربما لن أتزوج".

مَـرَّ وقت كاف لتفتيت تلك الثقة تدريجياً، ورغم ذلك وحتى في بداياتـه، لم يَعتـبر إهداء زَهرة لها بديلاً عن القُبلَة. ورغم ذلك أيضاً، لم يُقبّلها...

كانـت الرغبة المُطفأة تبدأ منه لحظة مُلاقاتها وهي تهتز أمامه بشـهوة تـأتي من الخارج مُعاكِسة للخوف، تأتي من مكان بعيد تقريـباً، من غيمة عابرة، أو من شيء صلب كالحاضر الذي يَنطق فيه اسمها فيتحوّل إلى ماضٍ فجأة بعدما ينتهي من نطقه. بينما كان ضـوء الجمر يَدبّ على جسدها المدهون بعبق الأنثى البشرية، وهي تغوص في وَبَر القَطيفة وتَنظر إليه خائفة بطرف عينها، نظرتها تقول اقترِب أيها البعيد. ويمد يديه فلا تَصلان..

إنـه لَمـن العسـير أن يَتخيّل الآن أية حكمة اتبَعَها لإيصال العاطفـة عـلى شكل المُعادلَة الحسابية، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً سـوى الإنكـار، لأنه يُضيّع بذلك سحر الكلمات ومقدرتها على وضـع المقـابل في منطقة القتل. لقد كَرَّس ساعات الرضا القليلة بالانصـراف لإعـداد كلمات الهدنة كلما وَجَدت أن من الأفضل إعطائـه فرصة جديدة للتخلي عن تأملاته، باختراع معركة معينة، وهـو يرحّـب أحـياناً بمثل هذه المعارك الغالية. وكانت وسيلتها الوحـيدة في تطويعـه ــ وهي تعرِف مقدماً عدم جدوى الوسائل معـه ــ أن تجعله ينتظرها لساعات طويلة، إذ تقول:"سآتيكَ بعد لحظة فانتظرني.".

وكانت لحظاتها شبيهة بلحظات الله من حيث الامتداد، كأنها



Twitter: @ketab_n

تَطمئن إلى رسوخ عاطفته وتَعلَم بأنه لن يغضب وقد تَرَكَته على سطح بيت مهجور في مكان لصيق بمياه النهر، يُنَصِّف ظَهره ظِل قضيب الشُباك، ويلمس جحيم الشمس في يوم تموزي أحمر.

حَدَثَ ذلك بين عَربتين حين جاءته الألوان مثل ومضات البرق. وهَزَّته العَربة في وضع الابتسام. وأغلقَ باب القطار في محاولة للنوم، غير أنه تَذَكّر مسدسه وهو يترل ماضياً بها إلى القنطرة، وهي تقيس اتساع ابتسامتها في زجاج نظارته السوداء. شَعَر بحاجة إلى الأزقة، وكلها معروفة من خلال نهاياتها.

القرية؛ مأوى الوَجَع الكبير، شكلها القديم الهادئ، أشجارها المُعادية. أشجار مُعَيَّنَة في مكان مُعَيَّن. سَواقٍ محفوفة بجذوع. وقد دَحرَج بعض الأصدقاء علبة بمثابة كُرة قَدَم.

ورآه يَحمل المسدس تحت قميص بلون الطين، وهو يعرف، تقريباً، عُمر هذا القميص. قيل أنه قال:"يجب أن أُسدل القميص فوق السروال لكي لا يَظهَر هذا، إنه لأمر يستدعي التضحية بالأناقة.". أما هذا، فيعني المسدس.

يَنظر إلى وجهه في زجاج القطار: إنكَ في وضع أفضل. مَن المتحدث؟. أنا عوّاد، وأنتَ؟. رشفة واحدة لكي تحس بالعزاء. رشفة أخرى. أخرى. مُرَّة هذه البيرة فكيف يشربونها؟. أخبرني ما الذي تَبَدَّل هناك؟ ما الذي تَبدَّل فيكَ.. أنت.

هل تُراك شخت؟ تلك المرأة المُتعبة، البريئة، الساقطة.. رشفة أخرى. مُرَّة هذه البيرة فكيف... إنني أُقدر إحساسك بها الآن وأنت تُقدم لي السجائر لكي تُخفي تركيزي في عينيك.....

بعد قليل سأفهم هذا الضوء، لا تتعجل، هل نجحتُ كما



Twitter: @ketab_n

تـــرى؟ هـــل نجحَتْ هيَ؟.. فإن نجح أحدنا لابد أن يفشل الآخر. ومَـــن الذي فشل؟. اسمع؛ يجب أن تذهب وحدك.. وحدك، ولكن لا تنسَ تحياتي لها.

أريد أن تعرف بأنني كنت معك.. وامتنعتُ عن الحضور لكي لا أجلـــب لها الإرباك. قل لها أنني كنت أشرب البيرة. قل لها إنني رأيـــته يشرب البيرة. شَوّه صورتي المُقَدَّسَة... يا أخي، خُذ سيجارة مِـــن هنا، لا فرق مِن هنا، خُذ. هل نتصارح؟..... رشفة أخرى.. يـــا للمرارة. اعترف لك بأنها علّمتني ما لا أستطيع تعلمه بمفردي، ولكـــنني أستَخسِـــر ضياع تلك الجهود... لأنها لم تَجنِ شيئاً. أنا تغيَّرتُ وهي هاربة دائماً.

هـــذه المـــرأة، بصراحة تامة، إما أن تتزوج من رَجل أبله أو تنـــتهي بفضيحة.. خسارة. قلتَ لي أنها تَشعر بالتَعَب والندم حول مسألة فقداني، أعرِف ذلك.

كانـــت تُـــريد أن تعطيني قلبها مثلما تُقدِّم تفاحة ناضجة... للأســـف، لا أريد هذا. أعني لا أريد أن تمنحني بسهولة.. آه ذلك الخيط.. لقد وضعتُ اللائمة عليها. قلت أنها لا تفهم. لقد فاتني أن كل إشارة منها، تلك الإشارات التي تمتاز بها، والتي حَبَّبَتها أكثر.. بحد ذاتها..

هـــنا نصـــل في القلب مباشرة.. هنا وليس هناك في الزجاج. تكلم يا أخي ولا تنظر إليّ باتهام هكذا.. تَكلّم تكلّم....

لحظـــة العـــبور، عندما وصل القطار إلى محطة أخرى، وهي واحـــدة من محطات كثيرة في طريق العاصمة. المكان مُقفَل بالبَشَر. ثمـــة أجســـاد لائـــذة بظلال الأكشاك. كان باعة السجائر خلف



Twitter: @ketab_n

صناديقهم: روثمان يا وَلَد. سومَر يا وَلَد. بغداد يا وَلَد. وصيحات أخرى: سندويج، عصير... إلخ.

فَكَّر بأن الوقت يسمح له بالذهاب إلى حديقة المحطة لأجل التقيؤ تحت الشجرة وغسل رأسه بالماء.

قَعَدَ على العشب وهو يرى أعالي الأشجار السوداء، واعياً خَدَره. لحظات من الذكرى الهادئة. عشب المحطة اللدن، سر غريب تفضحه الأعمدة وقشور الكَرَز: لم يكن صدرها يحمل حُباً، وإنما سلاً رؤياً. واقتَرَب وجهها المُشفق. وجه عزيزة. يبتسم لهذا الوجه الخاص عندما يسمع صافرة القطار..

وفي نفس اللحظات التي ينام فيها البعض يستيقظ البعض الآخر. تلك السلسلة من البَشَر. كل فرد، هذه اللحظة بالذات يفعل ما يفعله فرد آخر في أية بقعة من الأرض، ولذلك فإن السلسلة تخصهما؛ ينام عوّاد لكي يستيقظ شاهين فيجد حوله الظلمة، ما من شيء يَنتصب، ما من شيء يَهتز.

يسمع أصواتاً قريبة؛ شَمشَمَة، تَنَفُّساً مُرتفعاً...

يهبط في أحد أصابع الوادي لكي لا يُضيِّع طريق العودة. كان العواء حوله يثقب السواد مُلتاعاً مُعبِّراً عن الجوع. يسمع باب السيارة المقلوبة يَنصَفق. باب تلك السيارة الشَغولة في براري الأرانب البريّة آنذاك، فيطلُع الأب من الحُفرة مُتحدياً العيون الفسفورية، إلا أن الابن لم يكن يملك تفسيراً لجنون الكبار، ولن يصل إلى التفسير تقريباً.

قال الأب:"أرأيتَ... الذئب؟". "الذئب؟! لا لا..". كان يبدو غير مبالٍ وهو يقول:" منذ ساعة يُلاحِق السيارة". "وقد لا



Twitter: @ketab_n

يكـــون الذئب نفسه فالبريّة مليئة بالذئاب يا أبي". "أنت لا تعرف هذا النوع من الضواري".

سَمِـــع نفـــس العواء الذي سمعه قبل عشرين عاماً بين منابت الأشـــواك التي بدت أثناء النهار خالية من أصغر الحَشرات. يتساءل شاهين عن معنى أن يكون المرء خائفاً آنذاك؟ يتساءل: كيف كنت أحس بالخوف؟.. ما هو الخوف؟.

يعـــني أنـــه تَلَمَّـــس قلبه، وتَعَثَّر بالصخور، وأراد أن يبكي، وتَمَسَّك بقميص أبيه، وأراد أن يصل البيت بقفزة واحدة. هذا هو الخوف القديم.

إنـــه يُحـــب أن يخاف الآن، يتمنى لو يرتجف مثلما فعل قبل عشرين عاماً. يُنصِت إلى العواء فيفشَل.

ويحمِـــل البندقـــية بمثابة عصا، ثم يسأل: هل يقدر الذئب أن يقاتِل شخصين؟. فيجيئه الصوت من مكان مُعيّن:"بل يُقاتِل عشرة بـــنفس الســـهولة". ويســـأل: أيَســـتعين بذئاب أخرى؟. فيقول الصوت:"قلّما يَفعَل..". يقول: لماذا؟... مَن يدري..

كـــان محمـــود يعرِف خوف ابنه فيُخَفِّف:"تذَكَّر بأن الذئب خـــائف مـــثلك". "لماذا يُهاجِم إذن؟". "الخوف سبب العدوان.". ومـــلأ الفـــراغ بحداء بدويّ مُتعجباً لصفاء صوته كأنما سمعه لأول مَـــرة.. ثم قَطع غناءه قائلاً:"هل تَسمع صوتاً؟". فقال الابن:"نعم.. أسمَع صوتك.". "أقصد صوتاً آخر.".

يقول: لا أسمَع..

كـــان يـــتظاهر أحـــياناً بعدم السمع حتى في تلك اللحظات الرهيبة. لحظات العبور في نزهة الجمعة. وكان يَسمَع العواء والحداء



Twitter: @ketab_n

معـــاً كصوت واحد متناغم. ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة، وهي ليست أشرَس من الفراغ الذي يطمس كل شيء، يُلاشيه فلا يشـــعر بنفســـه بـــدون تلمّس. وهو، هذه الظلمة تمحو مكابدات البَشَـــر. لحظة عبور العنيف وطيران الأسئلة. القوائم المخلبية آنذاك، فـــيقول الأب أن الهجوم الأول لا يُؤذي لأنه يستطلِع وسائل دفاع الفريســـة، ولا يقصـــد الـــتحذير أبداً، ولكنه يلتصق أكثر عندما تتضاءل احتكاكات المُهاجم في سعَة البريّة. كان يقول له:"لا تَخَف يا بُني.. يا وَلَـــدي". وبذلك يُخيفه أكثر لحظة الذهاب لجلب الماء مـــن الخـــزان. والخزان بعيد قُرب الباب، بينما صارت المسافة بين أقدامهمـــا والقرية أبعد من قُطبيّ الأرض. تلك الأرض الكروية التي تُؤاخـــي بين المتضادات. لكن الجميع يعرف أن الرجل الحقيقي هو الذي يحذِف ساعات الخطر الحقيقية ويقترب من القرار بإلغاء صيَغ التعجـــب في تحجيم الذات. لم يكن ثمة وهن في تلك اللحظة. هناك فقـــط شيئان؛ عمود الحياة وحُفرة الموت، فلا مَفر من الترع بدون أن يخلـــع الحِس البَشَري ويُنازله. مخلب بمخلب، فَك بفك. ويسأل عـــن تلك الحيوانات الشرسة، فيسمَع الجواب عبر الأعوام:"سيهجم من جديد" ويسمع:"أطلبُ منك أن لا تَفزَع". ويسمع:" لا تتحرك بعـــيداً عـــني ولكـــن لا تلتصق بي فتُحِد حركتي". ويسمع:"هات البندقية" ويسأل عن تلك الحيوانات الشرسة فتجيبه بهجوم مباغت، ويغمـــض عينـــيه بانـــتظار الأمـــر الواقـــع. ويســـمع:"عـــووو عـــووو...وو"..

ويســـمعان معـــاً ذلك العواء فيصرَخ الأب:"لم أقتله". ويجيء العـــواء مـــن كل الجهات. فيقول الأب:"إن لم نمت الآن فسوف



Twitter: @ketab_n

نعيش طويلاً". "وأنت؟". "المهم أنت.. لست بخائف، وأنت؟".

سارا مسافة قليلة في الاتجاه المُفتَرَض فسأل الابن:"ولكن لماذا يعوي؟" فرد عليه الأب:"لماذا تبكي عندما أضربك؟". وتَلَمّسَ الأرض باحثاً عن حَجَر فلم يجد. وقف آنذاك تلك الوقفة المستسلمة الشجاعة، وجهه إلى السماء. ثم أخرَج علبة الدخان وأمَرَه أن يُراقب المحيط ريثما يُشعل سيجارة. كان يتأمل نار العود بأمان وينظر إلى وجه ابنه الشبيه بالقناع، ويقول أنه يحتاج إلى نار كبيرة عندما اقتَرَب صوت الأقدام قافزاً فوق الأشواك، فدَخَل الابن الصغير بين ساقي الأب الكبير، و لم يقم بأية محاولة لإبعاده. أخرَج حزمة عيدان وحَكّها فانبجَس الومض منعكساً في تلك العيون المُعادية. ولاحَت له آثار المخالب على الأرض عندما غيَّر خط الهجوم خوفاً من الضوء. ستنتهي العيدان بعد ثلاث محاولات. الطريق طويل. "ألا يوجد أحطاب هنا؟".. أي شيء يشتعل؟.. قش، قماش.." فدفعه برفق مُنتزِعاً قميصه. واقتَرَب فدَفَعه بقوة ثم طوى القميص على شكل فتيل وأشعله.. وتَبَدد الظلام.

يقول أنه شهد هزيمة الظلام. ويقولون أنهم أبصروا اللهب في البريّة. ويقول أنه نظر إلى وجه ولده وابتسم ليحثه على الهرولة.

وبعد أن قَطعا مسافة مناسبة، قَطعت النار نصف الفتيل، فسأل الابن:"لن يُهاجمنا مرة أخرى.. أيه؟". وضحك الأب حتى لسعته النار فرمى الشعلة...

يقول أنه كان ينظر بأسف إلى انتهاء النار. ثم ينظر إلى أبيه كيف يترَع سرواله ويطويه على شكل فتيل ويقبس. قال الابن:"يوه... صِرتَ عارياً". وهز الأب رأسه مبتسماً.



Twitter: @ketab_n

لم يكـــن قـــد رأى مرة ذلك العري. الجسد مُحاصَر بالليل. الجســـد القديم مرة بعد مرة. تلك النتوءات، الساقان ـــ ساقاه وراء الظَهـــر!! (...) بين الساقين كعروة تهتز مُضاءة في ألم العلب المُلونَة تحـــت العمامـــة والكلمات التركية والمخَدّة، البَهجة، الواقفون... الصـــدر العريض المُشعِر ـــ الدغل. غبطة مَرهونة بتخديش المخالب المُعاديـــة. عـــار لا يتبدد عند الحافة لأن القفز ممنوع. وهي، تلك الحفـــرة، ظـــلمة زرقاء شاحبة... فيسمع أصواتاً إنسانية ويهتف: وصـــلنا!. ويتســـلق كتف الوادي فتَظهَر النوافذ مُضاءة. الأشجار الســـوداء تَحُك نفسها للتخلص من بعض أوراقها الميتة وهي تنحني لكي تمنع انقلاب التِلال.

تمكـــن أن يـــرى آثـــار أظلاف الماعز في بقع الضياء، والبئر مُحاصَـــراً بالشـــوك والصخور المُحَزَّزَة عند نهاية طحالب مجاري الصابون.

رأى أكياســـاً ســـوداء حـــين تسلق بوضع مائل، فناداه أحد الأكـــياس: مَن هناك؟ شاهين؟. وتَدَحرَجَت الأكياس فتحوّلَت إلى عجائز أحطن به وسألنه عن عدد الأرانب التي اصطادها.

اقـــترب أحـــد الظـــلال واحتضـــنه ثم سأله: أين البندقية.. والحـــزام؟!. فقال مترعجاً: آه.. حقاً أين البندقية والحِزام؟. وصعد النقيق مُجدَّدَاً ثم تَفَرَّقَت الأكياس في الوديان...

كـــان شعبان يمد ساقيه فوق العتبة لينتظر عودة شاهين الذي اجتازه بخطوة واسعة، ماضياً نحو ظلمة السلَّم.

أمـــا هاجر فقد تعَثَّرت لحظة الاجتياز وكَفَرَت. يـــوه.. مَن الذي وضع هذه الأخشاب هنا؟. فأجابتها الأخشاب: أنا شعبان..



Twitter: @ketab_n

عمـــي يقول جئني بشاهين. فتبين لها وجهه مشابهاً لكُرة الصوف. قالت: لحظة يا شعبان.. انتظر. وتلاشَت في الظلمة..

عـــندما فَرَك المُنتظِر يديه فوجئ بشيء صلب قَدَّرَه عصا من خلال رَنة الخشب على رأسه. تَرِنّ وتُؤلم. فتَدَحرَج مع السفح حتى حُطـــام لعـــب الأطفال الواخزة في مضيق المجرى. وسَمِعَت عواءه، صـــوتاً يخـــتلف عن الغناء. وسمِعَت سؤالاً مُتَكسِّراً بسبب درجات السلّم: هل تحملين قِلادة سِن الذئب؟. فتجيب: طبعاً، لماذا؟..

أمـــا حلاّب فكان ينتظر عائماً عبر روائح الأرضيات المغسولة عصـــراً، فيقذف الغطاء ويزيح الستائر عند رأس سريره المُعَد لثلاثة أشـــخاص، ويُعـــيد التأكد من دِقة الإجراءات منذ الجلوس الأخير للشمس على أغصان شجرة التوت. يأمل، في لحظات قبل القيامة، بـــرؤية فَـــرخ الصياد محتاراً بين تعدد الغرف وسِعَة الممرات، لعلّ الرَهـــبَة تأخذه فيعود إلى غَطسَته بعد النظرة القريبة للبيت الواقف على قوائم جصيّة، بمناديلته الشبيهة بشواهد القبور، حَسب العُرف، إنهـــا تنادي الضيف، إذا ما استثنينا تفجّر الضوء وتمدده في أقاصي الـــدروب. يعد الغرف فيُخطئ الحساب. يعدها من جديد: ثلاث إلى الـــيمين، ثـــلاث في نهاية الممر، اثنتان على السطح، واحدة إلى اليســـار، ماعدا المَضيف والقبو والمرآب والزرائب في أقصى الفناء.. ثم أسيجة الآس وحشائش المَدخَل الصناعية.

لكـــل زوجة ثلاث غرف تنتهي جميعاً بسعة المطبخ. الملائكة تدخُـــل حيـــث لا تجـــد صورة مُحَرَّمَة على الجدران فترتد، وإنما تـــنجذب لحـــدوة الحصان وحذاء الطفل ورأس ذَكَر الغزال محشواً بالـــتبن وملفـــوف القرنين بورق الفضة وقد أُثقِل بقلائد مختلفة من



Twitter: @ketab_n

الـــوَدَع والخَـــرَز النادِر. أما المدخَل فيُضاء بسراج مُستَورَد، يُوَزع الدخـــان والـــنور بتســـاوٍ عجيب، وترتمي إلى جانبه حُزمَة عيدان تُستَخدَم لتنظيف الأسنان بعد وجبات الثريد.

كانت الصراصير الحمراء تجتمع من كل صدع مُستأنِسة بضوء الســـراج. وهـــي تسليته الوحيدة في ليلي الأرق، حيث يقتل وقته بـــنداءات تشـــجيع وتصفيق لصاحب الغلبة من أصناف الزواحف وأبي بـــريص، ويـــتمنى بصوت مرتفع يهز نوافذ البيوت القريبة من بيته، أن يغلب أحد الزواحف فتهرب الباقية بعدما يصير سيد دائرة الضوء أمام زاحفة أصغر حجماً لأنها أنثى معجبة بقوة بعلها، هازَّة ذيلها الإبريّ كإصبع يشير: اقترِب يا حبيبي..

وهـــو ولوع بالسكاكين وأصناف الآلات الحادة، كشفرات الحلاقة والمقصات، لأنها ذوات فضل كبير في رؤيته للنور، بعد تلك الصـــرخة الـــتي أسمعت التائهين. حيث قامت إحدى العجائز بفتح قُبتـــيه بواســـطة سكين البصل المُحَمّى، فتحوّلتا إلى مجرد جرحين قـــادرين عـــلى بعض الإبصار. وقد أثّرَت تلك الرؤية الأولى على فهمـــه للأشياء فيما بعد. وكَتَبَ عنه صحفي زار القرية، افتتاحية ضخمة لإحدى صحف الغَرب.

يقولون أنه كان مُترعجاً من الكلب الذي يُنابِح سيارته كلما خـــرج للتبرّز في البريّة، وقد روى لهم تفاصيل المقلَب، بعد ركض الكلـــب حـــذاء السيارة، إذ أمسَك بذيله، وضغَط قدمه على عَتَلَة الوقـــود.. فأخذ المسكين يعوي، حتى اختفَت القرية خلف سحابة الغبار، عند ذاك، تركه يعود ماشياً بعدما تَجَرَّحَت بطنه، وأقسم في قـــراره أن لا يراكِض سيارة بعد اليوم "خاصة إذا كانت زرقاء مثل


Twitter: @ketab_n

سيارتي..".

مـــا من أحد يفهم هذا الرجل سوى الصياد الفقيد، وزوجته الكـــبيرة الـــتي عاصـــرت تحولاته المختلفة، وقد أخذها بعد تجربة مُســـاوَمة، لا بسبب قصة حُب، لأن أباها كان مَديناً لـــه بكيس قطـــن. فاحتملَـــت رفساته طوال سنوات الأرق، وهو يُقوّس جثته باتجـــاه الأرض ويُداعب لحيته الشبيهة بالضَماد الأسود. وهي تمضي اللـــيالي منثنية مع غضبه، تُحمِّص قهوته على الجمر، وتحتمل قفزه وصراخه المُشَجِّع لبي بريص، وقنوطه في حال خسارة الزاحف أمام الصراصـــير الحمـــر بنتيجة: واحد ــ صِفر. بعد أن يبصق، فيسيل بصاقه قطراً نصفاً لدائرة الضوء.

عندما دخل شعبان مُكَدَّمَاً، تراجع في عتمة الممر، فقص لـــه مـــا حدث قائلاً: الجواب أمام عينيك يا عمي. فما كان منه إلا أن يُرسِـــل أشد الرجال لجلب فَرخ الصياد بالقوة، بعد أن حاصَر أنوار البيت ببعض قِطَع الكارتون.

لم تُجـــدِ محاولات هاجر في منعهم من الدخول لأنهم هدَّدوها بكَسر الباب.

سمـــع شـــاهين جلـــبة فتزَل يسأل عن المَصدَر، فحملوه على أذرعهم القوية باتجاه أعشاب المَدخَل الصناعية. فقال أحدهم: هذا هـــو يـــا عمي. ورد شاهين: نعم، هذا هو يا عمي. وسمعَ ضحكة فَحيحيَّة رفيعة وكلمة: هاتُـــوه. ثم: لا، ليس الآن، قولوا لـــه بأنني غـــير موجود. يقول شاهين: آه.. ملعون! أليسَ هذا صوتك؟ لماذا تجلس في الظلمة، هل أنتَ خائف مني مثلاً؟. وأتته صَفعَة قوية مع: تأدَّب يا ولَد. فرد: نعم تأدَّب يا ولَد. قال الصوت: هاتُـــوه الآن.



Twitter: @ketab_n

فأدخلُوه إلى عتمة الممر، ظلّت هاجر تَحُك رأسها بعصبية، وتُؤجل قـــرار لبس الحداد مُجَدَّداً، دون أن تعرف ماذا يتوجب عليها فعله بالضـــبط؟ فتَلَمَّسَت عصاها وزَمَّت شفتيها في الباب، ثم تراجعَت نحـــو السلّم مأخوذة بأسئلة التردد: هل أذهَب؟ أم أتركه؟. وفكَّرَت بضـــرورة الحصـــول على الدليل الذي لا يُؤجل قرار الانتقام، وفق انتظام نتائج بعض الوقائع التي تؤكد بأن اختفاء زوجها قبل عشرين عاماً، كان فَخاً مُدبَّراً، لأنه كان قادراً على صفع المُتجاوِز في حفلة الغجـــر، أمـــام الجميع، حيث اهتزت نورية. "يا أهل القرية، رحم الســـامع مـــنكم.. مَـــتّعوا أبصـــاركم..". في باحة البيت الجصيّ امتزجَـــت قَـــرقَعة القدور بقرقعة أصابع الغجري على الطَبلَة، مرة يـــنحني ومرة ينام حتى صارت أصابع خمسين في كل كف. متبوعة بمـــواء ربابة الصفيح، والصوت الخارج من عنق الغجرية المدهون. والخِرفان الثلاثة تَغلي بأمعائها، محروسة خشية سقوط الأطفال نظراً لسعة القدر وسعة فتحة الثوب أحياناً، لأن العيون تتسع معها عندما يـــلمَع الفخـــذ، وتصعَد قلوب المُشاهدين خارج صدورهم ثم تحُط ثانـــية و"وصلة غنائية اذكُري فيها اسم حلاّب.. خمسة دنانير بين نهديك"، وطَلَقات تحذير لحظة دخول المُهاب، الذي رَفَع حلاباً من جلبابه:"أعط المسكين حقه". فيزعَق:"ليس هذا وقت حساب يا أبا شـــاهين.. نـــريد أن نـــتونَّس يـــا أخـــي".. ويضَع البندقية على عنقه:"سأجعلكَ تتونَّس في الجحيم.. هيا". فيسحب دنانيره من بين النهدين ويدفعها لصاحب الحق.

تقول: هل أذهَب؟ أم لا أذهَب؟.

يصـــرخ شـــاهين: ادفَعوا هذا السواد لأرى مكان الخُفَّين. إنه



Twitter: @ketab_n

يسمعهما يَحُكان الأرض ويدوران في فراغ الظلمة.

شَعَرَت عزيزة بأنها مربوطة بوَتَد حيث كوخ التبن. وهي لا تستطيع الجزم، بأن عواداً سيأتي ويعقف ظَهره لحظة الاقتراب فيقذف نفسه إلى الداخل بسرعة ويمكث.

لا تدري إن كانت قد أعطته موعداً، بإشارة أو كلمة، لأنها لا تذكُر بالتحديد أية كلمة!.. غير أن المكان أكيد؛ كوخ التبن، منعزل في الطَرَف. مكان مُلائم لتبادل الاهتمام والحُب. فوَسَّعَت عينيها حتى لحظة الألفة. ثم أضاءت الثقاب لترى وطواطاً مُعلَّقاً بنبتة قنّب موصولة بين عمودين يرفعان السقف.

لم يأت، حين انطفأ العود، و لم يأت بعد انطفاء العود الآخر. ربما جاء قبل الوقت فلم يجدها. وأضاءت عوداً آخر، فكان التبن يعلو ليُلامس السقف أقصى الكوخ، ويهبط حتى يكاد أن يتلاشى عند الباب. اقتَرَب شَبَح، فاشتاقَت إلى حرائق الألوان. وميَّزَت حفيف جلبابه، وهي تسعل سعالاً كاذباً. اختَضَّت عندما رمى نفسه، كأنما انقَلَب جوفها، فنادته: أسرع.. انتظِر. وشَمّ في جدائلها رائحة مزيج من السدر والروث والحناء. انتظِر. ذهبت إلى مواعيد نفش قُطن الوسائد حيث تُغلق أنفها وتعطس. أغراها الدفء بالمكوث بلا أمل بعد نهار نظيف تلبَّد فيه غبار أرجُل القطعان العائدة، وغصَّت نوافذ القرية. وأنزَلَت الأكياس بمثابة ستائر، فصاح شاهين من الأقصى: ادفعوا هذا السواد. وأخرَجَت رأسها من باب الكوخ لتَسمَع نباحاً وأصوات إذاعات، لأن الليل لم يَعبُر نصفه الأول. وجلسات القرويين تُطاول محاولات البَق بالانتحار قرب مصادر الضوء، رغم نهار شاق قضوه. وهي تخشى



Twitter: @ketab_n

فوانيسهم التي قد تُداهمها فجأة، بحثاً عن دجاجة ضائعة.. وتتراجَع إلى الزاوية.

أشــعَلَت هاجر عوداً ثالثاً، فرأت أنها تُمسك، منذ الغروب، قــلادة ســن الذئب. بعدما دَفَعَت إليه بعض الطعام. وكيف ينام الجائع؟. ولكنه أبعَد الصحن، ثم تركَ شَعر رأسه وذقنه لعَبَث الهواء، وأسلَم ساعديه للبَق خارج الشُباك، ينظر إلى صف التين ذاوياً عند سطح المترل. كان يأمل بذهاب الأشعة خلف مترل حلاّب، متيقناً بــأن القطعان ستَشبَع قبل الغروب فتعود عبر الدروب الضيقة، وهو وقــت يسمح بمُعابَثة خَرَز السبْحَة. كان حزيناً مُتورم القلب. ربما كــان مُتعاطفاً مع الهراوة والبندقية والسكين، وربما واقفاً في الباب بعــد هجــوم الذئــب، حيث تَمُر الليلة الأولى بلا نتيجة مفيدة. فيبحث ببصره، وهو مُحاط بزوايا الحائط، عن وقفَة رشيقة وجريح يعوي. نَفَخَت اللهب لأنها لا تريد الضوء الآن.

"أريــد أن آكلك يا ضفدعة". فلم تفهم عزيزة... وانسَحَبَت إلى الــوراء، كأن يداً تجرها من ثقب، وهي تذكُر كيف تَوَسَّدَت بطنه في الظل خائفة، لا تدري.

جــاءت لأجــل الــلحظة، فلتذهَب الذكريات إلى حيث... يقــول: ســأخرُج يــا عزيزة. تقول: أرجوك لا تتركني وحدي. ويقــترِب عــندما يثقُبه التَوسل. يقترب بحدود امتداد الذراع حتى يُلامِــس خــيط الرقبة. وتنظر باتجاهه فلا تُبصره لأن الظلام على وجهه. وسَحَبَت طرف الثوب لتُخفي ساقها في الظلام. يقول: لماذا تَضحكين.. ها؟. وتقول: أوه.. لا أستطيع.

ويصــيح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى... بينما ظَلت



Twitter: @ketab_n

هاجـــر تَحُك رأسها بعصبية. جاء قبل ظُهر النهار التالي ونام حتى العصـــر.. ثم استيقظ على صوت المذياع. ودار حول مخزَن الحَطَب عشـــر مرات. واستنشق الدخان بعمق قبل أن يشرَب طاسَة اللبَن. أعـــدَّت لـــه الحَمّام وأدوات الحلاقة، غير أنه انحدَر مع الماء الزائد. ونَقَـــلَ الـــرُعاة عنه، آنذاك، بأنه لا يَرغَب بمُلاطَفة أحد كما كان يفعَـــل، ولا يَرُد تحيات النسوة عند البئر كما كان يفعل. لعله يُعاني مشـــكلة تخـــص الضوء، فلم ينقطع عن العطاس لأنه لم ينقطع عن مُراقـــبة نـــزول الشمس. وقبل حُلول الليل نظر إليها نظرة غريبة ثم خَرَج...

وصـــاح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى. فلم يُجبه أحد غير احتكاك الخُفين بالأرض. وسؤال بسيط: 1 + 1 كَم يُساوي؟. ويصـــرخ: لن أُجيب حتى أرى.. هـــه. وتنطلق الضحكة الفحيحة الرفـــيعة، تهز أعمدة العتمة. أما الخُفان فيُثيرانه باحتكاكهما في قاعة أو فضاء، لا يدري.

هاجر مُضطَربة لتأخُره؛ أتذهَب؟ أم تنتظر الدليل؟. تذكُر أنها كانـــت تُراقب تسلُّق الدرب، ففاجأها ساق تَدفَع الباب وتضحك عالـــياً.. ورأته يقف بطول قامته التام وسط غرفة الجلوس. ويُلقي ثُقـــلاً عن كتفه، فصاحَت:"هـــاه!! كلب مَيّت!". فازداد ضحكه حـــتى الســـقوط ومُعانقة الجثة. ثم قال بهدوء:"إنه ذئب يا بَطة، بل الذئـــب.. انظُري إليه..". كان رشيقاً بملامح شرسة مُدَبَّبة، وعينين غائبـــتين. كـــان مُصـــاباً تحت أذنه برَشقَة من حَصى الخرطوش. قال:"خُذي أنيابه وسَوي منها قلادة. أَريد الطعام والحَمّام وأدوات الحلاقة.. بسرعة". وتقول: هذه هي القلادة. راح يضحك...



Twitter: @ketab_n

وتضحك عزيزة فيسألها: لَمَ تضحكين.. هـــا؟.

فـــتقول: أوه.. لا أســـتطيع. ثم تســـتطلِع البيئة: لم يأتِ إلى الموعِد.. الكلب.

يعـــود الإحساس بجَذب اليد الخفيّة، فتُقرر دفع ذراعها لإبعاد تلك اليد. تتوَسّل: مَهلاً.. امتلأ شَعري تِبناً.

وتمـــوت الأصوات خارج الكوخ، وتبقى وحيدة على سطح الأرض، واقفة وقوف حصاة مقذوفة في الفضاء، عند نهاية الصعود وبداية الهبوط...

تعـــتقد بأنـــه سألها: أين بيتكم؟. فأجابته ضاحكة: بيتنا؟! ألا تعـــرِف؟ هـــنـــاك، حيث تجد حماراً مربوطاً بشجرة، وإلى يسارك لافتة تقول؛ بيت القابلة أم وليد...

وتـــتمطى على التبن بعدما تألف وخزه، ثم تُسند رأسها على كتفه وترغب بالبكاء، لأنها تحب البكاء أحياناً. وتشعُر بالدَم الدافئ يُحرك الرغبة...

تســـأله: متى نتزوج؟. فيُجيب: الآن إذا شئت. وتنسى البكاء لتســـأله من جديد: متى نتزوج؟.. انتظِر، سأقول لكَ أنا.. ايـــه... عـــندما تنـــتهي اللوحـــة. فيدفعها عنه صارخاً: أية لوحة تَعنين؟. فـــتقول: ايـــــه... يـــا عـــوّاد، لا تَجعَل نفسك غبياً.. يا أخي. ويصرَخ: اللعنة يا عزيزة. ويضربها حتى تَتحطّم نظارته السوداء...

ويصيح شاهين: ادفَعوا عني هذا السواد لأرى. فلم يُجبه أحد غير صوت احتكاك الخُفين. ثم سؤال بسيط: مريم ابنة عمران... ما اسم والدها؟. فيقول: لن أُجيب حتى أرى.. هـــه.



Twitter: @ketab_n

يــتوقف الصوت فجأة، وتتوقف الأسئلة، أو تضمَحل تقريباً. يمد ذراعيه فلا تصلان. ليس ثمة حائط أو عمود أو خزانة أو جسد أو بقرة.. لا شيء تقريباً. ظلمة. سواد. هــوَّة خانقة، لذا فكَّرَ بأن تجــربة اليومين الماضيين... أية تجربة؟. فكّر بأنه ميّت. أين الباب؟ هــل مِــن ســقف لهــذا السواد؟ أسئلة ضائعة. يسأل مَن؟ ومَن يُجيب.....؟.....

كان الصوت يَضمَحِل ــ انتهاء الشاي. يَضمَحِل ــ جَفاف الغدران. يَضمَحِل ــ العُمر... أين عِظام البَشَر؟.

يقــول: هذا الظَلام. ويرى الظَلام. الظَلام. انطفاء الضحك، وَعــدٌ بلا إثارة ــ مُجرَّد دعابَة جافَّة تُؤدي إلى ثقوب مُغلَقَة حيث مُســتَنقَع البَرد والسُكون. تأتي جميع الصُور والذكريات والأحلام والمخــاوف والمشــاعر والأفكار في لحظة واحدة واحدة. وتَذهَب اللغــة فيَعتَقد بأنه مَيّت ولذلك يصرخ هذه الصرخات لكي يسمع نفسه. ويتأكد بأنه ينطق ويَسمَع. فيقول: هذا الظَلام الحَق المُخيف الجــارِح الأسر المُفرَدات ــ تجاوزها.. الصعوبة كانت القوة مرحَلة المَــرض في المُفــردة الصغيرة يمكن ذلك، عضو من الأعضاء يمكن الاســتغناء عنها كالقَلب المكرُوه كما هو مُؤلِم جدير بالقَذف ــ ســتبقى دائمــاً عــلى السطح دائماً دائماً.. دا.... إلا إذا كانت الخــوارِق شــيء كثيف هابط مُمتزج بوجوه الثعالب والأصدقاء ويــبقى السِــر لحظة أخيرة من النَزع حَرَكة سكّين الذَبح في باب المَذبَــح، بــاب بابا ــ با... لأجل الألم يقترن بانغراز الأصابع في فَروة الشَعر لكنها تنشر ولا تخفف لأنها مُباحة دائماً دائماً ــ دا... قلــــ... وبــ... عسى... لا... لو... فردا.. دا.. با.. دا تحيات



Twitter: @ketab_n

العُمق... دافـــ..... دابادا... دابادا.

تـــأتي صُور أخرى. صرخَة بلا حُبُور. وتَذهَب خيوط اللغة: هذا القيّد شكل الرِداء حالة البَشَر ـــ الدمعَة اكتشاف حديث. وما هو الرِداء ضد الرداء.. ادفَعوا هذا السواد ضد الجَمال نفسه والموت تحوّل الوجه إلى رِداء... رداء... داء... دا...

لـــيس ثمة بقعَة لُممارسَة العُري العري والتَجرُّد من اللغة القيد خـــير دلـــيل على مجيء الغَد هو الراءة قَطرَة عُذرية الرَجُل في ذهن رَجُـــل آخر صُورة جميلة من صُور التفاني اليائس ـــ احتضن البَشَر تحت الشجرة... البَشَر... البَشَر... البـــ.. با... سَيلان المُمكن في الجـــامد كالحديـــث الجارح عن الرمل والهواء والنَميمَة عن الجبل رفـــض الفكـــرة لأجـــل الآخر الآخرين ـــ الآخر.. صرخَة هي إسكات مِن ع حتى أقاصي ك دائرة.. دائرة.. داء.. دا... دابادا... دابادا.

ولكـــنه نادراً ما يَصِل إلى الإغماء. يمد ذراعيه فلا تصلان، إذ لـــيس ثمـــة حائط أو خزانة أو عمود أو زَفير.. ويصرخ صَرخَة بلا حُبور ولا صَوت: دابـــادا.

بيـــنما يضـــمَحل حلاّب في موسم الفيضان. أطراف صدى مُتَكَسِّـــر في أذنـــيه. يقطَـــع تنفسه لكي يتزلق عن خط رسمته التي فَتَحَـــت عينيه بسكين البصل المُحمّى ويقول: جدّتي ساعديني حتى أَقهَر شاهين.

وفي لجـــة الظلمة مُذ كان ينام فوق دَكة الحطب أمام كوخها الضـــائع.. يحـــتاج إلى غيبوبة لكي يتذكر أطراف نصائحها، لأن الذكـــرى معدومـــة في هَزّة النسيان. غير أنه لن ينسى وجوه الذين



Twitter: @ketab_n

لَوَّحَـــت خـــناجرهم في العتمة لتصطاده، ولا الكلمات المُبهَمة التي يُطلقهـــا مَـــن هم أكثر حكمة منه.. حيث تسلل قبيل الفجر إلى كوخهـــا، فتمارَضَت حين عَرَفَت خطواته، وأخذَت تَهذي، وهو يقـــرأ وجهها المحروث: تحذير من يد ناعمة. فجَفَل وعاد مسرعاً، وقـــد سَحَب بكتفه لِبنة واهنة عن باب الكوخ. وأنسَته الرعدة أن يدس تحت وسادتها حزمة الورق المقدس، لذلك عزَمَت على عقابه، فغمـــرها وحي الشيطان، وأبصرَته عبر السقف يركض فوق سطح الكوخ فأسقَطَته... بكى واعتذَر.

ويبقى شاهين وحيداً، لا يدري، مُستديراً، مَخرُوطِيّاً، أشكال أخـــرى من المُجَسمَات يَصيرها كالعجين والغرين، ومن بعيد جداً، صَعَدَت سيارة عبر التواء أرضي، فقرأ على هَدْي أضوائها، لافِتَة في الممر:"اعقد رأس الخيط لكي لا تفوتك غَرزة".

صَرَخَت الحَريم: إلى متى سنظَل في الظلمة؟.

وحَـــدَث شـــجار حول ملعقة، فتحرك الخُفّان باضطراب، ثم صـــوت أجَـــش: أصمتن يا.. قحاب. فقال شاهين: كلهم يريدون الضـــوء، فـــلماذا الظلمة؟. ازدادَت حركة الخُفين وصرخ الصوت الأجـــش: اصـــمت يا قَحب. لم ينقطع الشجار حول الملعقة، لأن حُرمـــته الكـــبيرة ــ اسمها زكية من خلال اللغط ــ تسيطر على الموقف لأنها تحمل مفهوماً خاصاً عن حلاّب، فقد عاصَرَت تحوّلاته المخـــتلفة، إذ أخذها بعد تجربة مُساوَمَة، لا بسبب قصة حُب، لأن أباها كان مَديناً لحلاّب بكيس قطن، فاحتَمَلَت رفساته طوال سنين الأرَق وهو يُقوّس جثته باتجاه الأرض ويُداعب لحيته الشبيهة بضماد أســـود. وقـــد حَكَت لجاراتها عنه الكثير الكثيـــر، مثلاً: حلاّب



Twitter: @ketab_n

يَكتئب من نفسه، ومن البَشَر أيضاً. يحب أن يُمزِّق ملابسه، هكذا، بدون حادثة ضرورية. يفكر وحده، ويتمنى أن يُتلف أعصابه، فَتَتيه أفكـــاره. لا يفكـــر بشـــيء مُعيّن لأن العُزلَة تعجبه كالقهوة. بعد حادثـــة صـــغيرة، أي كلام يُثيره فينهمك في العمل بلا رغبة تخص الحديث أو الطعام. يتألم لرؤية الفقراء. وإذا حكم في أمر ينقلب إلى الحـــق والبكاء قبل تناول علاجه. يُمسك رأسه بسبب الألم ويتعذر علـــيه الاســـتمرار، ويـــرتَخي لسانه طبعاً. دَخَل ثلاجة المستشفى وأخـــرَج قريـــباً لـــه بعد حادثة طريق، أخرجه خشبة وعيناه إلى الخـــارج وبطـــنه ورقية في الساعة الواحدة ظُهراً، أول يوم من أيام العـــيد.. ثم بقـــي ثلاثـــة أيام بلا طعام منعزلاً عند حافات بِركة الضـــفادع.. لم يدخُل أحد إلى الثلاجة، تراجعوا، لم يدخُل أحد.. كـــان هناك بعض الرجال والنساء والأطباء فوَضَعه في نَعش طبعاً، واعتَبَرَ الموت شيئاً عادياً عندما رأى الميت بتلك الصورة، عيناه إلى الخارج وبطنه ورقية، لأنه لا يخاف الموت.

إذا طَلَب حاجَة يعني يردها فوراً، وإذا لم يُنَفَّذ طَلَبه يَخرج عن نِطاقه ويتيه، ثم ينظر إلى يده فيراها بعيدة عنه ويُطيل النظر بأصابعه ـــ كل إصبع بطول رقبة أفعى. مع أنه يجد قدميه بعيدتين فيَرفعهما عـــن الأرض فلا ترتفعان. ويُطبِق أسنانه، هكذا، بلا أية قُدرَة على الحكـــي. يتـــناول العلاج ـــ وبعد العلاج، يتغير نظره إلى الأشياء، فـــإن تَكلم شخص معه بأي أسلوب لن يكون انتباهه مُركزاً فيما يقول: لأنه يمقُت الضوضاء والمُجامَلة وحساء العدس والنوم.. جيد إن نام ساعة، مهما كان مفعول الأقراص. قال لزكية مَرة:"أخلاق الناس بِنَظري. مَرة مَشيتُ مع صديق، واحد في المائة يُعطي الصداقة


Twitter: @ketab_n

حقهـــا.. مَصـــالِح".. وتقول لجاراتها عبر سنوات الأرق: عاطفته محـــدودة تجاه النساء، فلا يَنظُر إلى الحُرمَة في الطريق لأنها ضعيفة. يُعجبه الظلام... الظلمة هدوء. وبعض ردود الأفعال حين ينظر إلى جسده يصغر ويصغر حتى حجم الإصبع عندها يحب سعادة عائلته، هـــذا هـــو طموحـــه. وإن أثارَ صديقاً أو غريباً ندم. كانت لديه انفعـــالات.. الآن ازدادَت. يحـــب إيـــذاء نفسه على أن لا يَجرَح الآخرين. لذلك يَسقط غائباً عن الوعي بعد أن يُحَطِّم ما بين يديه. ولكـــنه يَعـــتقد أن الـــناس أكثر خطأ منه، وأحياناً يَجعَل المُسيء يصـــطدم بالحقيقة. ولا يُعير أهمية لرتبة شخص إذا انفعَل. مَرّة تاه عـــن البيت فاستَدَل بمواء القطط... إلخ. ومَرّة أخرى جاء النقار: هـــذه ملعقـــتي يـــا فاسدَة.. انتظري حتى نُضاء ونَرى. سأضربك بـــالحِذاء، بـــل ســـأنتزِع خاتمكِ الذي اشتراه المَحروس أيام رِحلة المدينة.. يا عيني.

ويصـــرخ شـــاهين: يا عيني يا عيني.. يتكلمون عن العَين في الظـــلمة. يقول الصوت الأجَش: تَصَرَّف يا شعبان. فَسَكت الجميع بعـــد أن تسلل بعض الضوء من الممرات القَصيَّة، واستطاع أن يَرى القُبتين المجروحتين، كعيني إحدى الحشرات النادرة. والقوام مُحاصَر كجذع إحدى الأشجار المنسية في فضاء مُمزَّق السواد. فضاء يُشير إلى حافـــة الأرض، حيث الامتداد اللانهائي بلا نجوم ولا كواكب ســـيّارة. بـــلا فـــائدة من انتظار شهاب يَسقُط. وبدا أكثر بساطة وتســـامحاً. علامات جسدية ذابلة. حركات تدل على صعقات تدل عـــلى ارتخاء الرقبة تدل على الوجه المبعثَر تدل على الاحتمال تدل على لحظات قبل القيامة.



Twitter: @ketab_n

كان يتحاشى الإجابة خشية الصفع ــ رَجُل في الباب، حيث مكانــه الدائم، مسؤول عن الصرير ومناداة الأسماء. وهو أحمر رغم صعوبة الإبصار.

يقــول الأجَــش: أنــتَ ابن رجل عظيم.. مرحوم. ما هذه الغَطســات؟.. أنتَ واحد منا، نريد مساعدتك، أجِب، كم إصبعاً ترى؟. وماذا تعرِف عن علامات المرور؟.

يقــول: لا أرى، لا أعــرِف. يقول الأجَش: انظُر إلى يدي، كَــم؟.. أجــب هــيــا أجِب. فيقول: لا أعرِف. يقول الصوت الأجَــش: أنــتَ مخــبول.. ارفعوا قِطَع الكارتون. حركة. ضوء. صراخ: هــ هــ يــ يــ... يهتف شاهين: ضوء!!.

كانــت الجــدران قريبة ومُصَدّعة ومليئة بالمسامير التي كسر بعضها الصدأ.

قــال حلاّب: بإمكانكَ الذهاب الآن.. ولكن تَذَكّر، هــا، يجب أن تكون هنا منذ الرابعة صباحاً.

فأجابه: إذا كان لابد أن أجيء، فلماذا أذهَب؟.

يقــول: بل تَذهَب. يقول: لن أذهب هــه. يصرخ به: يجب أن تذهب.

تَندَفِع جلبة في الممر، وصوت: ماذا فعلتُم به.. أينَ وَلَــدي؟.

يقــول حلاّب: لماذا تصرخين يا هاجر؟ كنتُ أُعلمه الحساب لأجد لــه مهنة مناسبة.

اقتَرَبَت من جرحيه: تُف. ثم سَحَبَت الوَلَــد..

خَلــع الليل نصفه الأول، واكتملت أحلام المُبكرين في النوم.



Twitter: @ketab_n

بعدما ادعى حلاّب بأنه قَدَّم للمخبول اختيارات الخسارة التي منحته الرقة وسط اللجة، لأجل نظافة القرية، مُساقاً بدافع خفي.. لا يميل شاهين إلى إعطائه صفة الغيب، لأنه مفهوم بقَدَر اهتمامه به، رغم إمكانية تجنبه في هذه الأيام الشبيهة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جُهد ضائع.

يَعتقد أنه توَصل إلى حافة الفهم الذي يُحوِّل كل غامض مُقَدَّس إلى شيء ممكن اللمس والرؤية. ولطالما هَرَب لأنه لا يجرؤ على تجنب المؤذي، عبر عوامل الكذب الضرورية في تلطيف اليوميات التي لا تنفصل عن الاهتزاز أمام الزاوية، حتى ابتسامة الجلوس أثناء رشف الشاي. لقد حلّ الوقت الذي لا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك العلني...

رآهم مُجَدّداً، مثل كل يوم، يَضحكون في صلاة دامعة، وقد مَزَّقتهم ساعات النصف الأول، وساقَتهم إلى قَطع الضحك بالتثاؤب، حيث يَفتَح الواحد أقصى الفَتح: هاه.. تعبيراً عن التفريغ التام لهبوب الزوابع عندما تُجَرِّب قوتها في السقوف؛ السماء القريبة، داعية الأمن القريب. لكي يُغذي نار الحنين إلى ضرورة الجسد الآخَر تحت اللحاف. إن كل ما هو كفيل بإزالته، كفيل بمحو ترتيبات الضرورة بعد جلسات الشاي واختيار الحبل الأحمر من حيث مُلاءمَته لفصل السنة، لأن أهميته، أصبَحَت بالنسبة للضاحكين، كأهمية حَصاة في زيمبابوي ــ عبر نشرة أخبار مجاعة السود. لعبة الموازَنَة التي تَخلى عنها في تَناظُر مَساند الكراسي، ونوم الأشخاص؛ قَدَمٌ عند رأس، رأسٌ عند قَدَم. لم يكن أي واحد منهم ليتساءل: هل يحق لنا الضحك؟. مُنطَلِقاً من اعتبار عدم



Twitter: @ketab_n

سعادة النافذة المُقابلة.

لم يـــتمكن مـــن الإجابة، لأن الأمر مرهون ببعض عمليات الإحصاء التي عجز عنها أمام حلاّب:" 1+1.. كم يساوي؟". لكن الصراخ يرتفع كشيء إلى الأعلى، لا كصوت يزداد.

ويصـــير بعيداً.. بعيداً. ويضحَك في داخله، ثم يفتح عينيه فلا يُفاجَـــأ بضـــوء النافذة، ورِفعَة الأثاث، والسجاد المُزَيَّن بطواويس وأعـــراف هداهـــد، وذِكرى المُعَذَّب صابر بعد ليلة المطر. ولكنه يُفاجَـــأ بقـــوة الضحك تقريباً، لدى المرأة التي لم تكن قادرة على الاحـــتمال، فأسنَدَت رأسها فوق "صابر" ناطِحَة، وهي تهتز بحركة تَدل على الذبح وتَقَطُّع الأمعاء.. ثم تنهار، ويبقى صدى ضحكتها صـــاعداً مـــن محل السقوط، باتجاه مكان الخَفقَة الأخيرة لقميصها المهتز ذي البُقَع الحمراء.

يـــنخفض صوتهم تدريجياً بعدما غَلَبهم النعاس. يتحول الكلام إلى همـــس، فـــيقوم أحـــد الرجال ويقعُد لصق المرأة الباقية، وهي مســـتمرة في الاهـــتزاز، لا بسبب الضحك بل لأنها تُرَقِّص ساقيها تحت الـــ... إذا كان ثمة منضدة أصلاً؟.

تُهمِـــل رأســـها إلى الوراء فتسمَح لـــه بأكل عنقها، وتموء، وتدفعه بحركة تدل على الاحتضان. أما الآخرون فقد غطّوا عيونهم بـــأكُف مـــثقوبة، وأسدَلوا فتحات الضحك تقريباً. ينحنون قليلاً باتجاه نور أحمر راقص.

يلتفت الرجل الذي أكل عنق المرأة، فيرفعون أكفهم، ويبدأون بـــنوبة ضـــحك تُزهق النعاس وتطلع المرأة بعدما رشّوها بالدموع الطافـــرة، فتُـــثمِر كُرتين بيضاوين، بإزاحة القميص، وأغصاناً من



Twitter: @ketab_n

الشَعر المُبعثَر، لتُشاركهم وهي تتمايل في ريح أول القهقهة....

يحاول شاهين أن يقفز نحوهم، لكن الهاوية.....

يأخذه الضحك، يغلبه، فيضيع بين نشيد ست فتحات، منتبهاً إلى فتحته الصغيرة في زجاج الشُباك، إذ ينقُر الحافة بأصابعه فيرتد نحو الزاوية، ليحاول الاهتزاز... ويفشَل شاعراً بالحقيقيين والمرأة ذات الأغصان، الطيبة المُريحَة المُثمرة عبر طَعنَة القميص، رغم برد الخريف، والاستعدادات الأخيرة لسُبات الضفادع، مروراً بفسحة حلاّب وهو يخدش الغجرية بخُبزَة جافة. أطراف مأدبة. الذكريات والأغاني. الباذنجان على الجريدة حيث الموضوع الخاص بمجاعة السود. براعم أصلاب الرجال الخارجة نحو الأسن. أيام شبيهة بالزبيب لأنها شبيهة بكل جهد ضائع..

يتمطى النحيف، وتغلبه الحاجَة إلى وشيش مُستَنقَع الغطس، لحظات استبدال القميص الذي انمَحَت نقوشه بنفس القميص الذي انمَحَت نقوشه. وأتته الفرص كثيرة، لإعلان نتائج التجربة، غير أنه كان يخاف سلامَة النطق، فتضيع بعض التجربة، غير أنه كان يخاف سلامة النطق، فتضيع بعض الحروف، ثم الكلمات جميعاً، ثم الصوت، باستثناء صَرخَة يُتقنها، لا تعني شيئاً أو أحداً. صرخة بلا صوت ولا حبور، صادرة عن أسفل القصبة الهوائية، عن أسفل الشعور المُدَمِّر بغلبَة فيضانات الهند، من خلال نشرات الأخبار. عن أسفل الأسماء والأفعال والصفات وروائح الآخرين. أسفل أي شيء آخر..

ولكنها محض صرخة في الفراغ: دا ــ با ــ دا...

لذلك كان الضحك بعد المحاولة. الضحك دائماً. الضحك



Twitter: @ketab_n

وهـــو يحس، هذا الذي اسمه شاهين لأي سبب من الأسباب، بألَم الأشجار عندما تترع أوراقها الميتة، بصراخ النهار حيث يبتدئ وعذابـــه حينما ينتهي، بنمش الذباب على جدران البيت الجصي. ويحس بثقل قُبة السلحفاة، وعذاب الحلزون بسبب القوقعة. يحس، وهـــو شاهين، بمرارة الزفير، وألَم طرفي المسمار؛ المطرقة من طَرَف، وصـــعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. وبكل شيء تقريباً. لذلك فهو ميت الحس في نظر كل شيء تقريباً.

وصـــفوه للصـــحفي الذي كَتب عن حلاّب افتتاحية ضخمة لإحدى صحف الغرب، فأطلَق كلمة غير مفهومة:"Unexitsim". فقالوا عِبر المُترجِم:" اكتُب عنه يا مِستَر". فَرَد مُتزعِجاً:

"OH.. we have many of this Kind in Europe".

ويظـــل يُجـــرب بلا إعلان، مأسوراً بعزف الحنجرة في حالتيّ المُـــنفرِد والجمـــاعي، لأن للـــبعض صوت الرباب، ولتُجار القطن صوت الآلات النحاسية. وها هي النابتة أمامه، تُثمر بعدما رشّوها بـــالدموع الطافرة، كُرتين بيضاوين خلال تَفَتُّق القَميص، وأغصاناً من الشَعر المُبعثَر، لتُشاركهم مُهتَزَّة بهواء أول القهقهة.

وينحنون نحو الأسفل بحركة ضاحكة رافعين بعض الأشياء من مكـــان إلى مكـــان قريب. وفجأة، بدون إعلان أو علامة، ينطفئ الضـــوء، فتتحول الغرفة المرتفعة إلى شَبح عُش اللقلَق محاطَة بفراغ الظـــلمة المُمَزَّق، بفعل الدفقة الأولى لحنين القمر إلى مُناجيه، لحظة ابـــتداء يقظـــة بعـــض الزُهاد كالعَم مسعود لكسب أجر الصلاة



Twitter: @ketab_n

المُبكِّرة، بعد أبواق الديكة..

ولكن الصدى الإنساني، عذاب الاشتياق إلى الأثر، لمسة زَغَب الوجوه عند العناق. المناجاة. المناجاة الطيبة، الرقة الغالبة، الفضفاضة المقبولة، فم بفم. عين بعين. امتداد الأشياء كخطوط في الهواء باتجاه النصف الأسفل المُحَطَّم للّبوَة الجريحة.. فأين هذا؟.

سمعهم يتزلون إلى الجَوف ــ أي جَوف كان، مهما كان ــ ضمن شَبح عُش اللقلق. فالمهم أنهم يتزلون حسب صدق الوَقع. وقع الأحذية على السلّم. السلّم المؤدي إلى مركز كُرة الأرض. الأرض التي تشرب مَسرّاتهم. مَسرّاتهم الباقية كخفقَة انقطاع النَفَس لطائر ساقط عن ارتفاع..

يحس بأنه حزين. ليس حزيناً بالضبط، وإنما يريد أن يبكي، وهو يُراقب صوت الفجر المُتَسلل بين الأحطاب وقَصَب السقوف والانطلاقة الأولى لعصافير العراق..

يأتي صوت العم مسعود مُنَغَّماً بسبب التواء الأرض: الله أكبر أكبر.. الصَلاة خير من النوم.. الله أكبر..

يحاول رؤية الخط الأسود لطيور سماء النافذة، لحظة دخول رائحة المَزارِع.. وبعد دَقة حاسمة من دَقات الساعة. يداه مفتوحتان في الظل للإمساك بشيء ما. فيرتَد؛ منشَفته، رفوف القواقع، ملابسه التي لم يستعملها منذ عشرين عاماً وقد صارت صغيرة لا تكسو جزء الساق. ومنذ ذلك التاريخ تَصعَد هاجر إليه: ألا تُفطِر؟.

فيَتزل حيث اللبَن الرائب وبخار الشاي، ويسمَع نشرات الأخبار الأولى:"زَلازِل. فيضانات. أخبار مجاعة السود. مُحادَثات



Twitter: @ketab_n

نـــزع الســـلاح النووي. عمليات الفدائيين العرب. جلسات مجلس الأمن. إرهاب عالمي. مُخدرات. فضائح سياسية. تجسس. جرائم. خَطف. حروب. انقلابات. انحلال. أسلحة جديدة... إلخ".

وتَنظُر إليه باستنكار شديد، وقد نَصَّفت حِدادها المُعاد بوصلة من حبل الغسيل. فيَشعُر بالهاوية ممتدة من جذور السِدرة حتى حافة السماء، رغم ندى أوتاد الفولاذ، والأشياء التي لا يحتاجها المرء، مع ذلـــك يعتز بها. يفرُك أذن المذياع:"رجع أيلول..." وتذهَب هاجر بالأغنية حيث الغطاء المخصص لها على الرف، وتبادلها بمديَة فضّية مُنَمَّشَـــة بالصـــدأ: أعرِف بأنني عاجزة عن إقناعكَ بعدم الذهاب إلـــيه.. فاحملها، لا لتقتله بل لتَتشَجَّع. فيدفعها قائلاً: هذه الأشياء، يُحـــب هـــذه الأشياء. تقول: أعلَم، يُحبها لأنه يخافها.. فاحملها.. أتوَســـل إلـــيكَ. يقول: تتوَسل إليك لماذا لا تحملها.. إنها تتوَسل. ويُسقِط المديَة في جيبه ويخرُج.

كانت الشمس قد تَحَرَّرَت من التلال عبر طريقها المألوف إلى مُنتصَـــف القُـــبة النحاسية. فأنزَلَ عينيه حتى استقر بصره في نهاية قطيفة الطحالب حيث صخور البئر المُحَزَّزَة بالحِبال..

يَعـــتقِد أن ثمة امرأة تُشير إليه: اقتَرِب. هي التي تشير فيَتَلَفَّت ليـــتأكد إن كان هناك شخص آخر تقصده، فلم يجد غير شاهين. ويجيئه نداء منها: ألَستَ... أنتَ اقتَرِب هنا. يقول لها: أنا شاهين. تقـــول: نعـــم أنـــتَ، اقتَرِب. ويُهَرول بسبب الانحدار لا بسبب الفضـــول، فـــلا يعرِف كيف يقول لها؛ صباح الخير!. تقول المرأة: عزيزة تقول بأنها تنتظركَ عند السِدرة فاذهَب إليها..

يقول: هـــا؟ عزيزة تنتظرك عند السِدرة. لماذا تنتظرني عزيزة



Twitter: @ketab_n

عند السدرة؟... سأذهَب إليها.

عـــندما دَفَـــع حلاّب غطاءه وأزاح ستائر السرير المُعَد لثلاثة أشـــخاص، أبصَـــر الشـــمس جالسة على أغصان شجرة التوت، والعصـــافير تســـتحم بالضـــوء. لم يقُـــل؛ صباح الخير لزكية التي اســـتيقظَت قَـــبله بساعتين. فبَصَق على الحائط بعدما حَمَلَت إليه أنســـام الصـــباح رائحـــة قمامات الحُفَر، لأنه نام على أمل أن لا يستيقظ قبل قَرن.

كانـــت شفته العليا مُتَوَرِّمة أثر قرصَة حَشَرة. وكانت القطط تُغـــازِل أذنـــاب بعضـــها في الممرات، عندما نَزَل العتبة فوجدَهم يسلُقون البيض منذ الرابعة. فأبصروه مُخدراً يجُرّ وزن النعاس، وهم يطرُقون على السياج بملاعق النحاس، فلم يتبين اللحن لأن الصوت قبيح بفعل رائحة البيض النيئ ـــ وشعبان يَشرَب البيض النيئ لكي يصـــفو صوته في الغناء، وفق المفهوم المُتناقَل ـــ وصرخ بهم: أوقِفوا هـــذا الدَق.. ألم يأتِ المعتوه بعد؟. فهزّوا رؤوسهم بحركة واحدة علامة النفي.

غـــاب في الممـــر لحظـــة، ثم خَرَج بالعباءة والمسدس، واقتاد صـــديقه إلى الـــبركة ولم يقـــل لـــه؛ صباح الخير، بل قال: فَفاح الخـــيف. لأن الشفة العليا مُتَوَرِّمة بسبب قَرصَة حَشَرة. وظل صامتاً بعدهـــا حـــتى الـــبركة. وهناك، كَسَر غصناً، ثم بَصَق على عيدان شـــجيرة العنب. وراح يتدلى بغصن شجرة أخرى ويقول: لا زلنا عـــلى أمـــل، أسمعني أقدَم لحن لديك.. آه، إنني أرتاح لتلك الأيام. وسقط خُفه في الماء.

يـــبدو شاهين مُحايداً في وقفته تحت السدرة، مُحايداً تجاه كل



Twitter: @ketab_n

مواضيع الحياة الممكنة، بالنسبة للمارين به نحو مَزارِعهم، باستثناء لعبة الانتظار التي يأمل أن تنتهي عندما يجد فيها بعض العَزاء، على اعتبار أن الأمر سيُثَبِّت طَرَفاً منه بمثابة مشجَب لكي لا يتزلق الطَرَف الآخر إلى النسيان..

وجاءت بقميص برتقالي لأنه أبصَر خطوها البرتقالية على طَرَف التَل هادئة مُنكَسِرَة. فَفَكر؛ هي التي ضَرَبَت له موعداً، مُؤكِّداً لنفسه لكي لا يَسقُط في الحَرَج، يوم نزهة الكلاب على التلال القريبة.

رأى ابتسامتها الخائنة، فعَرَف مُقدّماً بأنها لا تريد قول شيء مُعَيَّن، وربما لا تعي سبب المجيء. ولكن الذي حدَث كان نوعاً من التحالف على تجديد الصراع. فكان الأجدَر به الانصراف إلى حلاّب في الرابعة صباحاً.

يقترِب وجهها المُدَبَّب حتى يصير أكثر وضوحاً في الظل، فيتمكن من رؤية الكَدَمات؛ زرقاء مُحاصَرَة بالبياض. يُشير إليها: ما هذا؟. تقول: لا شيء.. إنها كَدَمات. فيقول: أرى أنها كَدَمات.. ولكن ما هذا؟. تقول: قلت لا شيء.. آه.. سَقطتُ من السلّم.

يقول: لا شيء، سَقطتِ من السلّم.. انزلي على مَهل دَرَجَة دَرَجَة يا بنيتي.. دَرَجَة دَرَجَة. وتضحَك فيرتاح. وتقول له: أنا التي طلبت منكَ المجيء.. وجئت.. لأقول، لأقول... لا أريد أن أقول شيئاً. يرفع صوته قليلاً: بل تُريدين.. أعرِف أنكِ تُريدين. فتُنزِل رأسها إلى الأسفل، مُفَكَّكَة لأنها غير مشدودَة بالخيط القطني الغليظ، فبَدَت له صغيرة قياساً إلى الأحجار. صغيرة وضائعة.



Twitter: @ketab_n

صغيرة وفاقدَة. فاقدَة شيئاً عزيزاً ومُهمّاً. مُهم لأنه حَسّاس. حَسّاس لأنها قالت: عوّاد. وكلمات أخرى مُبهَمَة. مُبهَمَة لأنه سافَرَ بالقطار إلى العاصمة. العاصمة بيت الشُهرَة. والشُهرَة خسارة للجميع. والجميع يخسرون بذهابه.. وذهابه مفاجئ لها كَوَقعَة من السلّم. والسلّم دَرَجَة دَرَجَة.. على مَهل.

يقول: ماذا يعني؟ هو الذي سافر إلى العاصمة لأنه يريد أن يسافر إلى العاصمة.. أما أنت.. ماذا؟. تقول مُنتَبِهَة: ماذا؟. فيقول: لا أدري. وتبكي...

يُخرِج سيجارة من بقايا عوّاد، ويتأمل تَصالب جذور السدرة، ثم السماء الشديدة الزُرقَة، بدَت له بأنها غير مندهشة إزاءَ بُرودَه. لكنه يعرِف أن حركة ما على وشك الحدوث، حيث يَلتفت فجأة ليضَع إصبعه أمام مَجرى الدمعة. فَجَرَّته من طَرَف الرداء حتى لامَس نهدها الصغير إبرَة ساعده الأيمن، فارتَجَف خائفاً بدرجة يصعب احتمالها حتى أطراف الصراخ. ولكنه فَضَّل التدخين بحركة تُعطي الرجل صفة ممتازة عن المرأة. بكثير من الغرور، بذلك التخريب الخاص لعاديَّة العاطفة، نافخاً الدخان بَعد السُعال نحو الفضاء، صُعداً وذوَباناً في الفضاء. ضحكت: يا إلهي.. أنتَ رجل عجيب. فألغَت هذه العبارة الكثير من طُرق الدوران حول الحقيقة. وانفَرَجَت عيناها عن ضوء وضَع أمامه، باختصار شديد، وقائع ولادة أطفال العالَم، في الخط المستقيم لمستقبَل البَشَرية، مباشرة دون أي تمهيد منطقي..

تأملَ عزيزة - لم يَتأملها - لكنها فَرَضَت عليه صفاء الوجود، وألغَت بكل بساطة، وبحركة واحدة من رأسها ذي الشَعر المُبَلّل،


Twitter: @ketab_n

تفاصيل الخوف والحُب والاستعمار والنميمة وبجاعات السود عبر نشرات الأخبار، ومَرارَة التَسلُّق. تلك المليئة بالبكاء. نادِرَة. تتكون وتَقفز فوق اليوميات وتمثل أمامه مُبيِّنة أنها تميل إلى حيث يُشير، وتُفَجِّر فيه ينابيع الضحك الحارّة. أليسَت جميلة كَزَهرَة سامَّة؟. تلك القائلة:"أخاف اللذة " عندما سألها عوّاد آنذاك، أن يَلتَصقا حتى وقت مُتأخر من عُمر الأرض، وبين عظامهما المُتشابكة على التل تنبت شوكة طرية حيث تَبتَل العاطفة برذاذ مطر الفجر، وتَطرَح الأغصان جميع أوراقها الميتة في خطوط السيول وتَتَبَرّعَم مُعلنَة عن ابتداء فصل جديد سَمّاه؛ فصل القوة: أ. ب. جـ. تَعلُّم مبادئ تصفيف الشَعر من خلال الشطرنج، ومعرفة مواقيت وجوب البكاء من طريقة ارتداء الجَورَب. لكن الأمور التي ظَلت تُعَذِّب عوّاداً بمثابة لغز لدى الأصحاب والأعداء معاً، وظَل يُبعد فكرة: أنهم يتحدثون عنه حيث كان يحسّهم في الإشارات أو المواجهات الصريحة المُغَلَّفَة بالمُجامَلة. فكانوا يدفعونها إلى الجَدَل بقصد تدريبها على نُكرانه، وذلك بالإغراء في وجبَة نادرة لأجل زيادة الوزن، مُستَغِلّين نحولها واصفرارها اللذان يُحبهما عوّاد.

وهي تعرِف أن المقارَنة بوضعه أمر فوق الاحتمال، لأنها كانت تُحَيّيه عبر زجاج المَشغَل وسط الجماعات الضائعة، حتى تزداد غيرته فيَصُبّها ألواناً حارّة على الخَشَب. وكان الأمر سبباً كافياً في تأخُر نضوج ألوانه، فلم تُقدّر تلك الهمهمات اللونية رغم كل الارتفاعات المبررة من قِبَله، والتي اعتَبَرَها غروراً، إذا ما قِسَت الأمور بمؤشر دَحر شخصيتها... فتُعَبِّر عن تلك الحالة بالضحك المُرتَفِع الغارِق، بصُحبَة الآخرين. ولكن عِلم الآخرين لم يتجاوز



Twitter: @ketab_n

التأكيد، بأنه حين يَكتُب واجباً مَدرسياً عن ديدان الانكلستوما فإنه يَذكُرها كعلّة في الهامش...

لا يعرف شاهين هذه التفاصيل التي افتضح بعضها بتبادل النظر. وهو شاهين، يحس بألم المسمار؛ المطرقة من طَرَف، وصعوبة الاختراق من طَرَف آخر... حتى مصاف الرجفة والخجَل من النظر إلى الطبيعة.

وتقول: جئتُ كما تَرى.. فلا تَعتقد بأنني أحبكَ، أتفهم... لا أحبك. ثم مَضَت ببراءة حَجَر ساقط. وشَعَرَ، بوحي من نشرات الأخبار، بمنظَر الأرض بعد الحرب النووية؛ سكون نحاسيّ مُمتَد في فراغ لا حَد له..

السماء وحدها، لم يكن أي شيء قد تحرك.. الفضاء بكل اتساعه. ما من شيء يُثير الضَجَّة. ما من شيء يَنتَصِب أو يهتَز. لا شيء.. لا شيء..

خافَ شاهين، وهو لا يخاف تقريباً. وصرخ بكل ما يملك من هواء مخزون عندما كانت تتسَلّق كتف الوادي: عزيزة.. فتَوَقفَت دون أن تلتفت. وقال بهدوء: هل قلتِ لي مَرّة أن اسمكِ.. عزيزة؟..

ذَكَرَت زكية لجاراتها بأنه لم ينَم طوال الليل وظَل يُقَوِّس جثته ويُداعب لحيته الضمادية، وهي تنثني مع غضبه وتُحَمِّص قهوته على الجمر، وتَعرِفه من خلال تبدل شكل جرحيه فقد عاصَرَت معظم تحوّلاته.

بينما يَطلُب من شعبان أن يُسمعه أقدَم لحن، سَقَط خُفه في وحل البِركة. فاعتقَد شعبان بأن زكية تهتم كثيراً بتهويل الحوادث.



Twitter: @ketab_n

فـــيَعقد يديه على صدره حتى يبدو للغريب بأنه مُقبل على نوم، ولا رغـــبة لـــه في سماع خَبَر يخص الآخرين. ولكنه يسأل في السر عن حادثة شجار زوجين آخر الليل.

أخَـــذَ يُحزر كمية (الخُردَة) في جَيب المُتدلي من خلال صوتها المُهتَز باهتزازه. يكشف مع نفسه مسؤولية حلاّب في قضية اختفاء محمـــود، لأنها بَقيَت مُحاطَة بالسريّة التامة. وقد فَسَّر لـــه الرجال المُهـــتَمون بشَـــجَر الأنســـاب بأن محموداً لا يمت إليه بصلة قُربى، باستثناء وقفاته الشهيرة في طَلَب إرجاع الحق لأصحابه، وإلا كيف يُقدِم على إخفاء شخص آخر لا يَعرِفه؟.

لقد رُوِيَ الكثير لشعبان عن فتنة ذلك المساء ـــ مساء اختفاء الصـــياد ـــ إذ شَكَر أصحاب القطعان رُعاتهم عندما تلمسوا بطون الـــنعاج فوجدوها مُنتَفِخَة شَبَعاً. وكانت النهارات ذهبية خالية من إزعـــاج العـــوض.. وحيثما يمتد البَصَر، ثمة هشيم يكفي الدواب طـــوال موســـم القيظ القادم، فينتظر الناس في موسم كهذا، ذيوع أغـــان جديدة. إذ سألوا بعَجَب: كيف استطاعَت التي اعتقَدنا بأنها بَـــلهاءً مـــن حـــياكَة أغنية حلوة؟. ومهما كان اسم هذه الفتاة؛ خديجـــة، أو فاطمـــة، أو سعدية.... بينما كانت هواجس حلاّب غامضـــة، وقدمـــاه تَنفُضان بذور الخُباز الجاف وهو يَخطو مُلتَذاً بانسحاق الهشيم.

كانـــت البيادر تَهب نفسها للَهَب مجهول، وتُخرَّب مضخات المـــاء، وتُبعَج السواقي التي تَرفَع الماء فوق المُنخَفض. بَلبَلَة وأحداث أُلصقَت بالرجل الضائع خلفَ أرنب مُبَقّع. بعدما كان الناس يَرونه في أحلامهـــم مُنَصَّـــفاً بحِزام الخرطوش لثلاث سنين تالية، وقد بَلله



Twitter: @ketab_n

مطـــر التـــيه وعَفَّرَته كَدَمات البحث عن البيت.. حتى أنه شرب الشـــاي في مترل أرملة منسية عند طَرَف القرية، وشَرَح لها حُسن نواياه وحقيقة براءته واشتكى لها ظُلم الناس.

كانوا يستيقظون على صوت الديَكَة فيجدون الخَراب؛ نوابض مضـــخات المـــاء منـــثورة مسودة بالاحتراق، أما بَكَرات التشغيل فكانت ضائعة في الحقول، حيث الأحواض المُهَدَّمة، واختلاط زيت المُحـــركات بماء الآبار، وقد ماتت جميع ضفادع التسلية في لحظات الراحة..

تَعَبَـــت رقبة شعبان من متابعة اهتزازه، فخمّن أنه، ربما، يعاني مـــن فـــتق تحت السرّة، وأن الطريقة أكيدة العلاج، ولكن الفَتق لا يبين في صورته المعكوسة على الماء كَلَقطَة تحتيّة بسبب الكَدَر الذي أحدَثَه سقوط الخُف.

أطلَـــق صوته ليَجذب حلاّباً إلى السكون والإنصات:"أقضي اللـــيل أعد النجم بالجوز، عالذي نهوده بيض لِب القطن بالجوز". وفَرِح المُتَدلي بهذه المبادَرة، فقَفَز، بعد هزّة عنيفة، إلى اليابسة. سأل شـــعبان: أتعتقد بأنه ابله حقاً؟.. أكيد أكيـــد. وأكد لـــه صديقه مُشـــيراً إلى صدق تَخميناته السابقة عبر وقائع كثيرة تخص تَخمين وزن بعض الأكياس، وغلبة نوع محدد من الزَحّافات في دائرة ضوء السراج المُستَورَد، ثم تَحَقُّق التوقع الشهير بأن الشتاء القادم سيكون بارداً قليل المطر.

وفَـــرِح لأن صاحبه يعرف مزاياه ويُبارك صدق أحكامه، حتى صار على يقين تام بأن ابن الصياد مجرد أبله لا ضَرَر منه..

أُشـــير إلى مجيء شاهين عندما بدأ هواء ما بعد الظُهر بالهبوب



Twitter: @ketab_n

مُحَمَّـــلاً بشـــذى أشواك السفوح، ماراً فوق حُطام مَزارِع القطن وقـــناني الدواء التي زَرَع الصبيان بَصَلاً في فوهاتها. وتحركت خيوط العناكب قُرب الأعشاش.

فكـــان المجهول القادم يُبَشر حلاّباً بالقوة التي ألقَت الفَخ أمام أصابعه وحَرَّمَت عليه ساعات المُتعَة بوفرَة المحصول، وأعطته سنوات الأرق مـــأخوذاً بشهوة الفيضان والبَرق وموسِم تَزاوج الضفادع، حـــين يـــنام فاتحاً جرحيه ومادّاً رأسه عبر فجوة الباب إلى الطريق، حيث أسراب العجائز تَحبس في الصدور السليلَة نبأ عن رجل مات بسُـــم الفئران، فيجعله مثل هذا الحَدَث يكتئب فيهوي برأسه على الوســـادة مُنـــتظِراً حدثـــاً آخر، صارِفاً الساعات الطويلة في حُب أشـــيائه؛ الطابوقـــة الـــتي تمنَع الباب من الانزلاق، المسمار بمثابة مشجَب، السرير الذي صارت نوابضه مُرتَخية..

انـــتظَر شاهين، وهو صغير بالنسبة إلى الجدران، ينتظره ويَدور حـــول الأكياس المشنوقة. يَدور فتتحوّل عيناه إلى حصاتين ثقيلتين بســـبب النعاس فلا يَرى البيت الجصي مثلما كان يراه سابقاً. مجرد أعمدة ودهاليز مُنَمَّشَة بفضلات الذباب، وسلال ودَرَّاجات هوائية مُحطَّمَـــة. حُطـــام دَرّاجات وكُوى لأجل متعة الأبقار النافقة في الـــروث. وتلال من الروث تغمر بعض الأشجار ودَكّات الحَطَب. ودَكّات حَطَب سودها حداد النساء وأمطار المواسم الماضية. رجال ونســـاء في حركة دائبة، حركة رواح ومجيء نحنو الفَتحات ومنها. أصـــوات وشـــتائم وتساؤلات وإشارات تقصده أحياناً. فكلما مَرّ شـــخص توقـــف أمام وجهه مُتَعَرّفاً ومُشفِقاً... ثم مضى يؤرجِح ذراعيه في حركة الغصن المكسور.



Twitter: @ketab_n

يقف مُستعملاً جرحيه. حلاّب أمامه. قَسَمات عبر الغبار والملمس الرئوي لأنفه. شارب مُبَعثَر فوق قَرصَة الحَشَرة، بسبب قَرصَة الحَشَرة. جلباب مُهمَل بِقَدَر ما هو فاخر.

يؤكد بأنه يرى لأول مرة رجُلاً بهذا الذكاء. ينظر هذا الرجل إليه، مثلهم، أحياناً ينظرون إليه ولا يقصدوه، يبتسم هذا الرجل، بهدوء ومَكر.. بقوة.. يضحك ضحكة المَمر المُعتم الفَحيحيّة المليئة بالمعاني الباطلة. وتَظهَر عيناه، تقريباً، كالتماع علبة تبغ، ويقول: أفسَدنا نومَك.. أستاذ. ويبصق أمامه فيتأمل دِرهم البصاق المصبوغ بلون القهوة والنيكوتين والكلمات البذيئة، بلا أي أثر لقُبلَة حقيقية. يسأله: هل من خدمة؟ ماذا في وجهي؟.. لطخَة حمراء؟!. ويضحك تلك الضحكة ثم يشير إلى شعبان، يُطوّق رقبته، ويسحبه ليسرّ في أذنه كلمة (....) أضحكتهما معاً حد الرفس.

يطلع الرجال الآخرون من كُوى الأبقار، ويجتمعون مُثنى وثلاث، يتكلمون في همس المُراهَنات ويَنظرون إليه تقريباً. يُشير إلى أحدهم. وهو يُشير دائماً فَيُلبون. يجيء راكضاً ليسمَع تلك الكلمة (....) ثم يعود راكضاً نحو الزريبة... ويطلع بعد قليل حاملاً صَفيحة، ويُرَكّز تلك الصَفيحة فوق أحد مرتَفعات الروث.

يَحملونه على أذرع قوية، فَيعلَم أن لا جدوى من الرفس، لأنهم سَقوه بالقوة، في مرة سابقة، حليب أنثى الحِمار لأجل الشفاء من السعال الديكي.

واحتاجَ لرائحة السُوس. آه.. السُوس. لكنهم أجلسوه مُنفَرِج الساقين على الصَفيحة، تحت صدور كثيفة الشَعر، ورائحة آباط وروث وكلمات مُبهَمَة وصيحات فَزَع، ومناخِر كثقوب الفئران



Twitter: @ketab_n

المليئة بالدغل، فقال: هَخ هَـــخ. فأفرجوا ساقيه أكثر..

بَهجَـــة. واقفـــون. ضحْكٌ مُختلف عن ضحك الشُباك.. ثم ســـكون مـــا بعد الضحك. وحَلّوا اشتباكه المُعَقَّد كاشتباك الفَخ، وقالوا: ابدأ يا شعبان. وسَمع مبرداً يَحُك سِكّيناً قُرب أذنه، فحاول أن يَكتَشِف، لكنهم ثَبّتوا رأسه إلى أمام..

يحـــس بـــالحَد المُـــرهَف القـــاطِع، بالحاجَة الماسَّة إلى الرَقَبة، وضـــرورة الجلد لأجل عملية التنفس فقط. لأجل الشهيق بالذات. ويحاول أن يَسحَب عينيه إلى مكان آخر قُرب الأذن فيَفشَل.

لحظـــة رهيبة كَدَبيب، كأي شيء قابل للكَسر. وهو شاهين، لا يخاف ولكنه يأسَف. يقترب خط مؤلِم من حزوز الرَقَبة، فيقول: إن.. هاجر... أُمي.

يضحكون.

ويقـــول: اذبحـــوا نعجـــة بدلاً من شاهين. ويزداد ضحكهم المُخـــتلِف عن ضحك الشُباك. فيقول شعبان: لا تَخَف يا وَلَدي لا تَخَـــف.. سنَحلِق رأسكَ فقط. ويُريه المقص الخاص بِجَزّ الصوف، لأن شَـــعره كـــان طويـــلاً ومُلَـــبَّداً. بحيث لا يُجدي معه المقص العادي... زِق.. زِيط.. زِق...

بعد أن أتموا العمل ببضع دقائق وسط صيحات الغبطة، أنزلوه عن الروث، وقدموا لـــه قطعة حلوى.

ابـــتدأ الكَـــرَم حين انتزَع حلاّب مسدسه وجلَس بين وسائد الصوف..

كانـــت هاجـــر تُنصِـــت إلى ضحك الضيوف وصوت ربابة



Twitter: @ketab_n

شعبان، حيث يتحول الصوت أحياناً إلى قَرقَعَة، فتُخمن بأن الربابة مصنوعة من صفيحة (دِهن الراعي) ذات الحجم المتوسط. قالت لنفسها: هـ.. لماذا يصيحون؟!. ومَدَّت أذنيها نحو مَصدَر الصوت مُلتَقطَة بعض الكلمات والصرخات التي لم تُميز منها شيئاً ذا معنى، وهي حائرة بين أن تَذهَب، أم تتركه لأجل الدليل..؟..

فَتَحوا باب غرفة متميزة، فَخَرج صحن صغير ذو شَعر، ثم استطال الصحن فتحوّل إلى مقلاة.. ثم، مقلاة بقَبضتين مُتَحرِكَتين وعَلامتين مُضيئتين في النصف الأعلى.. ثم رأس.. رأس حمار وليست مقلاة. حمار نادر بلون أزرق ضارب إلى صفرة الكبريت، مَدهُون بزيت الخروع، وقد زاده جمالاً مَنظَر العصافير على ظَهره. فقَدَّموه إلى شاهين لأجل التَعارُف.

يقول حلاّب: تُقدم لك الأستاذ شاهين. ويقول: تَتَشَرَّف. بَدَلاً عن الحمار. ويقول: أُقدم لك قُندس، هل من اعتراض؟.. اعتراض على اسم الحمار مثلاً.. والآن هيا يا شعبان. يقول. شاهين: هيا إلى ماذا.. يا شعبان. فلم يُجبه أحد.

هَزّ قُندس عنقه فَخَشْخَشَت قلادَته المنظومَة من خَرَز وأحجار تستخدمها النساء لزيادة المَحَبة. ولكنه يعاني من ضيق التنفس لأنه مُصاب بالربو، فلا يُسليه غير المشي ومناظِر الطبيعة.

وأُمِر شاهين أن يمشي إلى جِوار قندس لأنه يَرفُض المشي خَلف أحد.

كان الحمار مُنشَرِحاً بحيث أنه لو امتلك جيوباً لوَضَع فيها يديه الأماميتين، أو سلسلة مفاتيح لخَشخَش بها..!!. وشعبان يمشي خلف الاثنين، ويُطلِق صوته المدهون بالبيض النيئ، ويأمر بسَلك



Twitter: @ketab_n

الطريق الأطول.

ولأول مـــرة يحـــس شاهين بالمشكلة، لأنه لم يعرف غيرها في حـــياته، عدا مشكلة كُمّيه الذين يترِلان في صحن الحساء فيصفعه أبـــوه ويحرمه الطعام، وقد اهتدى آنذاك إلى حل مُعيّن، فخَلَع كُمّيه مـــن خياطَـــيهما الكَتفِـــيين، فكان العقاب أشَد... ولكن مشكلة الحمار قندس؟!!....

فَـــتَح الحـــارس بوابـــة البســـتان المُسَيَّج بالأسلاك والنباتات الشـــوكية. واعتَقَد بأنه رأى انحناءة الحارس بعدما سَمِع القفل يَترل في مكانه المخصَّص.

ثمة غُرَف للدجاج بجوار أحواض صافية محفوفة بزهور مُمكِنة التفـــتح في الخريف، وُرَيقات طافية على الماء بلون الفضّة والنحاس والذهـــب والكبريت وأزرار المَعاطف ومقابض السكاكين. قطرات نشـــرها الضـــفادع، حيـــث يمكن رؤية القاع المُمَشَّط بطحالب الســـبايروجيرا.. ثم يَـــرفَع المرء بَصَره، بعد أن يَتخذ مَقعَداً حَجَرياً ويُـــدلي ســـاقيه في صفاء الحوض وبرودته، إلى حُطام أشجار التين وغـــبارها المنثور فوق عيدان العنب، حيث تركت الفواكه الفاسِدة بُقعاً مُداسَة على الممر.

كان الدغل الكثيف الجاف المُخَشْخِش لحظة الاجتياز، يَشرح للـــناظر مقدار التنوع فيما تُقدِّم السماء من بذور مُكَرَّسَة في بقعة واحـــدة تُبيّن تَخصّص الفصول، فكان العوسَج والفصفصة والقتات والعُنصـــل والكولان والعلّيق والقرطمان والنفلة والهندباء والشربين وأذن الفـــأر والكمّـــون والنعنع وعيدان الشقائق والدفران والرشاد وذيـــل السَبع والهرطمان والحَلفاء والدرداء وأذن الجَدي والبقدونس



Twitter: @ketab_n

والشِـيح والذفـرة والروند والشمرة والعبوثران و... إلخ. وكلها تنبتَ بلا تَدَخُّل من أحد.

وذَهَب شعبان بعدما شَرَح لـه عن بهجة الحمار بأوراق التين الـتي تحمـي الثمار الكروية الخضراء، وتمدد فوق الساقية لتجمع الفضة. ولكن كل شيء يَذهَب بحلول الخريف، ولذلك فإن قندس حزين ولا يستطيع أحد أن يفهمه غيرك.. فاحتَرِس منه.

عَـزَف الحـارس في الناي فأزعَج الحمار. والحمار لا يَأكل العشب، بل يَقطف الأوراق الصفراء اللدنة، ثم يَنظُر إلى أخيه بعينين مليئتين بالحنان، عبر أهداب مصفوفة كأسنان المشط. نَظرَة تَكشف العُمـق. نظرَة سابِحة في فراغ، وهي، هذه النظرة بالذات؛ أخَف مـن بذور الرشّاد بين لحظتي النوم واليقظة. ربما أخَف من النافورة، بـل أخَـف منها بالتأكيد، بحيث تَنقل المفهوم إلى الآخرين فيفشَل الآخـرون باستلام المفهوم، لأنها تَدب عبر كثافة خاصة حتى المعنى المُفَصَّل للوِئام والدقِّـة الحَرِجَة كألَم الخَجَل..

يَـرى أن تلـك الصَـفنات تَبحث فوق آثار خطى الآدميّ وصُـورته والتَعييـنات الدقيقة في تَوابِل الهند ومُسدس أوربا، بين أشياء تَعَلَّمَها في السِر كالاهتِزاز المُعذّب أمام شَق الزاوية.

الـنظرات الساذجة الطيبة، تنوي أن تُريحه، أن تقول بدلاً عنه فيشـعُر بالحَميمـيّة الرائعة؛ العَين في العين، كلحظة عميقة ليَفهم أحدهما الآخر دون حاجة إلى لغة.

يـنظر في عينـيه الثمينـتين ولا يُخفي شفافيتهما وأُلفتهما، فيَقرص خَدّه ليتأكد. ويُحاول الابتعاد عنهما مخافة العَدوى، ومخافة أن يُشـرَخ الشَفّاف فلا يعود يرى عِبره ما وراءه، ذلك الذي يتوَفَّر



Twitter: @ketab_n

بعد جهود البحث المُضني في الدكاكين ووجوه الناس المُكفهرَّة الباسمة، وارتفاع صدور النساء. السر. بالضبط، عن ثُؤْلُول أو خال ضائع بين النهدين، أو في نتوءات حُصران البَردي المَجلوبة من الأهوار، أو في قنينة دواء... حتى الحلم الرئيسي للبعض لأجل الإقلاع عن عادة التدخين والسُكر السري...

وهو شاهين، يحس بألم المسمار؛ المطرقة من طَرَف وصُعوبة الاختراق من الطَرَف الآخر. فهو مُجرَّد دُمية مدعومَة بأضلاع عظيمة، بنَظرهم، هُم، الذين تمنوا أن يَغرسوا مُداهم في انتفاخه البلاستيكي، ليكشفوا عن الشيء الذي طالما عذَّبه وطَواه.. وماذا سيجدون غير الهواء المُثقَّب برائحة المطاط؟.

بَدَت له ابتسامة قندس على شكل رَغبات مَفروضَة، ولكنها ذات مَعنى، بحيث لا يَجرُؤ أن يقول له: لكَ أربعة أرجُل، فهو بذلك يَستفزّه، فيَدفَع مؤخرته ثم يرفسه لأنه يريد أن ينظُر في عينيه باستمرار، كارهاً سيماء التفكير والاهتمام. فإن حَرَّك يده حَرَكَة مُعَيَّنة، ضَرَب الحمار الأرض مُنبِّهاً. وإن نَظَر إلى الأفق من بين الأشجار، كَشَّر عن قواطعه مُنَبَّهاً.

يتلمس جلده برقة، ويستعرض لونه المدهون بزيت الخروع، مُقرِّباً إبطيه لكي يشم رائحة البساط العتيق. ويحبه ابتداء من أخمص القَدَم، ويزن ثقله بنَظرَة فاحصة إلى انطواء الحَوافر، ويُقَدِّر أبعاده المُنتَظَمَة. بينما كان حلاّب يهتز بين وسائد الصوف، ثم يَخرُج مُظَلِلاً عينيه بكفه ليَنظُر باتجاه البستان، ولا يُصَدِّق بأنه تَمَكَّن من إحكام الخُطَّة التي أرَّقته طوال الليلة القَلقَة، حيث داوَم في زيارة بِركَة الضفادع وكَبَّل الأغصان بخيوط رفيعة ليحاول استعادة


Twitter: @ketab_n

اختراع هاتف العُلَب، لغرض الاتصال بالحارس لكي يزوده بأخبار تحـــركات شـــاهين. وسمع الناس نقيقاً يخرُج من عُلَب المعجون التي ثقّـــب أسفلها بمسمار، وشاهدوه جالساً على صخرة مُختارة يَدس أنفه ويدرُس صلاحية العُلَب..

وظَلـــت هاجر تسأل الرائحين والقادمين: هل رأيتم شاهين؟ هـــل رأيتم وَلَدي؟. فيميلون عنها مُعتقدين أن عدوى جنون العائلة قـــد تَسَرَّب إليها، فصارَت تركُض من تَل إلى آخر وتُفتِّش الوديان والبـــيوت الـــتي يُحـــتَمَل حلوله فيها، لا سيما بيت مسعود. وقد هاجَمَـــت حلاّبـــاً أكثر من ثلاث مرات فَرَدّها الضيوف وأغلَقوا الـــباب دونها. كان شاهين يواصل شَم رائحة البساط العتيق تحت إبطي قندس الذي لم تُعجبه الطريقة فاستشاط غضباً، ومَزَّق ملابس الراعي بالرفس.

فَكَّر بضرورة الغَطس، حيث شُباك الضحك والمرأة الطيبة التي أثمَـــرَت كُـــرتين بيضاوين وأغصاناً من الشَعر، لكنه تَذَكَّر الهاوية، ومجاعـــات الســـود، ومُحادَثات نزع السلاح النووي، عبر نشرات الأخبار، والليل الذي يَمد أطرافَه في فراغ الأيام، لأن الدنيا الجميلة شـــيء ثقـــيل لا يُطـــاق إذا ما حَبَسَت العصافير غناءها وحَدَثَت فيضـــانات في الهـــند.. كان الحارس يُسند ظَهره ويُشير ويَضحَك، ويقـــول: أوقفه أيها المجنون، لأنه سيقتلك.. أوقفه أوقفه. وركَض بمحـــاذاة السياج فأبصَر فتحة نجاة، لكنها كانت بعيدة، لذلك رأى أن أفضَـــل ما يَفعَل هو التَسلُّق.. وهكذا فإن الفكرة حَسنة، حين قَدَّم لـــه قَبضَة أوراق طرية فتَشَمَّمها وهَدأ..

شَعَر بثقل جيبه حيث وجَد المِدْيَة المُنَمَّشَة بالصدأ، تأمل المِدْيَة.



Twitter: @ketab_n

لماذا المدْيَة؟. ألقاها فانغَرَزَت واقفة في ليونة الأرض.

رأى المديات البعيدة لامتداد الدغل في البستان، كوخ الدجاج من الأعلى، الأحواض كصحون نظيفة، والممرات المؤدية إلى غُرفة الحارس عند الباب، إذ يَخرُج العَزف مُلتوياً حول عوامل الغموض التي تَجعل الارتفاع أمراً رائعاً. أيّة لَذّة؟! أيّ إنصاف؟ تلك التي تقود إلى نُكران الآخرين، بآمال كبيرة تُعطيه الحق في التقليل من أثَر الكوارث عبر نشرات الأخبار.

ورأى بأنه مُرتفِع، بمستوى القرية، حيث نظام الفُطور المُعاد منذ عشرين سنة، رغم ارتفاع البيت الجصي وإشرافه على السطوح المجاورة.

ويُعلّق الحارس أنفاسه في كل فراغ حتى يَكنس أتعاب النهار ويُعطي نفسه الشجاعة الكافية لمواصَلة العَزف بشكل أدَق، نَغمَة أثر نغمة، لكي يلمَس انفصال الروح كانتفاض لذيذ مُدَمِّر يَهز مديات البستان ويَطرق الجذوع الدانية من السياج.

ورأى الحذر الضيّق في مساحات الأرض المفتوحة الرخوَة الخالية الصانعَة السَراب، من أنه ليس حصاراً تقريباً. وتَذَكّر عندما أشرَف بيتهم عند نهاية المُنعَطَف بأنه تَرَك الباب مفتوحاً. وأن لونه البُنيّ يلوح في محور مُرتفِع ويدني فيرد البَصَر إلى المُبصِر.

ناداه شخص من وراء السياج: إن هاجر تبحث عنك. وهاجر التي تبحَث، وهي تَصفَع، وتَلعَن، وتُعِد الشاي، وتَبتسِم لحظة الأزمة. فَقَفَز مُلتَقِطاً مديَته.

والمدْيَة في يَده. هاجر في الرأس. الحمار المدهون بزيت الخروع على بُعد ذِراع و.. طَعْنَة. طَعْنَة. طَعْنَة.



Twitter: @ketab_n

ويَهجُم الألَم لحظة رؤية الدَم يُغطي النَمَش...

يَهــرُب عِــبر فتحَة السياج لأن الحارس مُنشَغِل بتصعيد هواء الموسيقى..

وهناك، قُرب النهر، سَرَق نَظرَة إلى كفه: دَم. دَم. وألَم.. دَم. فــأخَذ يَــركُض بمحاذاة الشاطئ. يَركُض ويَنهَق. يَركُض ويَنهَق. وهــناك أيضــاً، عند الأغصان المغموسَة في الموج وَجَد قارِب العَم عارِف، وأراد أن يَذهَب مُنفَرِداً، لكنه لا يَعرِف تقريباً..

سَمع صوت انسحاق أحطاب فتابَعَه.. حتى بَرَز لــه الصوت من وسط الدغل: مَن؟ شاهين؟ هل كنتَ تَنهَق؟.. وما هذا الدَم؟. فأجــاب: مَن أنت؟ أنا شاهين، وهذا دَم الحمار الذي قَتَلته.. أنهَق لأنــني قَتَلــته. ويَضــحَك عارِف مُستَغرباً، وضحكته قصيرة لأنه يَســتَغرِب، ويقــول: ألا تَعرِف عارِف؟. ويقول: أي حمار تعني؟. يقــول شــاهين: أعني الحمار، قندس ألا تعرِفه يا عارِف؟. فيقول: آه.. تقصد حمار حلاّب، كيف؟...

ويَــتجه إليه، فيقول شاهين: بماذا يكون القَتل؟ أليس بالمدية؟. ويَعقِــد عارِف يديه لأنه لا يعرِف ماذا يَفعل، ويقول: اهدَأ اهدَأ، يجــب أن تَهدأ. وجهكَ أصفَر... ولكن لماذا؟. فيجيب: لأن هاجر تَبحث عني.

وطَلَــب مــنه أن يجلــس قليلاً لأجل الراحة، بينما انصَرَف لــيُجري بعــض الترتيبات داخل القارِب، فَسَوّى المجذافَين وجَمَع شَــبَكَة الصيد في المُؤخرة، وقال: اصعَد. بعد أن فَك العُقدَة. قال: سأصعَد، ولكن إلى أين؟. فقال: إلى الجَبَل، ستبقى هناك حتى نُدَبِّر لــكَ الأمان. فركَب، وتناول يده المُدماة، لكنه تأرجَح عندما نَقَل



Twitter: @ketab_n

قَدمه إلى الجوف، مُغمضاً عينيه ومُوتراً ظَهره في البدء، فأمَرَه بارتخاء.

النهر أملَس مُغطى بعيدان الطَفو، على جانبي القارب. الجانبان المُعَرَّضان لنَقر الأسماك، وهي أسماك الفضّة على الجانبين. تُهاجم الخشب بعد أن ابتَعَد وَتَد المَرسى بمسافة خطوتي عملاق. والجانبان يَندفعان فوق أذناب الأسماك الكبيرة التي تَصفع السطح ثم تَغرَق. ينسابان في نشاط حركة الأمواج؛ تيار صَنَعَته حدبَة صخور نحو حدبَة صخور أخرى. وتَنغَلق الرؤية في ظِل الجَبَل أمام مَهوى الشمس على أوراق الأشجار الدائمة الخضرة، فلم يبقَ سوى التيار المُجَمَّد في الأفق بمستوى طاقيَّة عارف. بينما يَصعَد الماء عبر ثَقب سريّ فيَدخُل الكيس الذي فيه شيء.

ليس ثمَّ خَطَر يَقترب بدنو البُوز الخشبي من صخرة النمل. كان المُجَذِّف يَتَحَكَّم بالاتجاه بحيث يستَطيع إدخال القارب في ثقب الصخرة ثم إخراجه من الطَرَف الآخر بلا عَواقب. لذلك ابتَعَدا بسهولة عن خط الخَطَر بعد أن رأى الدَبيب عن قُرب شديد..

قال له: اقفز. وأدار الخشب عائداً باتجاه الوَتَد في الضفة البعيدة التي كانت قريبة.....

ناداه من مُنتَصَف النهر: تَشَجَّع واعتَمِد عليّ. ثم ناداه مرة أخرى: سآتيك بالطعام والأخبار.. أما إذا عطشت فالنهر هدية مني. وجاءت ضحكته طافية فوق الأمواج، عنيفَة ومُبَلَّلَة ومَنثُورَة في ذَواء الخريف، ولكنها مُجتمعة لهَزّ الجَبَل....

يَمتَد بَصَره في ممر رملي بين الأشجار حين يَجِد نفسه وحيداً



Twitter: @ketab_n

أمـــام الكثرة الساحرة؛ ارتفاعات رملية مُخَطَّطَة بعدما انحَسَر عنها مـــاء الفيضان، وهي شبيهة بخطوط حلاقَته المُزَيَّفَة، وقد تَرَك النهر المُنسَـــحب بعـــض الـــبرَك التي اسوَدَّت لكثر ما يَسبَح فيها الدود والضـــفادع والأصـــداف المَقســـومَة، وأشياء متنوعة مما اصطادَته شُـــجيرات الطَـــرفَة في موسم الفيضان من مَرميّات المُدن الشمالية، ظَلـــت عالقـــة بعد انحسار النهر. حاجيات أكياس المجانين؛ ملاعق مَطّاطيّة، عُلَب مَطّاطيّة، مصّاصات أطفال، دُمى، أحذية إسفَنجية، قـــناني دواء وكحـــول وعصير، زهور تَزيين الشَعر، ملاعق، أواني، صـــناديق أســـرار العجائـــز الراحلات، ماسكات، مَنافض دعاية، وألواح دعاية؛ (تحذير حكومي ـــ التدخين مُضِر بالصحة ننصحك بالابـــتعاد عنه. مارلبورو أفخَر أنواع التبوغ. ساحبات عَنتَر. جبنة الـــبقرة الضـــاحكة، لذيـــذة، مُغَذّية. مُعَلَّبات مَرَق الدجاج عَلامَة الأســـد. مَصـــنوعات كوريّـــة عَلامَة برج ايفل. دجاج البرازيل، مَذبـــوح على الطريقة الإسلامية. ساعة ستِزن. ساعة أولما. تويوتا رمـــز الدقّة والقوة. أسبرين يُزيل الآلام. بيبسي كولا. المطعَم العربي يُـــدار بالكومبيوتر. تريم جيتر. أولد بار، الويسكي المعروف المُعَتَّق. ألـــبان كانون... إلخ). وحاجيات مترلية قابلة للطفو، وعلب صفيح حَوَّلَـــتها الأرانب إلى بيوت لها. أشياء كثيرة لا يَعرِفها. مَقذوفات المُدن...

هـــنـــاك، تلـــك الانحدارات التي تَتَفَيأ تحت أشجار الغَرَب. ظـــلال كثيفة دَبِقَة تعبق برائحة القير والنعناع وتمتلئ بأنواع بيوض هَجَرَتها الفراخ، وقد رَسَم الدود في الرمل الرطب خطوطاً كعروق ساعدي عارِف النافِرَة.



Twitter: @ketab_n

يَضطَر، لكي يَصِل الجَبَل، إلى عبور أحد فروع النهر الضحلة، إذ يَـــنحني ويُشـــكِّل جزيرة جَرداء مَكسُوَّة بالحَصى، حَصاة تَرُصّ حَصـــاة حَصـــاة تَرُصّ حَصاة حَصاة تَرُصّ حَصاة... بحيث تَترُك مَجالاً للغُوَيبَة بأن تُحَرِّض نباتاتها على تناول الجُرف الجبلي فتُكَوِّن أردية تَدخُلها الزنانير.

راح يَصـــرخ تحـــت الجُروف، ولكن صوته يَضيع في ضوضاء الهَديـــل والزَقزَقَة والصَفير والتغريد والعواء، وأصوات أخرى صعبة التميـــيز لمخلوقات أبصَر منها الكثير وبَقي الكثير. حَشَرات بعيون مُســـتَطيلَة. دواب ضـــائعة في شقوق السيول، كاليَربوع وأُم أربَع وأربعـــين والرُتـــيلاء والأسروع والصلّ والعَقرَب والجعل والشَعراء وســـراج اللـــيل والعظاءات المختلفة في الشكل والحجم والجدجد والزيـــزان واليعســـوب والغريـــر والقنفذ والنمس وأنواع الفئران والثعالب والسنجاب... إلخ.

يَذهَـــب الخوف ويَذهَب الجوع قُرب بِركَة من برك الأسماك المَحصـــورة بعد انسحاب النهر، حيث بَنى للديدان البيضاء كوخاً من الرمل، وحَفَرَت رُكبتاه حُفرتين، وعَمَّق خَطاً بمثابة ساقية لإزالة حصـــار الأسمـــاك لأن شوك الجروف يَتَنفس بِحُرِيَّة تحت الخريف، فلماذا لا تَتَنفَس الأسماك التي أطلعها من الماء؟.

وتَمَـــدَّد فوق الكُرة الأرضية شاعراً بزيت الأجنحَة، بالغطس حـــتى أحجار القاع. لجّة النهر. الفيضان. اللبوة الجريحة. الباذنجان عـــلى الجـــريدة حيث الموضوع المكتوب عن مجاعة السود. الطيور الأصـــوات الطيور الأصوات الطيور الأصوات، الهَديل الدائم الداء الدا... دا ـــ با ـــ دا..



Twitter: @ketab_n

ويَضيع صوته. يَضيع لأنه لم يُجَرِّب لذة أفضَل من الماء، ذلك أن هاجـــر ولدته في قَيظ جَهَنمي؛ الناقص ابن سَبعَة شُهور. كحلم قُرب الثدي الطبيعي، يَتَذَوّق بُرودَة الحَليب ويُرَكِّز فيها، في شفتيها اللتين عَلَّمَتاه اللفظَة الجامعَة: دابادا...

ويَـــلجأ إلى الغيـــبوبة عندما يَفشَل بإصابَة ذيول البَط تقريباً. ويَتَصـــرّف وِفق طريقة تَجَنُّب الخطأ لأجل تَجَنُّب العقاب، عندما كانـــت الأشـــجار أكـــبر من الأشجار المُعاصِرة، والنهر أعرَض، والأرض في تَجربة الدوران حتماً.

لقـــد امتَصَّت الصخور حُمرَة الخَجَل، واستَمَر النهر في رِياضَة التَهديد والتَقَلُّص، حتى بعد أن أسكَن الأسماك ثقوباً فماتَت. ورأى تكـــاتُف الديـــدان ضدّه عندما قَتَل واحدة. وهذا أيضاً من نتائج الإحســـاس بطَـــراوَة الطـــين وألَم الحلزون ورائحة الوجوه الكابيَة والـــناس في خَط شبيه بأثَر المشط. كذلك العيون الماسيّة لحيوانات الشـــقوق، تلك التي تنتَظِر طلوع الليل، وهي كبيرة بحجم الجذوع التالِفَة، حَقُودَة ومُسالِمَة ــ وآمِلَة الأنياب بِتَفتيت جَسد بَشَري..

ومـــنذ أول مَطر على أرض الله ــ والناس. منذ ذلك تقريباً، والطبيعة تَعمَل بجهد لترتيب بيت شاهين، في شَق سَيل هائل. بيت ذو رُفُـــوف مَرمَـــرية، لكـــي يَضَع نفسه فيه، تحت السقف الشبيه بـــأوراق كتاب ضَخم. وقد فَرِح لأن هذا المكان بعيد عن مُتَناوَل الضَـــواري، إضافة إلى أنه يَمد سلّماً مع انحدار السفح حتى المكان. ومـــن المكان ــ البيت حتى شاطئ النهر. كما يُتيح لـــه الإشراف على الماء المُلتَوي كأفعى تُرَقِّطها الجُزر، وتخبئ الغُوَيبَة ذَيلها. كذلك القرية المَخنوقَة. بمساحة شاسعة من البَراري الجَرداء.



Twitter: @ketab_n

ويَجلس في بيته الجَبلي ولكنه لم يستطع الاستقرار، لأنه لم يعرِف المكَان، فَيتكئ واقِفاً، ناظِراً إلى أمام وليس إلى شيء مُعَيَّن.

وبَدأ الألَم يَنقُر يَده، فيَضَعها بين فخذيه ويُطبِق. فتُداعب وجهه أعشاب الصخرة المُجاوِرَة التي اتخَذَت لوناً أبيض مُنذ طوفان نُوح. بينما أخذَت صخرة الجهة المُعاكسَة شكل الثور لِتَدفَع بَصَره عنها باحترام. ويُفكّر، لهذا الخَندَق شَكل فَم ضاحِك، فَم عظيم. للجبال أفواه وأطراف وقُلُوب كبيرة نابِضَة، وهي تَشرَح حنان الاحتواء.

ويَفتَح الوادي المَنقوش بأشجار الصفصاف نَفسه مُنذِراً بمَجيء المساء. وقد تَحَوَّلَت أنواع الصخور البركانية القاسِية المَعشَر، والأخرى الرسُوبية المُسالمَة، والقوقعية التي تأخذ أشكالاً لوجوه حيوانات ورِجال يَعرِفهم. ففي عهد مُبَكّر حاوَل الوصول إلى الجبل، إذ كان النهر يَكشف بطنه طائعاً رَغَباته، بِصُحبَة عوّاد في حلم جَمْع القَواقِع، لأجل وضعها على الرَف، ومَعدَن الكبريت المُنسَرِب من ثقوب القطط.

تطوف عيناه عبر الصمت الجالس على حافة النهر، وقد نَسِي لَغط المَخلوقات. أخاديد مَجاري السيول. ولقَطرَة الماء ثقب بمثابة عش. وفي الجُرف ملاجئ لطيور يعرِف أشكالها دون أن يُتعِب نفسه بالبحث عن أسمائها. رُفوف صخرية مُخَطَّطَة بِفَضَلات.

وهناك فوق قمة عالية، يجلس البُوم في وضع التأمل. وكلما أحَس شاهين بأنه المَخلوق الآدميّ الوحيد بين مخلوقات مُختَلفَة، أطلَق صرخة عاوِيَة، لكي تَرتَد إليه كصرخات كثيرة... وهكذا يَشعُر أنه صار شَواهيناً كثيرة، فَيَطمَئن. ويصل إلى نقطة هي نهاية



Twitter: @ketab_n

بدء. مَحَطَّة استراحة. ثم يَضَع الجبل خَلفه مُستنداً. لحظة العودة إلى شُباك الضحك.

والآن: تـــبدو القرية أمامه كعُلبَة ثقاب، فيَعجَب كيف كان يعيش هناك، ويَتَعَذّب ويَضحَك أحياناً!!...

هـــناك، حيـــث يُشير برأس سَبابته؛ حلاّب، شعبان، هاجر، عالـــية، عزيـــزة، زهرة، مسعود، صاحب النظارة السوداء، عجائز الوديـــان، احتفال القبور، مَشغَل عوّاد، زهور، المرأة ذات القميص المُهـــتَر، المـــرأة الأخرى الأقل فِتنَة من الأولى، والآخرون، صاحب المقص - كل أبطال هذه الرواية - كلهم يتبادلون عبارات الأسف حول جثة قندس، حيث الدم والذباب وبكتريا التَفَسُّخ...

غاض الضوء بين الوديان وتَسَرَّب في جروح الجبل، وساهَمَت الآفـــاق، تمـــتص بلَـــذة شَرِهَة.. فيَتَرَسَّب الظِل ويَملأ المُنحَدرات مُتَسَلِّقاً السفوح نحو القِمَم حتى طيران البُوم.

يـــتمدد فوق نتوءات تَثقب ظَهره، ويحس بسلام عميق، يحس بالصَلاة...

يَـــرفُس حَجَراً فيَتَدَحرَج إلى الوادي، ويُنصِت إلى ألَمه عندما يَصطَدم فيُبَعثِر استعدادات نوم الحَجَل.

انقَلَبَـــت أزقـــة القـــرية، فجأة، إلى نقيق ورصاص يغوص في جـــدران الطـــين والأحطاب، وقد انتَشَر الخَبَر كالسُم. ورَكَضَت ســـيقان نحو مَصادِر الصوت، حيث كان حلاّب يمد صرخاته بين الممرات، وفوق أكوام الروث، ويُرسِل رجاله إلى زوايا القرية بَحثاً عـــن الهـــارِب. وقد أثارَهُم الأنسام الداخِلَة عبر ثقوب المَنازِل، إذ يـــبدو كل عمود، وخرقة، وعلبة لامِعَة، شيئاً يَستَخرِج من النفس



Twitter: @ketab_n

غريـــزة الاكتشـــاف. إضـــافة إلى الأغصـــان الساقطة في ظلال اليوكالبتوس، والتي تَدفَع المَارّة إلى فتح الأفواه والمشي على أطراف الأصـــابع، فـــيَحدُث أن تَذهَب السيقان إلى الجانبين مُخالفَة نظام المشـــي الطبـــيعي، حـــتى تتلامَس الأجساد ناظِرَة إلى نقطة مُعَيَّنَة، مُعتمَة.

حَـــذَر. حَذَر الزوايا، ومَداخل الأحطاب التي أعَدّها الدجاج للبيض، حيث سَمعوا تَكَسُّر الحُزَم بصوت خبيث، فكانت الكلاب تُهاجِم بدافع الخوف، والقطط تتمَسَّح بحُجة الأُلفة. وتصير حاسة الـــلمس أشطَر الحواس، والسمع أعلى من الكلام. حوارات قصيرة خافـــتة، لأنهـــم يخشون المفاجأة. غير أن كل واحد منهم يَنتَفض مَصَـــعُوقاً إذا مـــا فُوجِئ بغُصن يُدَغدِغ وجهه من فوق حائط، أو دخـــول حَشَـــرَة بين الرِداء والجلد. وتمتد الأكُف خلسَة لتتصافَح: أُدافِع عنك حتى الموت... اتفقنا.

تَسَلَّل المساء الحزين إلى بُقعة هاجر، التي لا تعرف ماذا تَفعَل، فكانت تَقوم لتَكنس جثث العصافير الساقطَة على العتبة.

وعَزَف الرعاة، بقيادة الحارس، ألحاناً تأبينية فوق المُرتَفعَات.

ومضى الصبية مُرتَطمين بجدران الأزقة، حاملين رِماح القَصَب لاســـتفزاز فَتَـــيات الأبواب اللواتي أُتيح لهن الخروج بحجة الضَجة. ونَظَروا عبر فتحات الحيطان إلى أعمدة الغبار المُضيئة، يتَسابقون في الصَفير وفق طريقة طَبْق اللسان تحت الأصابع.

وقامَـــت الفَتَيات بمحاولة تَعَلُّم الزَغرَدَة تحت ستار الضوضاء. أخرَجَـــت هاجـــر بقايـــا القَطيفَة، فأوقَدَت منها ناراً كبيرة، وهي تَستَمِع إلى عَواء الذئاب.



Twitter: @ketab_n

وظَـــل حلاّب يَصرخ، ويَتلمس الأشياء: هذه شجرة التُوت. هذا سياج الآس. هذه ربابة شعبان..

ويَفـــتَح باب القَبو، فتصير الشجرة خَلف ظَهره، حيث يَسمَع أغصانها تُقَطِّع الهواء. كان صدره جامِداً كغطاء صندوق. يتَقَدم في وَحْلٍ، يفتح الباب: عُـــرررر.

.. آه.. صوت الباب، نَعم هذا صوت الباب. يَتَقَدم في وَحْلٍ نحـــو الأكياس، حيث فَضَح مصباحه تفاصيل المكان. رطوبة، كما يَـــتَوَقع القارئ، رائحة بيض فاسد كشيء خاص يكشف عن قِدَم المكان وعمقه. وثمة شقوق نَحَتَها المطر الأخير. وفي السقف جذوع مُتقاطعة تَحمل أرضية البيت. بَق وذباب حيث غبار عتيق. سِلال. أكياس قَرَضها الفأر. بَدَن دَراجَة مُحَطَّمَة.

يـــنظُر في القبو نَظرَة مُثيرَة للشَتم، عندما يَزِل خطوة أخرى، وفجأة؛ تلك السلّة التي تظهر، صراخ طفل مولود قبل الأوان...

وبحـــركة ســـريعة، يَعرِف خارطة النفاذ؛ باب لصق السماء الســـوداء. حذر حدّ سَماع القلب. يَتَراجَع إلى العتبة... ويَمكث حـــتى يُتعبه التَوَقُّع. قال للباب: يجب أن أخرُج. ولَمَس قلبه عندما واجـــه شجرة التُوت.. ثم تَنَفس بعلو ناظراً إلى البيت المهمل لصق الأفق. وأبصَر جَسداً على العتبة. ليس جَسَداً، وإنما كيس قطن.

كانت الأغصان مُنحنية بثقل العصافير النائمة، التي تجفل كلما مَرّ بها عَمود الغبار المُضيء، فيجفل معها.

مـــرة أخـــرى، وَجَـــد نفســـه مُلامســـاً لباب القبو، يَدفَع: عُـــــررر... آه إنه الباب.. صوت البابَ. وهناك، يُوسِّع لجَسَده مكاناً بين الأكياس... ويُطفِئ ضوء المصباح.



Twitter: @ketab_n

يستيقظ شاهين بعد غفوة قصيرة، ويَفتَح عينيه بأقصى اتساع مُستَعرفاً على المكان.. فيَجد الظلام، ويَتَذَكّر بيته الجبلي، فيركن إلى طمأنينة مَثقوبَة تحت وطأة المُفاجئ الذي اختَرَق الغفوة مُشيراً إلى عشرات السبطون المُتَموجَة في فناء جامع.. والجامع في صحراء.. والصحراء في صحراء أكبر. دفوف.. ويَدخُل الموت برعشَة الزاوية. أنصال. قضبان واخزَة. بصاق مُقَدّس. ملح مُبارَك. شرائط قماش أخضر. له عين ثالثة يَرى خفايا الصدور، وحَدس يَكشف النوايا فلا حاجَة إلى الخوف وحمل الأسرار، بل يجب الاعتراف بجميع الذنوب قبل أن يُكشَف عنها. كُن طيباً وبسيطاً وخائفاً. كُن خائفاً وتَصَدَّع. أغمض عينيك واعقد يديك على صَدرك... الله حَيّ.. الله حَيّ. ستأتيك الصُوَر. الله حَيّ..

قالوا اصعَد إلى ثلاثة، فالأول جميل وهادئ ومُبتَسم، ولكنه مُخيف يَمد إصبعاً من أصابعه النحيفة نحو حيوان يَزحَف فيَتَحَوَّل إلى إنسان. يَبدو شَفّافاً عبر ردائه الواسع. أما الثاني فيَحمل عصا مُشيراً إلى جهة ما من الوادي الأخضر الفسيح، لأنه صامت وقصير وقوي. اصعَد. أشار بعصاه إليك، وقَطّب جبينه مُشَجِّعَاً، فرَميت قَدَمك على حَجَر السلّم حيث جهة الإشارة. اصعَد نحو الثالث، الذي يَحتَضن غيمة زرقاء في الأعلى. رجُل مُهاب، مُغَلَّف بضوء مُغَمَّم نظيف. فارتَجَفت وسَقَط وجهك على الدَرجة المُقبلَة، لكن العصا لَمَستك بقَصد الحَث.. غير أن الرَهبَة أثقَلَتك. الرَهبَة الجامِعَة، الرقة الغالِبَة.. كل شيء حتماً، يا للحلم!!.

يَفتَح عينيه أكثر، فيَرى الظَلام المُحيط. ويَدخُله الهواء البارد فيَخرُج ساخناً بمستوى عَواء الضواري. لأن جَسَده طَريّ لا



Twitter: @ketab_n

يَحتَمل الأنياب، بسبب قَشعَريرَة دَبيب مجهول على الجلد... فيُخَيَّل لـــه أن أحداً ما يَنطق اسمه، منادياً هامساً مُحَذِّراً: شـــاهين...

يَفـــتَح فمه جامعاً بالسمع أبعاد الظَلام، لكن الصوت وَشيش النهر وهو يَلحَس أقدام الجبل، يَرتَفع فيأخُذ معه النداء، كما يَرتَفع صوت مسعود آنذاك:" لَم تَكذب. لَم تَسرق. لَم تَزن.. أنتَ رجُل نظيف..".

يَـــزِل مُجتازاً فَرع النهر فتهزّه بُرودَة الماء، ويَسمَع من جديد: شـــــاهين... نداء يَشبه الأنين، لكن عَواء الضواري يَطمس النداء، مُشـــيراً إلى أنهـــا لم تجـــد بعد وجبَة عشاء مُناسبة. صوت قريب: شـــاهين. خَريـــر ينبوع ــ كلا ــ صوت أنثى ــ كلا ــ حَوافر قـــندس ــ كلا ــ انسحاق عظام. مَطمَطَة. حيوان يأكل حيواناً.. هَريـــر. أنـــياب تُمَزِّق لَحماً ــ كلا ــ.. غير ممكن، ضوء؛ عينان فســـفوريَّتان، فَم مُدَبَّب، آثار دماء تَتَسَلَّق الصخور... يعوي عالياً ثم يَهـــرُب مـــن شدة الضوء. ويَسقُط، غير أنه نادراً ما يَصل إلى الإغمـــاء. الـــنداء قريب: شاهين. نداء وضوء. شاهين أين أنت؟. يَعـــرِف هذا الصوت: مَن هناك؟. فيُجيبه الصوت: أنا عارِف.. لا تَخَف، كنتُ أناديك منذ ساعة، ألم تَسمعني؟.

ويَرفعه عن الرمل الرطب، ويَحتضنه. فيَشم رائحة القاربيّ... الإنســـان. زَغَـــب الوجه يُلامس الوجه. يبكي، فيقول له: اهدأ يا أخـــي.. فالحمـــار بخـــير. ويسأله عبر النشيج: أي حمار تقصد؟. فيُجيـــب عـــارِف: قـــندس. يقـــول: مَن قندس؟. يقول عارِف: أهيـــســـه! قـــندس الذي... ويقاطعه: أعرِف بأنني لم أقتله لأنني اكتَشَـــفت فـــيما بعد... اكتشَفت ماذا؟ يقول عارِف. فيرد عليه:



Twitter: @ketab_n

استَعملتُ المدية بشكلٍ مَعكوس، لأن كَفي ظَل يُؤلمني.. والدم هو دَمي أنا، لا دَم الحمار.

ويَضحَك صاحب القارب فتَطفو ضحكته فوق الأمواج، عنيفَة ومَنثُورَة في ذَواء ظُلَمَة الخريف...

لامَس خشب القارب أعشاب النهر. جَوف في مساحَة ضائعة، مَدفوعاً بقوة رِقة الأمواج. أمواج المساء العالي الحُر البَليد. مساء الأسماك الكبيرة التي تأكُل الأسماك الصغيرة... إلى متى؟.

أسئلة في هاوِيَة الأخوَة البَشَر، الجاهلين الطيبين، حتى سواحِل القرش الأمريكي، حيث يَسلقون البيض في صحراء نيفادا، عبر نشرات الأخبار، ولا يعرِفون شيئاً عن صخرة النمل وأكواب الفخّار في مُنحَدَر التل الأسود. بينما يَدفَع عارف الماء ليَندَفِع في الماء، بأذرعه الخشبية المُبتَلّة الجافّة المُبتَلّة الجافّة المُبتَلّة الجافّة المُبـ... وقَع المساء العالي، يَجرَحه ثم يُداوِه، مُضيئاً رؤوس الأمواج المُنتَظَمَة المُتَتابعَة المُتَساوِية المُنحَنِيَة على بعضها، المُتآخِيَة النظيفَة لأنها تَطرُد العذوق والعيدان والغرائب إلى اليابسَة المُتَّسِخَة دائماً. فالأمواج تَغسِل الأمواج.. غير أن اليابسَة مُثقَّبَة بالمَراحيض... إلى متى؟.

عارِف شَبَح أكيد، لأن رائحته أكيدة، وتَنفسه مُرتَفِع، فهو يَجرَح المساء ثم يُداويه بالمساء. يَجرَح الماء ثم يُداويه بالماء. إذ سُرعان ما تَندَمِل العناصِر المُتَّحِدَة، باستثناء جَرح المدية المَقلُوبَة، فسوف يُنكَأ بالمُصافَحَة.. ويَذهَب كل جُهد بلا فائدة كالليمون الذاوي في السلال بسبب مَجاعَة السود لأن الأسماك الكبيرة تأكُل الأسماك الصغيرة تحت الجَوف المَدفُوع بقوة رِقّة الأمواج. وعارِف يُغَنّي بقوة كما يُغَنّي الجميع بقوة عندما يَدفَعون الماء بأذرُع الخشب



Twitter: @ketab_n

المُبــتَلّة الجافّة المُبتَلّة الجافّة المُبتَلّة... آهات تَعني الأنثى المُنتَظِرة، بين وسائد رِيش الحَمَام، طَرقَة الباب المُتَّفَق عليها في المساء، حين تُقَدَّم لهــا الهدايــا الكثيرة كالأسماك والجزر، والمَناديل المُعَطَّرَة، فتَدفَعها وتــأخُذ رائحــة الشــعر وأغنية الذَكَر الغليظة، بقصد الآهات.. فالجميع يجرحون كجرح المدية المَقلوبَة، الذي يُنكَأ بالمُصافَحَة. هل أنــتَ جــائع؟ يقول الظل المُغَني وهو ينحني ويَستَقيم، ثم يَعود إلى الانحــناء، ويَقطَع الغنية لِيُكَرِر: هل أنتَ جائع... يا أخي؟. ويُضيء أغصــان المَرسى الغاطسَة في الأمواج، حيث يُلامِس خَشَب القارب رؤوس الأعشــاب ويَهتَز بسبب الاصطدام. يَرمي الأذرُع الخشبية ويقول: انزِل على مَهل... لكي لا تَسقُط. ويُعطيه دَرَنات السعدان و: تَحياتي لهاجر... اتجَه إلى أضواء القرية واعذرني..

يَجــتاز حُطام مَزارِع القطن، شَطر أضواء القرية، كما أوصاه عارِف. يَتَخَدَّش نصفه الأسفل. لم يكن مُتعَباً وإنما يُريد أن يَسقُط، حــين تناول الليل نصفه الأخير وهَدأ البحث عنه. لا بسبب القناعة بل بسبب اليأس.. فقد فَتَّشوا كل مكان فلم يَعثَروا على أي أثر له. بيــنما ظَلــت هاجــر تدور في أرجاء البيت حاضنة رأسها تَستَعد للخســارة النهائية، وليس الهزيمة النهائية. فلَن تَصعَد بعد اليوم لكي تدعــوه إلى الفطور، لأنها لا تستطيع مُجابَهَة مكانه الفارغ، حيث المنشَــفَة، والسَرير، وملابس الطفولة، والساعة التي ستُواصل الرنين مُعلــنة، مــن خــلال حركة دائرية، عن تتابع الوقت ومَهزَلَة أيام الأسبوع المُتَكَررة منذ أقدَم العصور...

يَمُــر تحــت الجُرف الصخري مأكولاً من قبل الوادي، فيَرى شَــبَح مَشــغَل الرجل الذي سافَر إلى العاصمة لأجل الشُهرة.. ثم



Twitter: @ketab_n

الأعمـــدة الـــتي تسند غيم الحرائق. ما هذه الأعمدة التي تسند غيم الحرائق؟.

ليس هناك تَل بالمَعنى الجغرافي، فالشواهد مُوَجَّهَة صوب الغبار كفقاعـــات كَـــف مُـــتَوَرّم، إلى جنوب البيوت. كَفٌ بين فخذين تُـــرافقهما الأضواء، ليُحَدِّد البَصَر مكان الجَدة السَمينة آكلَة البيض الفاسِـــد، والصـــور الغامضة التي تملأ الجَوف أحياناً، حتى الشُعُور بضرورة التَقيؤ.

كانـــت تأتي كظلال رَفيعَة، نَعش أثر نَعش، مَربوطة بمسامير ناتئة. رِجال يَحملون رَجُلاً مُمَدَّداً.. كان رَجُلاً، أما الآن؛ فمُجَرَّد رَجُـــل يَترِل لأنهم يُترِلونه إلى العظام التي تَحَوَّلَت إلى مَزامير للريح بسبب ثقوب الحَشَرات. دَرَجات فظيعَة من أنغام أنهار الجَنَّة النابعة مـــن أي مكـــان غـــير مُحَـــدَّد، تختفي هنيهة حيث مُنحَدَر عَوار الضواري ثم تَذُوب في المَقبَرة ــ عُمْر الفقاعة، تَنفَجِر حين يجب أن تَكـــبر. ويُـــؤدي الزيـــزان واجبه تحت أحطاب التين. لكن صورة الـــرَجُل الأول تَتَكَرر كَدَفقَة حارَّة مالحَة من دَفَقات نفّاط الزيت، مُســـتَقلّة في الكَيف، فيضطَر أن يموت، وهو رَجُل مُهم... هكذا، أثـــر قَرصَة حَشَرة، ويضطَر الناس إلى جَرّ نَعشه بنير الثيران، بعدما دَثَّـــرُوه بأزهار الباميا وأوراق البقدونس، لذا فإن أخشاب النَعش قد حَفَرَت خَطّاً أعمَق من حدور السيل بعد أمطار آذار، وضُرِبَت حَـــول قَبره أسياخ حَديديَّة لغَرَض حِمايته من تَدخُل حيوان الغرير، لأن الرَجُل مَضمُون...

رَجُـــلٌ جمـــيل، إلى جانب رِجال في هيئة السُخرية. يَنظُرون وجـــوه بعضهم بعضاً، ولا يَرون وجه أحد منهم بالتحديد، بسبب



Twitter: @ketab_n

نومهم هناك على المُرتَفَع، فسحة الأعياد والحلوى.

لـــيس ثمَّ أحد بالتحديد يَجلس مكان أحد. ما من شيء يَلمَع لأن كـــل شيء مُنطَفِئ بَنفس سُهُولَة الصراخ المُمتَد بامتداد ظلال الحَـــزانى الذيـــن لا يَرون شيئاً مُعيَّناً، يصغون إلى دَبيب الظل أياماً وشـــهوراً مَقهُورين ببُرُود أمام حُطام مَزارِع القطن، بلا خَوف أو حَـــذَر أو أمَـــل.. ولا أي أمَل بمجيء الموت مَرّة أخرى.. ولا حتى أمَل ببقائهم أياماً وشهوراً مَقهُورين.

ثمـــة نساء، ذكريات نساء تقريباً. نساء مَيّتات يَحتَضنّ أطفالاً مَوتى، تحت المطر وعواصف الغبار ومياه البَطّيخ المَسرُوق كل يوم، بفَضل الشموس الحارّة المَسرُوقَة أيضاً من خَط الاستواء.

فقـــط، تجدهـــم بلا أية مَتانَة مَعروفَة، يَهزُون شَعراتهم الباقية الخـــالدة؛ رأس عـــند قَدَم وقَدَم عند رأس... حتى الجهة الأخرى مَصـــدَر طُلُوع القَمر والبَعوض، بسَلاّمياتهم الناقصة يَحكُون النَسيج الـــياباني الخَشـــن، حين تُبَدل السماء ألوانها بالتَعاقُب؛ الفَيروزي، الذَهبي، الفضي، الكبريتي، النُحاسي، الإسفلتي... ما من فُصُول ولا ذكـــريات ولا أرقام ولا أصوات إذاعات، لأن الله مُرتَفِع فوق مياه الـــنهر وبَرق السَحاب، يَسمَع سُقُوط أوراق الخريف وَرَقَة.. وَرَقَة، بعدمـــا يَأمُر الخريف بالسُقُوط وَرَقَة أثر وَرَقَة، في كل مكان تقريباً، حـــتى القُطب وجَحيم خَط الاستواء، وأسرار البَراكين الخامِدَة أو الثائرَة أحياناً.

وفي المســـاء، لحظـــة الانصراف إلى الشؤون، يَنسى المُمَدَّدون واجـــبهم فيَذهَبون إلى ذاكرات العجائز، على الأغلَب، يَذهَبون إلى الذاكِـــرات المَحشُوة بالنِسيان. وقد أعَدّوا، عبر تَعَب طويل ومَرير،



Twitter: @ketab_n

تفاصيل مُرَوِّعَة لأجل اللحظة الاحتفالية، حيث تَسير ظلالهم مُمتَصَّة زَوائد القَعر ــ الهاوية المُرتَفعَة كَفقاعات كَف مُتَوَرِّم. زُرقَة. زُرقَة شَفّافَة. زُرقَة شاحبَة، وهي حُمّى وطفولة مَعكُوسَة تَبدأ بعد سُقوط سن العَقل في طَرَف الأدغال المُحاصَرَة بعواصف آخر الليل. ربما بُعَيد مُنتصف لَيل الأرق. بل قَبل الانتصاف تقريباً.

اثنان أو ثَلاثَة من عائلَة واحدة، يُحافظون على رَوابط القُربى عبر اهتزاز التُراب، بلا إشارة، يَعودون ويَذهَبون قَلقين لأنهم في نفس المكان، لا يَجدون الشجاعة الكافية لبدء التعارُف بإشارة إنسانية ــ إشارة مُعَيَّنَة لاستمرار خُمُودهم. هل هي إشارة إنسانية؟ إنهم غير مُتأكدين... هذا هو المُهم. لا شيء، لا شيء، وَقعٌ مُستَمر طوال المساءات التي تموت وتَحل مَحَلها مساءات أخرى. لا شيء. شُهَداء العشق ماتوا لأجل قُبلَة، شفَة على شفَة، بل شفَة في شفَة. تَلَمَّسوا الفراغ فأخطأوا في العَد، لأنهم اثنان، بَشَران، آدَميان: أربَعة أيدي، أربَعة أرجُل، أربَعة عيون ــ والآن ثقوب، أربع قَصَبات تنتهي بالأمشاط، وفقَ مَفهوم علم (الأحياء). أطفال حَصبَة العُصُور القديمة طيور للجَنَّة لأنهم أطاعوا آباءهم، فَغَسَلُوا أيديهم قَبل الأكل وبَعده... ثم الشَيخُوخَة المُتَشابِهَة، ما أن يَبلُغ أحدهم الراحة حتى يَرتاح نهائياً.

اثنان أو ثلاثة، يُحافظون على رَوابط القُربى، ويَعمَلون باستمرار لتَمتين تلك الرَوابط، فتَظَل قوية لأنهم لا يَفعَلون أي شيء لأجلها مَخافَة أن لا تَبقى مَتينَة... باجتياز دهُور النَوم، وقد مُحيَت أغلَب التعابير التي تَجعَل الواحد مَذمُوماً حتى لا يَفهم الآخر بأنه لا يُريد الانتظام في الصَف، حَسب فصيلة الدَم الجاف، لأنهم بلا دَم


Twitter: @ketab_n

أصـــلاً، باستثناء ما تَبَقى من السَلاّميات التي تَحُك النسيج الياباني الخَشـــن. بلا شَفَقَة أو تَعزيم أو غَرام أو انفعال أو عَذاب، وبلا أية إشارة إنسانية، لكي لا يَفهَم أحدهم بأن الآخر مَيّت، فلا يَتَحَدثون في ذلـــك أبـــداً، غير أن أسماءهم تَزور، من وقت لآخر، ذاكرات العجائـــز المَحشُوة بالنسيان... فيَرفَع بَصَره إليهم، فتَجيء النعوش كَظِـــلال زرقـــاء رَفـــيعة نَعش أثر نَعش، مربُوطَة برؤوس المسامير الناتئة.

اللحظَة.. يَقتَرب من الإغماء فيَتَدحرَج في حُفرَة سَيل سُوِّيَت قَـــبل قَـــرن على الأرجَح. فيَصير الصَحن المُضيء، الدائرة المُضيئة؛ القَمَـــر يُلامـــس حافـــة التَل مَقسُومَاً بأشباح نساء عاريات. شُبه عاريـــات تقريـــباً. عاريـــات تماماً. يَتَعَرين أحياناً. يَخلَعن للقَمَر ويَعوين. قال: جنِّيات.. اذهَب يا خَوف. اذهَب يا خَوف اذهَب. ويَزحَف صاعداً بين القبور فتَحل الأحجار مَحلّه. يُنادي بخُفُوت: أيتها الجنّيات.. اذهَب يا خَوف. فيَسمَع كلاماً يَعرفه، ويَقتَرب من عُريهن أكثر. يَنهَضن بالفُؤوس ثم يَهوين بالفُؤوس لتَهشيم مُنتَصَف القَمَر. لعَلّه يَعتَقد بأنه يَعرفهن؛ صوت عالية، صوت زهور، صوت عزيـــزة، صوت هاجر.. أصوات جميع النساء المَعروفات. لابُد أنه جـــاء إلى هـــنا. لابُد أنهن جئن إلى هنا ليَحفرن إحدى الفقاعات. يـــنادي: أيـــتها الجنّـــيات... يا عاريات. فلا يَصِل النِداء بسبب الانهماك في الحَفر.

يَصـــعَد دُخان أزوَق بعد الإنجاز فيُشَوّه القَمَر. دُخان السحر والطُقُـــوس. هـــذا الدُخان بالذات يُعمي الرِجال عن مَحَبَّة النساء، يُفَرِّق الرِجال عن النساء، يُزيد مَحَبَّة الزوج لزوجته فيَخضَع. مَحَبَّة



Twitter: @ketab_n

الشَرق. هنا، غالية، لا تأتي بالإخلاص أحياناً، بل تأتي بالخَوف.

يَصعَد القَمَر أيضاً ولكن صعوده أقل. يَسمَع أصواتهن فلا يَدري إن كانت مَعروفَة لديه؟.

يُنادي: مَن أنتُن؟. فيَصرَخن ويَرجمنَه بأحجار الحفر..

يَتَدحرَج حتى حُفرَة السَيل نحو شَبَح آخر، ذلك الذي يَحقن الرِضا تحت جلده فتَتَساوى التجاعيد بالخَد. أحِم أحِم.. أحِم. يَتَّجه الأحِم إلى المَقبَرَة.

يَلمَس في الهاوية الزُقاق جَمرَة حَسَده، حيث مَهوى القطة التي حُصِرَت بين نَعلين، يحسد نَفسه؛ كنتُ شجاعاً. لا. بل يَشعُر بِخَوف أقل لأن نَقراً.... ما يَفعَل القَلب أحياناً.

النَفَس، بعد زَوال المَقبَرَة، في الزُقاق ــ ظُلمَة الأُم، كيف تأتي الصُور ويَذهَب الجوع؟. المساحة أقل بناعِم الهواء. ظِل فوق ظِل. جُزُر وحيطان وزُحُوف أفاعٍ وألواح وأنوف في الظِل. يلتَوي البارِد مُستَرخياً ومُطيعاً كخرطوم. الهواء هو البارد. تَستَيقظ الأهداب باستيقاظ اللوَامس فيَكُون الوَراء أماماً بالتَحَوّل. يَلتَوي مُبكراً.. فأينَ بُقعَة السُقوط؟. بُقعَة سُقُوط القطة التي حُصِرَت بين نَعلين. ظِل فوق ظِل. يُتابِع الخائف حتى النهاية مُنفَرِداً، يَتَسَلَّق داخل الرِداء الواسع باتجاه الضَحك، لكنه لم يَعُد يَدفَع قَسراً قَدَميه الرخوَتين، ولا لزوجَة النَسمَة في الفراغ. كلا. ربما نَسي القَلب شُغله مَبهوراً أمام الحياكَة المُتقَنَة؛ القَمَر ومَساقط الظِلال في الزُقاق كَف داعية إلى الأعلى، قَعر إناء بَعيد. ضوء وظِل. ضوء وظِل. ضوء وظِل. قَصَب السقُوف: ظِل. قَنازِع القَش: ظِل. الشبابيك: ضوء. الأعمِدة: ظِل.. تَمُر من جميع الجهات، اليَسار واليَمين، الأمام



Twitter: @ketab_n

والـــوَراء، الأعـــلى والأسفَل... بينما تَذبل البيوت في مَركَز الكُرة الأرضـــية حين يَصعَد عَواء الضواري الجائعَة فتَذهَب الصُوَر ويأتي الجـــوع أحياناً. ربما تَتوافَق الصُوَر مع المَوضُوع، "ألا تراها. جَميلَة تحت الباذنجان"؟ مَجاعَة السود عبر نَشرات الأخبار. قَعر إناء بَعيد. ضـــوء. ضـــوء. يَنسَكب الضحك من الأعلى، رادعاً مُجَلجلاً عبر عـــش اللقلَـــق طَعَنات طَعَنات حتى يَستَيقظ القَلب. الضحك يملأ الهاويـــة بـــين غُرفته وغُرفتهم، شُباكه وشُباكهم، الشَرق والغَرب. الضـــحك جِســـر المُصـــافَحَة حيث زَغَب الوجوه يُلامِس الوجوه المُشتاقَة.

وشـــاهين في الأســـفَل، يَنتصب بموازاة أنبُوب تَصريف مياه المطر، فتَملأ بعض القَهقَهات هذا الأنبوب، لأن الخريف بلا مطر.. تَـــرن مَخـــنُوقَة ومُـــبَكّرَة. والأنبوب بارِد لأن الهواء بارِد.. بينما الضَحكَة حارّة..

لم يَكُن مُتأكداً بأنه مُعَلَّق، لولا ألَم الطَعنات الثلاث في كَفه. يَتَســـلَّق حـــتى حافَـــة الشُباك، تلك الحافَّة التي تَذبَح صورته من المُنتَصَـــف. ثم يَـــرتَفِع فيُطلِع رأسه لأنهم يطلعون رؤوسهم: فاتن، والآخرون. يَضحَكون بعيون دامِعَة بين رِفعَة الأثاث. إنهم قريبون. يَصعَد. هـــاهُم. ويُدلي رأسه.

كانـــت هـــناك ست فَتحات، أما الآن فسبع، لكن ضَحكه يَضـــيع في لجـــة النشيد المُتَجانس. تَمتَد يَد ناعمَة إلى مَجمَرَة. اليد البيضاء عَصَبيّة مُحاطَة بدوائر الذَهَب، ومَقطُوعَة بطَرَف كُم مُبَقَّع. انتَهَت. اليَد مُمسكَة بملقَط أسود لأنها بيضاء عَصَبيّة. تَضغَط لكي تُقَرِّب طَرَفي المِلقَط على بعضهما، ومن الجَمر أيضاً. يَرتَفِع المِلقَط..



Twitter: @ketab_n

لحظـــة صَمت بلا أي هَمس ولا تَنَفُّس ــ فالكُل يَنظُر إلى المسمار المَشـــوِي المَلقُـــوط من الجَمر.. بِبُطء لكي لا يَسقُط، ثم يُعَلَّق فوق إنـــاء. الـــيَد العَصَبيّة تُرخِي فيَسقُط المسمار في الماء: كِش. يَنفَجِر النَشـــيد. ضَـــحْك ضـــحْك. كِش؛ صوت بُرود المسمار. كِش. ضَحْك. يَضحَكُون لأجل هذا الـــ (كِـــش)...

يَترَلـــق مـــع الأنـــبوب. كِش. يَسقُط في بُقعَة القطة صوت اصطِدامه بالهاوية حين آلَمَته الطَعنات الثلاث..

كـــان شاهين يَركُض وراء آلام الليل، حين الانطِلاقَة الأولى للعصافير. وتَستَيقِظ القرية ضاحِكَة ذات صَباح غريب.

تَضحَك البيوت والدرُوب والخَبّازات، والذين سَحَبوا بَقراتهم من النوم بعدما قَضت الليل تُحَرِّك ذيولها لطَرد البَعوض.

كـــل شـــيء يَضـــحَك.. حـــتى الكلاب ونباتات الشوك، والأعشاب الميتة في الروث كَلحية مُرهِق، والرَجُل الغريب الذي نام خجـــلاً بفَضل تكرار الكَرَم، وسأل: ما بكُم؟ ما الذي حَصَل؟ ما الذي يُضحِككُم؟.. ثم فَرَكَ كَفه استعداداً للفطور. لكنهم غارِقون في الضَـــحك. فَهَزَّ الطفلَة التي تُريد أن تَسكُت غير أنها كانت تَنظُر أســـنان أمهـــا المُصـــفَرَّة بالخُبّاز والنيكوتين. ما الذي حَصَل أيتها الصـــغيرة؟ لماذا يَضحَكُون؟... وهكذا.. أهمَلَ رأسه ليُكمِل النشيد الناقِص. ضَحك. ضَحك. ضَحك.....



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«إنها رواية غير عادية، فهي جديدة وكاتبها شاب جريء».

– جبرا إبراهيم جبرا

«لقد أحببت هذه الرواية العصية، إنها رواية مختلفة، لا يمكن أن تذكرنا بأي عمل روائي آخر ولم تتعكز على إنجاز روائي سابق.. إنها رواية وحيدة ومكتفية بما حملت».

– الروائي عبدالرحمن الربيعي

«إن دابادا هي الكتابة بشروط الحياة».

– القاص محمود جنداري

«إنها رواية تستفز القاريء وهي تتصدى لقضايا كبرى، إن هذه الرواية ستثير إشكالات في مستوى القراءة ومستوى التأويل وستختلف الآراء حولها».

– الناقد د.عبدالله إبراهيم

«إنها الرواية العراقية الوحيدة التي ظهرت بهذه السمات المميزة.. إن دابادا هي حقاً رواية عراقية متميزة، وفيها من التجديد ما لا يمكن إنكاره على الصعيدين البنائي والمضموني، حيث يمكّناها من الوقوف إلى جانب الروايات العظيمة».

– الشاعر صلاح حسن

«إن هذه الرواية تتجاوز حدود الواقعية لتدخل في إشكالية أكبر وأوسع من نمطية الكتابة المقنّعة... وإن لغة دابادا هي سر قوتها».

– الناقد د.باسل الشيخلي

دابادا: هي صرخة في الفراغ... تشهد نضال الإنسان ضد الموت التدريجي.

إنها رفسة موجّهة قبل حلول الزوال، لبعض الناس الذين يرفعون إنسانيتهم إلى الأعلى فيخرجون عن إطار الجذب الاجتماعي ويدخلون في صفحات الأسطورة.

إنها لا ترسّخ اتّجاهاً معيّناً ولا تدافع عن مدرسة أدبية، وإنما تتحدى قدسية التراث الروائي بأكمله، ولذلك، فهي تشبه قصيدة غليظة مشحونة بحسّ الفجيعة المُضحك، غائرة في التراث الاجتماعي لسكان وادي الرافدين حتى عصر آشور بانيبال، وربما كانت «تمريناً شاقاً لتعلّم الخطأ» كما يصفها كاتبها الذي يقول أنه كتبها ليحمي نفسه من القراء.

ISBN 9953-29-278-7
9789953292786

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com